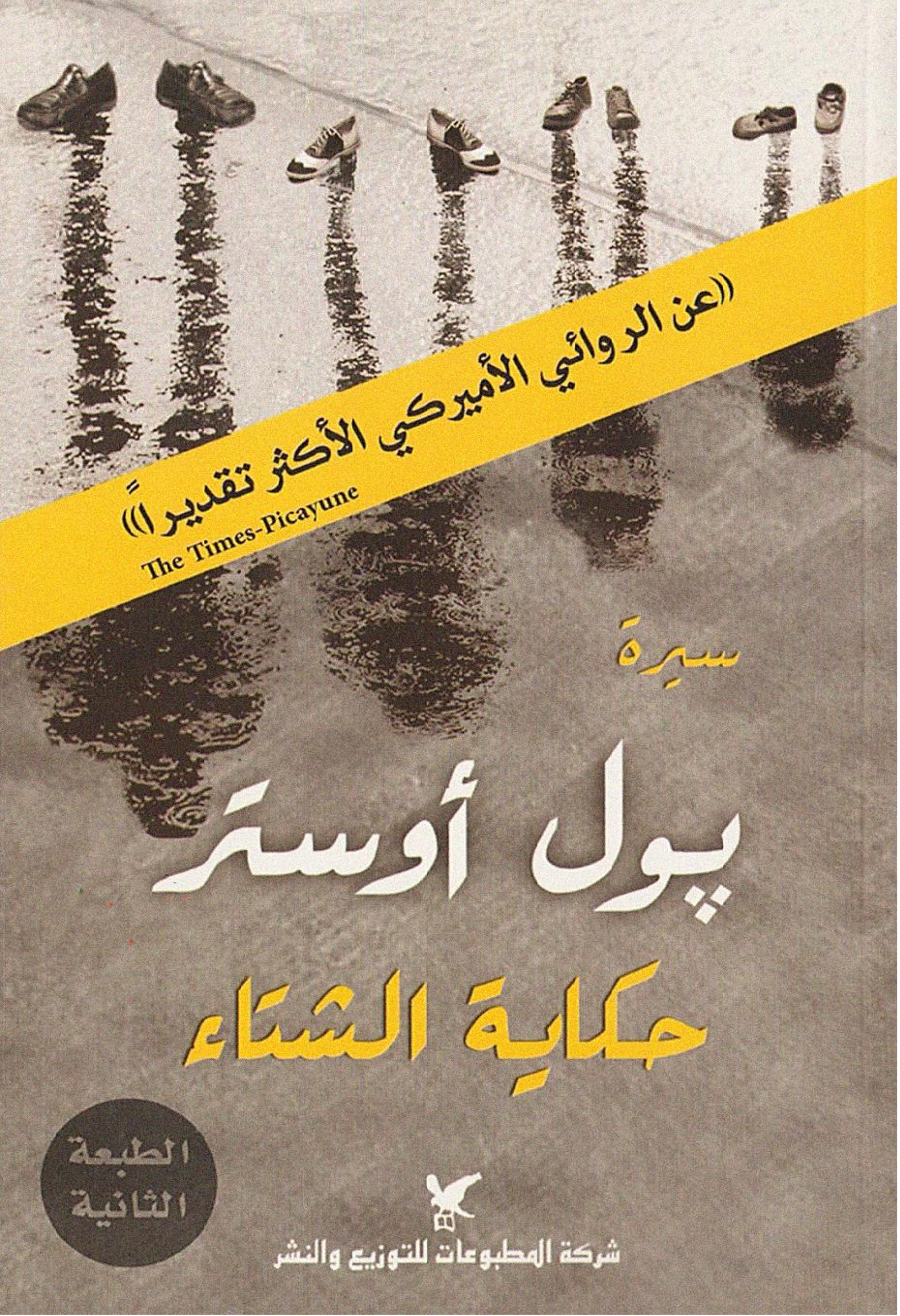


«عن الروائي الأميركي الأكثر تقديراً»
The Times-Picayune

سيرة

بول أوستر

حكاية الشتاء

الطبعة الثانية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

حكاية الشتاء

پول أوستر

حكاية الشتاء

(رواية)

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

تظن أنك في مأمن من هذه الأحداث، وأنها لن تنالك، وأنك الشخص الوحيد في هذا العالم الذي هو بمنأى عنها. لكن لا بد أن يحين وقت خيبة الظن فتراها تصيبك، كالآخرين تماماً.

قدماك الحافيتان على الأرض الباردة بعد مبارحتك السرير والتوجه صوب النافذة. أنت في السادسة. خارج النافذة يتساقط الثلج فيكسو أغصان الأشجار في الفناء الخلفي برداء أبيض.

الأفضل لك التحدث الآن قبل فوات الأوان. ولتأمل أن تستمر في الكلام إلى الآخر، أي حتى لا يبقى شيء يقال؛ ومع ذلك فالوقت يدهمك وربما من المستحسن أن تضع حكاياتك الخيالية جانباً في الوقت الحاضر، وتحاول أن تدرس بدقة ذلك الشعور بالعيش داخل هذا الجسد منذ أول يوم من حياتك تعود بك ذاكرتك إليه. إنه بيان من المعلومات والحقائق الحسيّة أو ما يمكن المرء تسميته «فينومينولوجيا التنفس».

أنت في العاشرة، وهواء منتصف الصيف حارّ، حارّ على نحو يقبض الصدر، وعلى درجةٍ عالية جداً من الرطوبة؛ تشعر بعدم الارتياح إلى حدّ أن العرق يتصبّب على جبينك بالرغم من جلوسك في ظل أشجار الفناء الخلفي للمنزل.

حقيقة إنك لم تعد شاباً لا تقبل الجدل. فبعد شهر سوف تبلغ الرابعة والستين.صحيح أنك لست عجوزاً ولا يعدّك الآخرون متقدماً في العمر، لكن لا يسعك إلا التفكير في كل من لم يتمكن من بلوغ هذه السن. هذا مثال واحد على حدوث أمور كثيرة تأمل ألا تحدث أبداً.

كيف لفحت الريح وجهك حين هبّت العاصفة الثلجية الشديدة الأسبوع الفائت، وكيف شعرت بقرصة البرد فيما كنت هناك في الشوارع الخالية وأنت تتساءل ما الذي دعاك إلى مغادرة البيت تحت وطأة عاصفة شديدة كهذه. مع ذلك كله وحتى فيما كنت تجاهد للحفاظ على توازنك، دهمك شعور بالبهجة والحبور نتيجة هبوب الريح؛ وكم سررت برؤية الشوارع المألوفة تتحول إلى غشاوة من الثلج الدوّامي الأبيض.

هناك أيضاً مباهج مثل آلام جسدية. تحلّ المتع الجنسية في المقام الأول ولكن إضافة إليها ثمة متعة في الطعام والشراب والاستلقاء عارياً في مغطس ساخن، وحكّ جلدك حين يهرشك والعطاس والضراط والبقاء في السرير ساعة إضافية ورفع وجهك صوب الشمس ذات عصر تحت سماء صافية في أواخر الربيع أو أوائل الصيف والشعور بالدفء يتسلل إلى بشرتك. أمثلة لا تحصى ولا تعدّ: ما من يوم مرّ من دون هنيهة أو هنيهات من المتع الجسدية. برغم ذلك لا شك أن الآلام لا تنفك تلح في ملازمتك ويصعب عليك تخفيفها. لا بد أن يكون كل عضو من أعضاء جسمك قد تعرض للاعتداء والأذيّة من حين إلى آخر. آلام في العين والأذن والرأس والرقبة والكتف والظهر والذراعين والرجلين والحنجرة والمعدة والكاحلين والقدمين، هذا فضلاً عن الدمّل المتضخم الذي ظهر فجأة على ردفك الأيسر، والذي شخّصه

الطبيب أنه «كيس دهن»: ما تناهى إلى مسمعك أنه مرض من القرون الوسطى منعك من الجلوس على الكرسي أسبوعاً.

كم كان جسدك الصغير قريباً من الأرض، الجسد الذي سكنك عندما كنت في الثالثة أو الرابعة، أو الأحرى كم كانت المسافة بين قدمك ورأسك قصيرة، وكم شكّلت الأمور التي لم تعد تلاحظها ذات مرة عنصراً حاضراً لك وشغلاً شاغلاً مقيماً: العالم الصغير من النمل الزاحف والعملات النقدية الضائعة، عالم الأغصان الصغيرة المتساقطة وسدادات الزجاجات المسنّنة وعالم الهندباء البرية والبرسيم، لكن على الخصوص عالم النمل، فهو الأكثر رسوخاً في الذاكرة: حشود من النمل ترتحل من جحورها وتفيء إليها.

ها أنت في الخامسة، تربض فوق كومة من التراب تعلو جحر النمل في الفناء الخلفي وتتفحص بدقة رواح وغدو أصدقائك الصغار جداً ذوي السيقان الست. على غفلة من الرؤية والسمع يتسلّل جارك ابن السنوات الثلاث من خلفك ويضربك على رأسك بالمدية اللعبة. تنغرز الأطراف المدببة في جلدة الرأس ويسيل الدم على شعرك نزولاً إلى قفاك وتدخل البيت راكضاً صارخاً حيث تضمّد جدتك جروحك.

ترن كلمات جدتك المصوّبة إلى والدتك: «لو كان والدك مختلفاً لكان زينة الرجال».

هذا الصباح تستفيق في عتمة فجر يوم آخر من أيام كانون الثاني/ يناير والنور الباهت يتسرّب إلى غرفة النوم. ها هو وجه زوجتك قبالة وجهك، عيناها مغمضتان وهي لا تزال مستغرقة في النوم. اللحاف يغطي جسمها كله حتى رقبتها، ووجهها العضو الوحيد الظاهر منها. تدهش وأنت تراها بهذا القدر من الجمال. تتعجب لأنها تبدو شابة فتية

أصغر من عمرها بكثير، حتى الآن: بعد مضي ثلاثين عاماً من العيش معاً تحت سقف واحد ومشاطرتها السرير ذاته.

تزداد كمية الثلوج المتساقطة اليوم، وفيما تنزل من السرير وتتجه إلى النافذة، تغدو أغصان الأشجار في الجنينة الخلفية بيضاء. أنت في الرابعة والستين. يخطر ببالك أنّ الأوقات التي لم تنعم فيها بطعم الحب في مشوارك الطويل منذ عهد الصبا إلى اللحظة الحاضرة نادرة. نعم، مضى ثلاثون عاماً على حياتك الزوجية، ولكن الأعوام الثلاثين التي سبقتها حفلت بالشغف والهيام وبالوقوع في الغرام الصبياني. كم مرة انتابك العشق والوله؟ كم فتاة طاردتها وكم من نشوة وجموح للرغبة؟ منذ البداية الأولى لحياتك الواعية وأنت عبد دائم الاستعداد للاستجابة لإله الحب «إيروس». الفتيات اللواتي أحببتهن في عهد الصبا والنساء اللواتي أحببتهن في طور الرجولة اختلفن جميعهن في الشكل واللون والهوايات والمزاج والأصل: أحببتهن ممتلئات ونحيفات، قصيرات وطويلات، مولعات بالقراءة والمعرفة كما بالرياضة؛ مزاجيات واجتماعيات، بيضاوات وسوداوات وآسيويات. لم يهمك المظهر البتة بل انصبّ كل اهتمامك على النور الداخلي الذي أمكنك استشعاره في أنثاك، وعلى لمحة من الفردانية والتميّز وعلى وهج الكينونة المستقلة الظاهرة فيها. ذلك الألق هو ما جمّلها في نظرك حتى وإن لم يرَ الآخرون الجمال الذي لمحته. ثم تتشوق لتكون بمعيّتها، بقربها، لأن جمال الأنثى أمر لم تقوَ على مقاومته. تعود بالذاكرة إلى أيامك الأولى في المدرسة، وإلى صف الروضة حيث وقعت في حب بنت ذات تسريحة ذيل الحصان بشعرها الأشقر الطويل. كم مرّة أنزلت فيك الآنسة «ساندكويست» العقاب لتسلّلك خفية برفقة البنت الصغيرة التي أغرمت بها إلى زاوية ما والتشيطن معها. لكن العقوبات تلك لم تعنِ

لك شيئاً لأنك كنت واقعاً في الغرام وكنت مولعاً بالحب حينذاك كما هي حالك الآن.

جسدك يحوي قائمة آثار جروح مندملة، ولاسيما تلك المحفورة على وجهك التي تتراءى لك كل صباح عندما تنظر إلى مرآة الحمّام لحلق ذقنك أو تسريح شعرك. نادراً ما تفكر في هذه الندوب ولكن كلما أتت ببالك أدركت أنها أمارات حياتك الفارقة وأن الخطوط المسنّنة المتنوعة والمختلفة المحفورة في جلدة وجهك بمنزلة حروفٍ أبجدية سرّية تسرد وقائع متصلةً بماهيتك وتعرّف عنك لأن كل ندبةٍ أثر لجرح مندمل، ولأن وراء كل جرح صداماً مع العالم غير منتظر، أي حادثاً أو أمراً ما لم يكن هناك موجب لوقوعه بما أن أي حادث هو أمر ينبغي عدم وقوعه. الحقائق المحتملة الوقوع في مقابل الحقائق الحتمية؛ وتيقنك وأنت تنظر ملياً إلى المرآة هذا الصباح من أن الحياة كلها محتملة الوقوع إذا ما استثنيت الحقيقة الواقعة حتماً، ألا وهي أنه عاجلاً أو آجلاً ثمة نهاية مؤكدة لهذه الحياة.

عمرك ثلاث سنوات ونصف السنة: تصطحبك والدتك الحامل والبالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً إلى أحد المتاجر الكبيرة الشاملة في وسط مدينة «نيوأرك» للتسوّق. ترافقها إحدى صديقاتها وابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات ونصف السنة أيضاً. في لحظة ما تفلت أنت ورفيقك الصغير من قبضة الوالدة وتركضان في أنحاء المتجر. هو مكان مفتوح وكبير جداً، لا شك أنها أكبر غرفة وطئتها قدماك. تأخذ منكما الإثارة كل مأخذ فتنجرفا في الركض على هواكما في أرجاء الساحة العامة الداخلية الضخمة. في النهاية تبدأ أنت والصبي لعبة ارتماءة البطن على الأرض والتزحلق على طول الأرضية الملساء والتزلج من دون مزلجة إذا جاز التعبير. بعد الاختبار تتكشف لك كم هي لعبةٌ

ممتعة ومنهلٌ عميق لسعادةٍ غامرة تباغتك وتؤخذ فيها إلى حدّ توغلك في اللامبالاة والطيش والتجرّؤ على محاولة القيام بما ترغب فيه. تبلغ ركناً في المتجر حيث تجري أعمال بناء أو تصليح؛ لا تُقلق نفسك بالتنبه إلى العوائق التي قد تواجهك فتعاود لعبة ارتماءة البطن على الأرض وتتهادى على طول الأرضية الملساء البرّاقة إلى أن تجد نفسك متجهاً بسرعة فائقة إلى دكة نجّار خشبية. تظن أن بإمكانك تجنّب الاصطدام بقائمة الطاولة التي تلوح أمامك باستدارة صغيرة لجسدك الصغير، ولكن ما لا تفطن إليه في اللحظة التي يجب عليك تغيير المسار وجود مسمار ناتئ من قائمة الطاولة، مسمار طويل منخفض إلى حدّ أنه على مستوى وجهك تماماً؛ وقبل أن تتمكن من التحكم في حركة جسدك وإيقافه ينغرز في خدك فيما تحاول بتجاوزه، فينشقّ وجهك. لا تتذكر شيئاً عن هذه الحادثة بعد مرور ستين سنة. تذكر الجري وارتماءة البطن على الأرض لكنّك لا تتذكر شيئاً عن الأوجاع أو الدماء أو حملك إلى المستشفى أو الطبيب الذي قطّب خدّك. «ما أنجزه كان مدهشاً، هذا ما دأبت والدتك في قوله. لأنها لم تفق من الصدمة لدى رؤيتها نصف وجه ابنها البكر ممزّقاً شرّ تمزيق، راحت تكرّر أنّ ما قام به الطبيب كان رائعاً ومدهشاً»: أمر متعلق بطريقة بارعة قائمة على «تقطيب الجرح» خفّفت الضرر ما أمكن وحالت دون تشويه وجهك مدى الحياة. اعتادت أن تقول لك: «كان من الممكن أن تفقد عينك»، أو حتى بصوت تعلو فيه نبرة التأثر: «كان من الممكن أن تفقد حياتك». لا شك أنها كانت محقّة. خفّ أثر الجرح شيئاً فشيئاً بمرور السنين لكنه لا يزال موجوداً كلما تطلّعت إليه، ولسوف تلازمك علامة حسن الطالع (العين سليمة! لم تمت!) إلى القبر.

هناك أيضاً ندبةٌ تشطر الحاجب الأيسر وأخرى على الحاجب الأيمن؛ الاثنتان متماثلتان تقريباً. ظهرت الندبة الأولى عندما ركضت بأقصى سرعة ممكنة واصطدمت بكل زخم بحائط إسمنتي في أثناء لعبة كرة المراوغة في المدرسة الابتدائية في حصة الرياضة البدنية (الكدمة حول عينك المتورّمة كلها التي تباهيت بها عدة أيام بعد الحادثة لأنها ذكّرتك بإحدى الصور الفوتوغرافية للملاكم «جين فولمر» الذي خسر في إحدى مباريات الملاكمة أمام خصمه «شوغار راي روبنسون» أقيمت في الوقت ذاته تقريباً). أما الندبة الأخرى فهي نتيجة خبطة أخرى تلقيتها في مطلع عشرينياتك وذلك عندما اندفعت «لتشوط» الكرة في إحدى مباريات كرة السلة المقامة في الهواء الطلق؛ أعاقك أحد اللاعبين من الخلف وارتكب خطأً بحقك، فاصطدمت بالعمود الحديدي الذي ثُبّتت عليه السلّة. ندبةٌ أخرى على ذقنك وسبب ظهورها مجهول: على الأرجح أنها نتجت من وقعة في طفولتك المبكرة؛ ربما سقطة قوية على أحد أرصفة المشاة أو أن حجراً «فدغك» وترك أثراً لايزال ماثلاً لعينك كلما حلقت ذقنك في الصباح. ليس ثمة قصة تروى لتعليل وجود هذه الندبة، فوالدتك لم تأتِ على ذكرها مطلقاً (لا يسعك أقله تذكر ذلك)، وأنت تجده أمراً غريباً إذا لم يكن محيراً بكل ما في الكلمة من معنى، أي إن المسؤول عن هذا الخط الذي حفر ذقنك ليس إلا ما يمكننا تسميته «يداً خفية»، وإن جسدك موقع أحداث لفظه التاريخ.

إنه شهر حزيران/يونيو عام ١٩٥٩. أنت في سن الثانية عشرة وبعد أسبوع سوف تتخرج مع زملائك في الصف السادس من المدرسة الابتدائية التي ارتدتها مذ كنت في الخامسة. هو يوم بديع، خير مثال على ألق نهايات الربيع: ترسل الشمس نورها من سماء زرقاء صافية،

نورها دافئ وليس حاراً؛ لا تشعر برطوبة زائدة، ونسمة خفيفة تحرّك الهواء تداعب وجهك وعنقك وذراعيك المكشوفتين. حالما يحين الوقت للخروج من المدرسة ترافق مجموعة من أصدقائك إلى «غروف بارك» للعب البيسبول بعيداً عن القواعد الرسمية. اسم المكان لا يدلّ عليه، إذ إنه ليس حديقة عامة بقدر ما يشبه قرية خضراء: أرض كبيرة مستطيلة من العشب المشذّب محاطة بالبيوت من الجوانب الأربعة. بقعة تسرّ العين؛ والأحرى هي من أجمل الساحات العامة في بلدتك الصغيرة «نيو جيرسي». تشكّل لك ولرفاقك وجهة دائمة تقصدونها بعد انتهاء الدوام في المدرسة بما أنّ البيسبول لعبتكم المفضلة وتمضون ساعات طوالاً في اللعب من دون كلال أو تعب. تلعبون بغياب الكبار وتضعون قوانينكم الخاصة باللعبة وتسوون خلافاتكم بأنفسكم في غالبية الأوقات بالمواجهات الكلامية وبين الحين والآخر بقبضة اليد. مرّت خمسون سنة ولا تذكر شيئاً من تلك المباراة التي شاركت فيها عصر ذلك اليوم، لكن ما تذكره هو الآتي: انتهت المباراة وأنت واقف بمفردك وسط الميدان تلعب «اللقطية» [قذف الكرة والتقاطها]. بمعنى آخر تقذف الكرة عالياً وتتبع حركة صعودها ونزولها إلى أن تقع في قفازك. في الحال تعاود قذف الكرة عالياً، وفي كل مرة تقذف الكرة تعلو أكثر فأكثر. بعد عدة «رميات» تبلغ أعالي غير مسبوقة؛ ها هي الكرة تترجح في الجو عدة ثوان، الكرة البيضاء تصعد إلى السماء الزرقاء الصافية، الكرة البيضاء تهبط إلى قفازك، وينشغل كيانك كله بهذه الحركة التي تشلّ تفكيرك. تركيزك منصبّ عليها فليس في الوجود سوى الكرة والسماء وقفازك، ما يعني أنّ وجهك مرفوع إلى فوق وأنك تنظر إلى الأعلى فيما تتبع مسار الكرة وبالتالي لم تعد دارياً

بما يحدث على الأرض: فيما تنظر إلى السماء يصطدم شيء ما أو أحد ما بك بغتة وفي غفلة منك. الاصطدام مفاجئ جداً وعنيف جداً وشديد الوقع جداً بحيث تقع فوراً على الأرض وتشعر كأنما صدمتك مصفّحة. تركزت الضربة على رأسك وعلى الخصوص جبينك، وجذعك لم يسلم أيضاً ولحق به ضرر جسيم. فيما تدرك أنك واقع على الأرض وتجاهد لالتقاط أنفاسك، مذهولاً من وقع الصدمة وفاقد الوعي تقريباً ترى دماً يسيل من جبينك؛ لا لا يسيل، بل يتدفق: لذا تخلع قميصك التي شيرت - T-shirt الأبيض وتضغطه على العضو النازف. ما هي إلا لحظات حتى يصبح القميص الأبيض كله أحمر. يهلع الصبية الآخرون. يهرعون إليك لمساعدتك على قدر إمكاناتهم. عندئذ فقط يتكشف لك ما حدث؛ يبدو أن أحد الرفاق المغفّلين الفارعي الطول والطيبي القلب ويدعى «بي .تي.» (لا تزال تذكر اسمه الحقيقي لكنك لن تكشف عنه الآن لأنك لا تريد إحراجه مسلّماً بأنه لا يزال حياً يرزق) أُخذ كثيراً برمياتك العالية جداً التي بلغت ناطحات السحاب حتى عنّ على باله فجأة المشاركة في اللعبة. لم يكلّف نفسه عناء إخطارك بعزمه على التقاط الكرة بعد إحدى رمياتك، فأخذ يعدو باتجاه الكرة «النازلة» وبالطبع وجهه مرفوع إلى الأعلى وفمه مفتوح على وسعه ببلاهة (أي إنسان عاقل يعدو وفمه مفتوح على وسعه؟). وعندما اصطدم بك بعد لحظة راكضاً منطلقاً بأقصى سرعته انغرزت أسنانه الناتئة من فمه المفتوح في رأسك مباشرة. لهذا يتدفق الدم منك ولهذا يوجد هذا الجرح البالغ فوق عينك اليسرى. لحسن الحظ تقع عيادة طبيب العائلة في الجانب المقابل من الطريق تماماً وتحديداً في أحد المجمّعات حول «غروف بارك». يقرر زملاؤك الذهاب بك إلى العيادة على الفور، وهكذا تعبرون الحديقة وقميصك التائي المشبع بالدم ملقى على رأسك. ربما

كان عدد رفاقك أربعة أو ستة، لم تعد تذكر؛ وتندفعون بقوة وبالجملة إلى عيادة الدكتور «كوهن». (لم تنسَ اسمه تماماً كما لم تنسَ اسم معلمتك في صف الروضة الآنسة «ساندكويست» أو أي اسم من أسماء معلماتك الأخريات في عهد الصبا). تقول لكم الموظفة في غرفة الاستقبال إنّ الدكتور «كوهن» يعاين أحد المرضى. وما أن تهمّ بمبارحة كرسيّها لإخطار الطبيب بوجود مريض يستوجب عناية فورية حتى تندفع بغضب أنت ورفاقك إلى داخل العيادة من دون تكليف أنفسكم قرع الباب. تجد الدكتور «كوهن» يتحدث إلى سيدة ممتلئة في خريف العمر جالسة على طاولة الفحص لا يستر جسدها سوى حمّالة صدر وسروال تحتي. تصرخ المرأة بدهشة واستنكار، ولكن ما أن يرى الدكتور «كوهن» الدماء التي تسيل بغزارة من جبينك حتى يطلب إليها ارتداء ثيابها والخروج من الغرفة ويطلب إلى رفاقك الانصراف ثم ينكبّ على تقطيب جرحك. هو إجراء تقليدي مؤلم جداً لأن الوقت لا يسمح باستخدام البنج لكنّك تبذل أقصى جهدك كي لا تولول وهو يقطّب الغرزات في جلدك. ربما لم يكن عمله رائعاً ومثيراً للإعجاب مقارنة بما قام به الطبيب الذي قطّب خدّك عام ١٩٥٠، ولكن برغم ذلك كله لا بأس بالنتيجة لأنك لم تنزف حتى الموت ولم يعد ثمة غور في رأسك. بعد بضعة أيام على هذه الحادثة تشارك أنت وزملاؤك في الصف في حفلة التخرج في المدرسة الابتدائية. تم اختيارك لحمل العلم، ما يعني أنه عليك حمل العلم الأميركي باجتياز الممر الواقع بين المقاعد في قاعة المدرسة وغرسه في السارية على المنصة. رأسك ملفوف بضمادة من الشاش الأبيض، ولأن الدم لا يزال ينزّ بين الحين والآخر من البقعة المقطّبة، ثمة بقعة حمراء كبيرة على الشاش الأبيض. بعد انتهاء الحفلة تقول والدتك إنه عندما كنت تسير

في الممر وأنت تحمل العلم ذكّرتها برسم بطل حرب. تقول: تماماً كـ «روح الـ ٧٦»[1].

* * *

ما الذي يلح عليك؟ ما الذي لطالما شكّل عامل ضغط عليك؟ هو كامن في الخارج أي الهواء، أو بدقة أكثر، جسدك في الهواء المحيط بك. صحيح أنّ باطن قدميك مثبّت في الأرض لكن كل ما تبقى منك معرّض للهواء. ومن هنا تبدأ الحكاية: مع جسدك، وكل شيء سوف ينتهي مع الجسد أيضاً. أما الآن فأنت تفكّر في الريح. لاحقاً، وإن سمح الوقت بذلك فسوف تفكر في الحرّ وفي البرد وفي أشكال المطر اللانهائية وفي الكتل الضبابية التي تعثّرت بها وأصبحت رجلاً من دون عينين، وقرقعة حبات المطر الشديدة، لدى هبوب عواصف البرد المجنونة على سقف قرميد البيت، في إقليم «فار». لكن الريح هي ما يستحوذ على انتباهك الآن لأن الهواء لا يسكن إلا نادراً. وبعيداً عن لفحة العدم المحيطة بك التي بالكاد تحس بها، هناك النسمات والأنغام المختلفة المنسابة في الهواء وهبّات الريح والأنواء المفاجئة والرياح الشمالية العنيفة الباردة الجافة التي دامت ثلاثة أيام وصمدت أمام قساوتها في ذلك البيت ذي السقف القرميدي، إضافة إلى الرياح الشمالية الشرقية الغزيرة الأمطار التي تضرب المناطق الساحلية الواقعة على المحيط الأطلسي، والعواصف الهوجاء والأعاصير والزوابع. ها أنت تعود أحد عشر عاماً إلى الوراء: تسير في شوارع أمستردام في طريقك لحضور مناسبة اجتماعية ألغيت من دون علمك. تحاول تحسّساً

(١) وهي لوحة تجسد أحد أبطال حرب الاستقلال لـ «أرشيبالد ويلر» عنوانها Spirit of 76. (المترجمة)

بالواجب التزام وعدك الذي قطعته (بالمجيء). أنت في الطريق تواجه ما سوف يسمّى لاحقاً عاصفة القرن؛ هو إعصار عنيف جداً إلى حد أنه قبل انقضاء ساعة على تنفيذ ما عزمت عليه في لحظة عناد وطيش، أي التجرؤ على الخروج في هذه العاصفة القوية، سوف تُقتلع الأشجار الكبيرة في كل أنحاء المدينة وتنقلب المداخن على الأرض وتطير السيارات المركونة في الفضاء. تسير ووجهك في اتجاه العاصفة: تحاول المضي قدماً على الرصيف، ولكن على الرغم من جهودك المبذولة للوصول إلى وجهتك المقصودة لا تستطيع التحرك. ها هي العاصفة تهب عليك وترى نفسك عالقاً للدقيقة ونصف الدقيقة التالية.

* * *

يداك على جسر «هاف بيني» في «دبلن» في شهر كانون الثاني/ يناير قبل ثلاث عشرة سنة. إنها الليلة التي أعقبت إعصاراً آخر بسرعة رياح بلغت مئة ميل في الساعة. هي ليلة العرض الأخير للفيلم الذي عملت على إخراجه طوال الشهرين المنصرمين: المشهد الأخير، اللقطة الأخيرة. إنه أمر بسيط لا يتطلب سوى تسليط الكاميرا على يد بطلة فيلمك المقفزة فيما هي تدير رسغها وتفلت حجراً صغيراً سوف يسقط في مياه نهر «ليفاي». عمل سهل جداً مقارنةً باللقطات الأخرى التي تطلبت قدراً أكبر من الجهد والبراعة والإبداع، لكنك قابع في ظلمة هذا الليل ورطوبته الشديدة وقد اكتسحته الريح. لم تشعر بمثل هذا الكم من الإنهاك والتعب، بعد تسعة أسابيع من الشغل المضني في إنتاج عمل مفعم بالمشاكل والصعوبات والمخاطر (مشاكل في الميزانية ومع النقابة وفي مواقع التصوير الخارجية وفي الأحوال الجوية الرديئة). كما فقدت خمسة عشر باونداً من وزنك منذ بداية هذا المشروع، وبعد

الوقوف طوال ساعات على الجسر مع طاقم العمل، تسلّل هواء إيرلندا القارس والرطب إلى عظمك؛ وقبل تصوير اللقطة الأخيرة بلحظة تدرك أنّ يديك مجمدتان وأنك لا تقوى على تحريك أصابعك وأن يديك تحولتا كتلتين من الثلج. تسائل نفسك: «لِمَ لم تلبس قفازاً؟». لكنك لا تستطيع الإجابة عن السؤال بما أنّه لم تخطر فكرة لبس القفاز ببالك مطلقاً وقت مغادرتك الفندق والمجيء إلى الجسر. تعيد تصوير اللقطة الأخيرة كرّة أخرى ومن بعدها تذهب برفقة المنتج والممثلة الرئيسية وصديقها ومجموعة أخرى من طاقم الفيلم إلى حانة قريبة من موقع التصوير للتحرّر من آثار البرد بالتدفئة وللاحتفال بإتمام الفيلم. المكان يغصّ بالناس، مزدحم تماماً: عبارة عن حجرة صدى[1] غاصة بأناس يضجون ويصخبون ويذرعون المكان جيئة وذهاباً منتشين مرحاً وطرباً. إلا أنه قد تمّ حجز طاولة لك ولرفاقك. تجلس إلى الطاولة، وما أن يلامس جسدك الكرسي حتى يحلّ التعب كلياً وتشعر أنّ طاقتك كلها مستنفدة جسدياً وعاطفياً، مستنفدة على نحو يفوق الخيال؛ «ينهدّ حيلك» حتى تشعر أنك ستنفجر في أيّ لحظة. تطلب كأساً من الويسكي، وعندما تمسك بالكأس وترفعها إلى شفتيك يسعدك أن ترى أصابعك تتحرك مجدداً. تطلب كأساً ثانية وثالثة ثم رابعة، وفجأة تغط في النوم. على الرغم من الضجة حولك تتمكن من أن تظل نائماً إلى أن يوقفك الرجل الطيب الذي هو منتج فيلمك على قدميك ويوصلك إلى الفندق بجرّك تارة وبحملك تارة أخرى.

نعم، أنت تفرط في الشرب والتدخين وقد فقدت سنّين اثنتين من أسنانك من دون رغبة في استبدالهما. كما أنّ نظامك الغذائي لا يتطابق

(١) غرفة ذات جدران عاكسة للصوت. (المترجمة)

مع الوصايا الغذائية المعاصرة. بيد أنك تأنف من تناول غالبية الخضر لأنك بكل بساطة لا تحبها، وتجد تناول ما لا تحبه أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. تعلم أنّ زوجتك تقلق بشأنك. يقلقها على الخصوص إدمانك التدخين والشرب ولكن حمداً لله لم تكشف ولا صورة شعاعية إلى الآن أي ضرر أصاب رئتيك، وكذلك لم تشر فحوص الدم التي أجريتها إلى تلف أصاب كبدك. وهكذا تقبل على عاداتك السيئة أكثر فأكثر وأنت على تمام المعرفة بأنها لا بد أن تلحق بك أشدّ الضرر في النهاية. لكن كلما تقدمت في العمر قلّ إمكان امتلاكك الإرادة أو الشجاعة للتخلي عن غليونك الصغير المحبب إلى قلبك وعن كؤوس الخمر الدائمة التي لطالما شكّلت لك منفذاً للمتعة والسعادة على مرّ السنين. تفكر أحياناً أنك لو أقلعت عن هذه المسرّات في هذه السن المتقدمة فلسوف يتهاوى جسدك ويتوقف جهازك البيولوجي عن تأدية مهامه. لا شك أنك شخص متصدّع ذو عيوب ونواقص، مكلوم؛ شخص يحمل في طياته جرحاً منذ بداياته الأولى (وإلا ما دعاك إلى قضاء حياتك الراشدة كلها وأنت تنزف كلمات على ورقة؟)؛ ولا شك أنّ الفوائد التي تعود عليك من جرّاء الكحول والتبغ تشكل عكازاً تتكىء عليه كي تبقي ذاتك المقعدة منتصبة متلمسة طريقها في هذا العالم. هو علاج ذاتي كما تسمّيه زوجتك. خلافاً لحماتك لا تريدك أن تكون شخصاً مختلفاً. زوجتك تحتمل مواطن ضعفك ولا تخاطبك بنبرة غاضبة أو تجأر بالشكوى أو تؤنبك، وما من سبب لقلقها سوى رغبتها في أن تعمّر طويلاً. تعدّدت الأسباب التي دعتك إلى التمسك بها وإبقائها قربك هذا العمر كله، وبدون أدنى شك هذا هو أحد الأسباب، أحد النجوم الساطعة من كوكبة الحب الدائم الفسيحة.

غني عن القول إنك تسعل ولا سيما في الليل عندما تكون الوضعية الجسمانية أفقية. في ليلة كهذه حينما تنسد مجاري التنفس أكثر من

اللازم تنهض من السرير وتذهب إلى غرفة أخرى وتسترسل في السعال وتشتد وطأته إلى أن تلفظ المادة المسببة له تماماً. بالرجوع إلى صديقك «سبايغلمان» (لا تعرف شخصاً آخر مولعاً بالتدخين أكثر منه)، إذ كلما سأله أحدهم: «لِمَ تدخن؟»، كانت إجابته الحتمية: «لأني أحب أن أسعل».

إنها سنة ١٩٥٢. أنت في الخامسة، عارٍ في المغطس وحيداً. تبدو كبيراً بما فيه الكفاية لكي تستحم بنفسك. بينما تتمدد على ظهرك في المياه الدافئة، ينتصب عضوك الذكري بغتة ويبرز فوق حدّ المياه. حتى تلك اللحظة لم تر عضوك الذكري إلا من فوق، وأنت واقف على قدميك وتتطلع إلى الأسفل. لكن من هذا الموقع المهيمن، أي على مستوى العين تقريباً، يخطر ببالك أنّ طرف عضوك الذكري الذي اقتلعت منه الجلدة الأمامية يشبه إلى حد لافت الخوذة، وبالتحديد خوذة قديمة الطراز شبيهة بتلك التي كان يضعها رجال الإطفاء في أواخر القرن التاسع عشر. يسرّك هذا الكشف بما أنه في هذه المرحلة من حياتك أقصى طموحك هو أن تكبر وتصبح رجل إطفاء؛ ففي رأيك، لا يوجد عمل بطولي وخارق على وجه الأرض كإطفاء الحرائق (لا شك أنه كذلك). فكم هو أمر ملائم أن تملك صورة مصغّرة لخوذة إطفائي انتقشت على شخصك بالذات وعلى عضو من أعضاء جسمك لا يشبه خرطوم الماء من حيث الشكل فقط بل يماثله في تأدية المهام أيضاً.

كم مرة انحشرت وكم من لحظة يائسة عشتها كلما شعرت بحاجة ملحة لتفريغ مبولتك ولم تجد مرحاضاً بالقرب منك: على سبيل المثال المرات التي وجدت نفسك فيها عالقاً في زحمة السير أو جالساً في أحد القطارات الكهربائية النفقية التي تتعطل وتتوقف بين المحطات، حين تمر بلحظات من العذاب المضني وأنت تجاهد «لحبس بولك». هذه

معضلة يختبرها القاصي والداني ولا يتحدث عنها أحد برغم أن الجميع عاناها في وقت من الأوقات. صحيح أن خير مثال مضحك على معاناة البشر هو المبولة الممتلئة إلى حدّ الانفجار، لكنك لا تنصرف إلى الضحك إلا بعد أن تتمكن من البول، لأنه هل ثمة أي إنسان فوق الثالثة من العمر يرغب في البول في سرواله على الملأ؟ لهذا السبب لن تنسى مطلقاً هذه الكلمات التي كانت آخر ما أسرّ به والد أحد أصدقائك في أذن ابنه وهو على فراش الموت: «احفظ يا «شارلي» قولي هذا جيداً، إياك أن تفوّت عليك أي فرصة تعرض عليك للبول». وهكذا فإن حكمة العصور تتوارثها الأجيال.

إنه العام ١٩٥٢ مجدداً وأنت في المقعد الخلفي لسيارة العائلة: سيارة «دي سوتو» الزرقاء موديل ١٩٥٠ التي جاء بها والدك إلى المنزل يوم ولدت شقيقتك. والدتك تسوقها وأنتم ماضون في الطريق منذ بعض الوقت؛ لم تعد تذكر من أين أتيتم وإلى أين تتجهون لكنكم في طريق العودة: لا تستغرق المسافة إلى المنزل أكثر من عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة. أنت محشور جداً منذ بعض الوقت والضغط في مبولتك يزداد باستمرار، وتتلوى من ألم الحصر في المقعد الخلفي فيما تضع إحدى ساقيك على الأخرى ويدك تضغط على منفرج الساقين غير واثق بقدرتك على الاحتمال أكثر. تخبر والدتك بالورطة التي أنت فيها وتسألك إن كان بإمكانك الصمود والانتظار عشر دقائق أخرى؛ تقول لها إنك لا تعتقد أنك ستصمد كل هذا الوقت. تقول لك إنه في هذه الحال لن يكون ثمة خيار آخر إلا البول في سروالك ما دام لا يوجد مكان مناسب من هنا إلى المنزل للتوقف فيه. يا لها من فكرة راديكالية تشكل في ذاتها خيانة لما تعدّه استقلالية خليقة بالرجال لم تكتسبها «بالهيّن»؛ حتى إنه لا يسعك أن تصدق ما قالت تواً. تسألها:

«أبول في سروالي؟»، وتجيب: «نعم بُلْ في سروالك، ما الأثر الذي سيحدثه؟ سوف نلقي ثيابك في الغسّالة حالما نصل إلى المنزل». وهذا ما يحدث: بموافقة والدتك التامة والعلنية تبول في سروالك للمرّة الأخيرة.

ها أنت في سيارة أخرى بعد خمسين سنة، سيارة مستأجرة هذه المرة لأنك لا تملك واحدة مسجلة باسمك. السيارة التي تقودها منذ ثلاث ساعات في طريق العودة من «كونكتيكات» إلى بيتك في «بروكلين»، هي سيارة رائعة جديدة من طراز «تويوتا كورولا». إنه شهر آب/أغسطس عام ٢٠٠٢؛ أنت في الخامسة والخمسين وما زلت بارعاً في قيادة السيارة مذ كنت في سن السابعة عشرة. برأي كل من شاهدك تسوق أنت سائق بارع وواثق بنفسك، وقد خلا سجلك في القيادة من حوادث السير ما عدا «خربشة» بسيطة واحدة طوال ما يقارب أربعين سنة قضيتها خلف المقود. زوجتك جالسة في المقعد الأمامي إلى يمينك وفي الخلف ابنتك البالغة من العمر خمسة عشر عاماً (التي أنهت تواً برنامجاً صيفياً في التمثيل في إحدى مدارس «كونكتيكات» وهي ترقد مسترخية على اللحف والوسائد التي استخدمتها لفرش سريرها طوال الشهر المنصرم. كلبك نائم أيضاً في المقعد الخلفي، ذلك الكلب المهجّن الشارد الهزيل الذي آويته أنت وابنتك في المنزل منذ ثمانية أعوام، بعد أن كان شارداً في الشوارع؛ لقبته «جاك» على اسم «جاك ويلتون»، بطل «المسافر السيّئ الحظ» (The Unfortunate Traveller) أحد أفلام «ناش» وقد بقي منذ ذلك الحين فرداً يحبه كل أهل البيت وإن كان مجنوناً طائشاً. زوجتك التي يشغل بالها أمور أخرى كثيرة لم تقلق حيال قيادتك السيارة، بل في الحقيقة غالباً ما أثنت على إمساكك بزمام الأمور كيفما كانت أحوال

السير: على سبيل المثال كيفية تجاوزك سيارات أخرى على طرق عامة متعدّدة المسالك أو كيفيّة تعاملك مع خطوط السير المتشابكة في شوارع المدن أو الحدّ من سرعتك لدى اقترابك من المنعطفات والمنحنيات على الطرق الريفيّة واجتيازها. لكن اليوم يخامرها إحساس بوجود خطب ما وبكونك لا تركز كما يجب ولا تحسب حساباً لعامل الوقت. وها هي تلحّ في الطلب غير مرة على الانتباه جيداً وأنت تسوق. آن لك أن تحكّم عقلك ولا تشكك في صحة أقوال زوجتك، لأنها تمتلك قدرة عجيبة على قراءة أفكار الآخرين وعلى رؤية بواطن الغير وعلى استشعار خفايا المواقف البشرية. كم من مرة أدهشتك لأنه ثبت لك مدى دقة مقدراتها الطبيعية. لكن قلقها في هذا اليوم بالذات فاق حدّه حتى بدأ يثير أعصابك. تسألها: «ألستُ معروفاً بكوني سائقاً بارعاً؟ هل سبق لي أن تسببت بحادث سير؟ وهل جازفت في عمري بحياة الأعز إلى قلبي في هذه الدنيا؟» تجيب: «لا، بالطبع لا، لا أعرف ماذا دهاني». حالما تصل إلى أكشاك المكوس على جسر «تريبورو» تقول لها: «انظري، ها نحن في مدينة نيويورك وعلى وشك الوصول إلى المنزل». بعد ذلك تعدك بأن لا تنبس بكلمة أخرى عن قيادتك للسيارة. لكنْ ثمة خطب ما حتى وإن لم تكن لديك رغبة في الإقرار بهذا الأمر: هذه سنة ٢٠٠٢ وقد حدثت لك أمور كثيرة في هذه السنة الملأى بالمفاجآت المزعجة. فلم لا تخونك معرفتك الفائقة بقيادة السيارة وتفقد كل تلك المهارة في هذا المجال فجأة وبصورة لا يمكن تعليلها؟ أسوأ ما حدث كان وفاة والدتك في منتصف شهر أيار/ مايو (نوبة قلبية)، ما صدمك بقوة، ليس لأنك لم تعرف بأن من يبلغ سن السابعة والسبعين يمكن أن يموت، ويموت فعلاً من دون إنذار، ولكن لأنها بدت بصحة جيدة؛ وقبل وفاتها بيوم واحد بالضبط تكلمت

معها عبر الهاتف وكانت معنوياتها عالية جداً: رَوَت لك نكات مضحكة بحيث أنك بعد الانتهاء من المكالمة الهاتفية قلت لزوجتك: «لم أعهدها سعيدة بهذا القدر منذ سنين عديدة». أسوأ ما حدث لك في هذه السنة هو موت والدتك ولكن كانت هناك أيضاً الجلطة التي أصابت رجلك اليسرى في خلال رحلتك الجوية الطويلة إلى كوبنهاغن على الدرجة السياحية في مطلع شهر شباط/فبراير، التي دامت تسع ساعات. ألزمتك هذه الجلطة البقاء متمدداً على السرير عدة أسابيع واستخدام عصا للمشي أشهراً عديدة من بعدها. هذا فضلاً عما عانيته من عينيك: بداية تمزّق في قرنية عينك اليسرى ثم بعد بضعة أسابيع تمزّق آخر في القرنية اليمنى. تلا ذلك حالات مرضية متكررة عشوائية تماماً ظهرت في أول عين ثم الأخرى في الشهور العديدة الماضية. دائماً يحضر الألم وأنت نائم، ما يعني ليس ثمة ما يمكنك فعله لردّه (بما أن المرهم الذي وصفه طبيب العيون لم يترك أثراً يذكر). كم من صباح استقبلك بتمزّق آخر في القرنية فشعرت بألم شديد جداً باعتبار العين أكثر أعضاء جسم الإنسان عرضة للأذى وللتأثر، وهذه حقيقة لا جدال فيها. وبعد وضع القطرات المسكنة للألم التي وصفها الطبيب لمثل هذه الحالات الطارئة، كان عليك الانتظار ساعتين إلى أربع ساعات قبل أن تخف وطأة الألم تدريجاً. ما من شيء يسعك فعله في ساعات الانتظار هذه سوى أن تجلس ساكناً وتضع قطعة غسل باردة فوق عينك المصابة التي تبقيها مغمضة لأنك إذا فتحتها ستشعر وكأنما وخزت بدبوس. وهكذا فقد لبثت رهينة جلسات التمارين العديدة التي خضعت لها ساقك المصابة مدة ستة أشهر؛ ومن ثم أصبت بجفاف مزمن في العين إضافة إلى أولى نوبات الفزع التامة النضج التي انتابتك في حياتك، أي بعد وفاة والدتك بيومين فقط، وتبعتها نوبات فزع

أخرى عديدة في الأيام التي تلتها مباشرة حتى بتّ تشعر منذ بعض الوقت بأنك تنهار وبأنك، أنت الذي كنت ذات مرة رجل الطبيعة القوي القادر على درء الأخطار والهجمات من الداخل ومن الخارج وغير المتأثر بالآلام البدنية والنفسية التي تتعقب سائر البشر، قد تغيرت ولم تعد ذلك الرجل القوي الذي كنته البتّة وتتحول بسرعة هائلة إلى شخص نخره الضعف والوهن. وصف لك طبيب العائلة حبوباً تبقي نوبات الفزع تحت السيطرة، وقد تكون هذه الحبوب هي ما يضعف مقدرتك على القيادة عصر هذا اليوم، لكنك تستبعد هذا الاحتمال بما أنه سبق لك أن قدت السيارة وهذه الحبوب في جسدك ولم تلاحظ أنت وزوجتك حدوث أي فرق. سواء أضعفت هذه الحبوب قدراتك أم لا، ها قد عبرت الآن كشك المكوس عند جسر «تريبورو» وصرت في آخر محطات الرحلة قبل الوصول إلى المنزل؛ وفيما تقود السيارة داخل المدينة لا تفكر في والدتك أو عينيك أو ساقك أو الحبوب التي تبتلعها كي توقف نوبات الفزع عند حدّها. لا تفكر سوى في السيارة وفي الأربعين أو الخمسين دقيقة التي ستستغرقها لبلوغ بيتك في «بروكلين».

الآن وبما أنّ زوجتك قد هدأت ولم تعد تبدو قلقة حيال قيادتك السيارة، تهدأ أنت أيضاً وكل شيء يسير على ما يرام وأنت تقطع الأميال من الجسر إلى مشارف الشارع الذي تسكن فيه. صحيح أنه عليك أن تبول وأنّ مبولتك بدأت ترسل إليك الإشارات منذ عشرين دقيقة ولا تزال، إشارات ألم تتسارع أكثر فأكثر، ومن ثم تسرع، ربما أكثر من اللازم، لأن لهفتك لبلوغ المنزل باتت مضاعفة: حبّاً به بالطبع، ولشعورك بالراحة حالما تطأ عتبته من جرّاء تحرّرك من تقييدات السيارة الخانقة، إضافة إلى تمكنك من الصعود جرياً إلى الحمّام وإفراغ مبولتك وإراحة نفسك. مع أنك تستعجل أكثر من اللازم لا خطب يحدث، وها أنت

اقتربت كثيراً، فبعد دقيقتين ونصف الدقيقة لا أكثر سوف تصل إلى الشارع الذي تقيم فيه. تمر السيارة في «الجادة الرابعة» وهي تشكل امتداداً بشعاً لمبان شققية ومستودعات خالية. يندر أن يخطر ببال السائق الذي يمرّ أمام هذه المباني أن «يقطع» أحدهم هذا الشارع، لأنّ حركة المارّة فيه خفيفة. إضافة إلى ذلك تظل الأنوار خضراء فترات أطول قياساً بأمثالها في معظم الشوارع الرئيسة الأخرى، ما يشجع السائق في أغلب الأوقات على الإسراع على نحو يتجاوز الحدّ المسموح. لا يشكّل هذا الأمر مشكلة إذا كنت تتابع طريقك مباشرة (لهذا السبب اخترت هذا الطريق بعد أخذ كل الوقائع في الاعتبار: لأنها توصلك إلى المنزل قبل أي طريق آخر)، لكن من شأن تدفق السير أن يجعل الانعطاف إلى اليسار خطراً إلى حدّ ما لأنه عليك الانعطاف إلى اليسار عندما يكون الضوء أخضر، وعندما تضيء لك الإشارة الخضراء تكون أيضاً خضراء بالنسبة إلى السيارات المسرعة صوبك من الاتجاه المعاكس. الآن وفيما تتقدم إلى نقطة التقاء «الجادة الرابعة» و«الشارع الثالث» حيث عليك الانعطاف إلى اليسار، أي الوجهة التي توصلك إلى المنزل، توقف السيارة وتنتظر حتى يخلو الطريق لك. وفجأة تنسى الدرس الذي علّمك إياه والدك عن كيفيّة قيادة السيارة منذ أربعين سنة تقريباً. هو بالذات كان سائقاً بائساً تنقصه المهارة، عديم التركيز، هائماً في دنيا الخيال وهو يسوق بحيث إنه لم يضع المفتاح في محرّك السيارة مرة إلا وسعى إلى حتفه بظلفه. برغم كثرة عيوبه وهو خلف المقود كان معلماً بارعاً للآخرين، وأحسن نصيحة تلقيتها منه هي: اتخذ موقفاً دفاعياً وأنت تقود السيارة؛ مارس القيادة على افتراض أن السائقين الآخرين حمقى ومجانين، ولا تستخف بشيء. لطالما كانت لهذه الكلمات الأولوية في بالك عند القيادة،

ووفت بالغرض وأفادتك طوال هذه السنين، لكن الآن ولأنك تستميت لتفريغ مبولتك أو لأن حبة دواء ما أثّرت سلباً في ملكة التمييز لديك أو لأنك متعب ولا تنتبه جيداً أو لأنك غدوت شخصاً منهوك القوى واهناً، تقرر فجأة ومن دون تفكّر أن تجازف أو بكلمة أخرى أن تتخذ موقفاً هجومياً في القيادة. تأتي عربة نقل مقفلة بنية اللون باتجاهك. تسير بسرعة؟ أجل ولكن باعتقادك لا تبلغ سرعتها أكثر من خمسة وأربعين أو خمسين ميلاً في الساعة على الأكثر. وبعد تقدير بُعد مسافة الفان عنك تكون واثقاً بأنك ستتمكن من تحويل وجهتك إلى اليسار والمرور بالمفترق من دون مشكلة تذكر، ولكن شرط أن تتحرّك بسرعة وتضغط على دواسة البنزين الآن. بيد أن حساباتك مبنية على الاعتقاد أن الفان يسير بسرعة خمسة وأربعين أو خمسين ميلاً في الساعة، واعتقادك هذا في غير محله، فهو يسير بسرعة أكبر لا تقل عن ستين ميلاً أو حتى ربما خمسة وستين ميلاً في الساعة، وبالتالي ما أن تحوّل وجهتك إلى اليسار وتشق طريقك بسرعة عند المفترق حتى يصبح الفان فوقك فجأة وعلى نحو غير متوقع. وبما أنك كنت تنظر مباشرة إلى الأمام وليس إلى يمينك لم تر الفان قادماً فاصطدم بسيارتك عند زاوية تسعين درجة في الباب الأمامي من جانب الراكب مباشرة، حيث تجلس زوجتك. الارتطام مدو مصحوب بارتجاجات عنيفة، انفجار مدوّ كفاية ليشكل نهاية العالم. تشعر وكأنما قذفك «زيوس» كبير الآلهة، أنت وعائلتك بصاعقة خاطفة، وتمر لحظة قبل أن تدور السيارة بسرعة وتخرج عن السيطرة وتتحرك في الشارع دائرياً بسرعة جنونية حتى تصطدم بعمود مصباح وتتوقف فجأة محدثة هزّة قوية. ثم يرين الصمت ويلف السكون الكون برمّته. وعندما تسترجع قدرتك على التفكير ثانية أول ما يخطر ببالك هو أنك حي. تنظر إلى زوجتك فتراها مفتحة العينين تتنفس

وبالتالي لا تزال على قيد الحياة أيضاً. وبعدها تلتفت إلى الخلف لتنظر إلى ابنتك فتراها هي أيضاً على قيد الحياة وقد هزتها الضربة المزدوجة الناتجة من اصطدام السيارة بالفان وعمود المصباح وأيقظتها من سباتها العميق، وها هي جالسة تنظر إليك بذهول ولا أثر للدم وللحياة على شفتيها اللتين لم تر أكثر منهما بياضاً؛ بياضهما يماثل بياض الورقة التي تكتب عليها الآن. تدرك أنّ ما أبقاها حية هو وجود اللحف والوسائد التي كانت تنام عليها، إضافة إلى الحقيقة العلمية القائلة إنّ العضلات تكون في حالة استرخاء تام وقت النوم، وبالتالي ما من عظام مكسورة؛ كما لم يرتطم رأسها بقوة ولم يصطدم بأي جسم صلب؛ وستكون على ما يرام، بل هي على ما يرام كما هي حال الكلب الذي كان ينام على اللحف والوسائد أيضاً. ثم تلتفت إلى الأمام مرة أخرى لتلقي نظرة ثانية على زوجتك التي كانت الأقرب إلى موقع الاصطدام، ومن طريقة جلوسها قربك بهدوء تام وبصمت مطبق، غائبة تماماً عما يجري من حولها، تخشى أن تكون رقبتها مكسورة: رقبتها الطويلة والرفيعة، الرقبة الجميلة التي تشكّل في ذاتها رمز جمالها الرائع. تسألها عن حالها وعمّ إذا كانت تشعر بألم ما، وعن مكمن الألم، لكنها وإن تمكنت من الإجابة عن سؤالك يأتي الرد بصوت مكتوم بحيث إنك لا تسمع ما تقول. قبلها بلحظات أصبحت دارياً بالجلبة خارج السيارة. ثمة أمور تحدث من حولك، أمور متعددة دفعة واحدة وأكثرها لفتاً للنظر زعيق المرأة التي كانت تسوق الفان وتثب بغضب في الشارع وتكيل لك كلمات مقذعة لأنك تسببت بالحادث (سوف تعلم لاحقاً أنها كانت تسوق من دون رخصة وأنها لم تكن صاحبة الفان ووقعت في مشاكل مع الشرطة عدة مرات وربما هذا ما يفسر حدة غضبها خشية الدخول في متاعب قانونية. لكن وفيما هي واقفة تصرخ في وجهك تروّعك أنانيتها

وتُصدم لأنها لا تبالي حتى بالاطمئنان إلى سلامتك أنت وأسرتك). عندئذٍ تحدث معجزة صغيرة، وكأنما ظهرت لتغطي سلوك هذه المرأة الشرس (التي إذا استخدمت ألفاظ والدك لقلت إنها غبية ومخبولة): ثمة رجل يسير في «الجادة الرابعة» وهو العابر الوحيد الذي يمر في طريق عام يخلو عادة من المشاة. على نحو يتنافى تماماً مع كل ما يقول المعقول والمنطق وجميع الاستدلالات بالقرائن عن الطريقة المفترضة التي يسير العالم بموجبها يأتي هذا الرجل بثوب طبيب. إنه طبيب شاب هندي المنشأ ذو بشرة سمراء غامقة مشدودة ووجه فيه من الوسامة ما يفوق الوصف. بعد أن شاهد ما جرى تواً، يقترب من سيارتك ويشرع في التحدث إلى زوجتك. لم يعد ثمة زجاج في النافذة، ما يتيح له الانحناء إلى الأمام والتحدث إليها بصوت خفيض، بنبرته الهندية اللطيفة المهدئة. وفيما تستمع إليه وهو يسأل زوجتك جميع الأسئلة المعتادة التي يوجهها أي طبيب إلى مريضه مثل: «ما اسمك؟ ما تاريخ اليوم؟ من هو الرئيس؟»، تعلم أنه يقوم بكل ما باستطاعته لإبقائها واعية، وللحؤول دون دخولها في صدمة عميقة. بالأخذ في الاعتبار الأثر الذي أحدثه الاصطدام ليس أمراً مفاجئاً لك إن لم تستطع زوجتك تمييز أي لون من الألوان موقتاً وأن يكون العالم الماثل أمامها ظاهراً بالأسود والأبيض فقط. والطبيب الذي ليس شبحاً بل هو بشري بحق (ولكن كيف يعقل أن لا تفكر فيه بصفته «روحاً سماوياً» هبط لإنقاذ زوجتك؟) يلازمها حتى وصول سيارة الإسعاف والفريق الطبي المختص بالحالات الطارئة. قبل لحظة خرجت أنت وابنتك وجاك من السيارة، لكن على زوجتك أن تبقى في مطرحها من دون أن تتحرك: لدى الجميع خشية أن تكون رقبتها مكسورة. وفيما تقف هناك وتشاهد رجال الإطفاء يشقّون الباب الأمامي من جهة اليمين بآلة تعرف

بكماشة النجاة، تتفحص السيارة المحطمة، ولا يسعك أن تستوعب لِمَ ما زلتم جميعكم أحياء. فالسيارة تبدو مثل حشرة مسحوقة. إطارات السيارة الأربعة فارغة، ملتوية، و«منبعجة»، أما جانب الركاب الأمامي فمقوّض تماماً، كما أن جانبها الخلفي الذي بات معلوماً الآن أنه الجزء الذي ارتطم بعمود المصباح قد تغضّن وانبعج ولم يعد ثمة زجاج في النافذة الخلفية. يتمهل المساعدون الطبيون في تثبيت زوجتك على لوح مستطيل لتجميد حركتها، ثم يدخلونها بتأنٍ إلى سيارة إسعاف بينما توضع أنت وابنتك في سيارة إسعاف أخرى ومن ثم تنطلقون جميعاً إلى وحدة الصدمات في المركز «الطبي اللوثري» (Lutheran Medical Center) في «باي ريدج». بعد إجراء صورتين مقطعيتين محوريتين على الكمبيوتر وعدد من الصور الشعاعية يقول لك الأطباء إنه ما من عظام مكسورة في ظهر زوجتك أو عنقها. محظوظون، كلّكم محظوطون على الرغم من احتكاككم بالموت. تغادرون المستشفى معاً، تقول لك زوجتك مازحة كيف أن الطبيب المكلف إجراء الصورتين المقطعيتين المحوريتين على الكمبيوتر قال لها إنه لم يرَ أروع وأجمل من رقبتها.

مضت ثماني سنوات ونصف السنة على ذلك اليوم ولم تحمّلك في خلالها زوجتك ولا مرّة تبعة الحادث. تقول إن المرأة في الفان تجاوزت في سرعتها الحد المعقول ولهذا كان الحق عليها مئة بالمئة. لكنك أعقل من أن تبرئ نفسك. نعم، المرأة كانت تقود بسرعة جنونية إلا أن ذلك لا يشكل أهمية تذكر في النهاية. قمت بمجازفة عليك تجنبها، ولا يزال الخجل يعتريك والشعور بالذنب يمزقك لأنك أسأت التقدير على هذا النحو، ولهذا السبب أقسمت أن لا تقود سيارة بعد مغادرتك المستشفى إلى الأبد؛ لهذا السبب لم تدر عجلة القيادة منذ

ذلك اليوم الذي كدت تقتل عائلتك فيه. لا يكمن السبب في كونك لم تعد واثقاً بنفسك بل في كونك تشعر بالذنب والخجل وفي كونك تعي بأنه في لحظة ما كدت تلقي بنفسك وبأسرتك في التهلكة. تساويت مع المرأة التي صدمت سيارتك في الحمق والتهوّر والجنون.

بعد سنتين على مرور الحادث أنت في «آرل» إحدى المدن الفرنسية الصغيرة، وعلى وشك أن تقرأ شيئاً من أحد مؤلفاتك أمام الجمهور، وسيحضر معك الممثل «جان لوي ترينتنيان» (صديق لناشر كتبك) الذي سيقرأ المقاطع التي تقرأها بالإنكليزية ثانية ولكن مترجمة إلى الفرنسية. هي قراءة مزدوجة كما تجري العادة في الدول الأجنبية حيث لا يتكلم المستمعون إلا لغة واحدة. تتناوبان أنتما الاثنان على قراءة الفقرات التي وقع اختياركما عليها للمناسبة، أي الواحد تلو الآخر. يسرّك أن تكون بمعية «ترينتنيان» في هذه الأمسية لأنك تقدّر الأدوار التي أداها أيما تقدير، وعندما تخطر ببالك أفلامه التي شاهدتها «الملتزم» (The Conformist) الذي أخرجه «برتولوتشي» و«ليلتي عند مود» (Ma Nuit chez Maud) للمخرج «رومر» و«في الحفظ والصون» (Confidentionally Yours) من إخراج «تروفو» و«أحمر» (Red) من إخراج «كيسلوفسكي»، وهذه عينة قليلة من بعض أفلامك المفضّلة)، يصعب عليك أن تقترح اسم ممثل أوروبي آخر تنال أعماله إعجابك أكثر من أفلام هذا الممثل. كما بتّ تشعر بعطف كبير نحوه لأنه هزّك نبأ مصرع ابنته بطريقة وحشية منذ سنوات مضت؛ وقد ضجت وسائل الإعلام بهذه الجريمة، وأنت تعي تماماً حجم المصاب الذي ألمّ به وكيف صمد أمام هذه التجربة المريرة ولا يزال. ترينتنيان شخص خجل وكتوم، مثل ممثلين كثر سبق لك أن تعرفت بهم وعملت معهم. هذا لا يعني أنّ نفسه غير صافية أو أنه لا يحسن معاملة الغير،

لكنه مغلق على نفسه في الوقت ذاته، فهو رجل يجد التحدث إلى الآخرين أمراً صعباً. أنتما الآن معاً على المسرح تجريان «بروفة» لقراءتكما الرسمية في المساء؛ بمفردكما في الكنيسة الرحبة، أو في ما كان كنيسة سابقاً، حيث ستتم قراءة النصوص. تعجب بنبرة ترينتنيان الموسيقية المميّزة وبرنّة صوته: صفات صوت تميّز الممثلين الكبار من الذين يحسنون التمثيل لا غير؛ سماع الكلمات التي كتبتها (لا ليست كلماتك كلّية بل كلماتك المترجمة إلى لغة أخرى) والمنقولة عبر ذلك الصوت الاستثنائي المميز يمنحك شعوراً بالسعادة لا يوصف. ثم في لحظة ما وفي سياق غير متصل يلتفت «ترينتنيان» إليك ويسألك: «كم عمرك؟». تجيب: «سبعة وخمسون عاماً». وبعد لحظة صمت قصيرة تسأله عن عمره ويجيب: «أربعة وسبعون». ومن بعدها وبعد لحظة صمت قصيرة أخرى تعاودان عملكما. بعد «البروفة»، تُصطحب أنت و«ترينتنيان» إلى إحدى الغرف في الكنيسة للانتظار ريثما تمتلئ المقاعد بالجمهور ويبدأ العرض. ثمة أناس آخرون في الغرفة عداكما: أعضاء كثيرون من الشركة التي تنشر أعمالك ومنظِّم الحفلة وأصدقاء مجهولون لأناس لا تعرفهم، ربما كان مجموعهم اثني عشر بين رجل وامرأة. تجلس أنت على كرسي ولا تتكلم مع أحد، تجلس فقط بصمت وتتطلع إلى الأشخاص الموجودين في الغرفة. وتنظر إلى «ترينتنيان» الذي يبعد عنك عشر أقدام، فتلاحظ أنه جالس مثلك بصمت، يتطلع إلى الأرض ويحيط ذقنه بيديه إحاطة الكوب بمحتوياته، هائماً في أفكاره حسب ما يبدو. في آخر الأمر يرفع بصره ويقع نظره عليك ويباغتك بنبرة صوته الجدية والرزينة وهو يقول: «بول، ثمة أمر واحد فقط أودّ إطلاعك عليه: في السابعة والخمسين شعرت أني عجوز، أما الآن وأنا في الرابعة والسبعين فأشعر أنني أصغر بكثير من عمري الحقيقي». قوله

هذا يحيّرك، فليس لديك فكرة عمّا يحاول قوله لك، لكنك تحس أنّ ما أفضى به إليك هام بالنسبة إليه وأنه يسعى إلى أن يشاركك في أمر بالغ الأهمية، ولهذا السبب لا تطلب منه تفسير ما يقوله. ها قد مرّت سبع سنوات على هذا الحديث وأنت ما زلت تفكر ملياً في كلماته؛ مع أنك ظللت لا تعرف مقصده تماماً، إلا أنه ثمة ومضات أو هنيهات تشعر فيها أنك على وشك اختراق حقيقة ما قاله لك. ربما المقصد بكل بساطة هو: إن الإنسان يخشى الموت وهو في السابعة والخمسين من عمره أكثر مما يخشاه وهو في الرابعة والسبعين. أو ربما لمح فيك ما أقلق باله: الآثار الباقية مما جرى لك في تلك الشهور المروّعة في العام ٢٠٠٢. ففي الواقع بتّ تشعر الآن وأنت في الثالثة والستين أقوى وأنشط مقارنة بما كنت تشعر به في سن الخامسة والخمسين؛ فلقد «تعافت» رجلك منذ مدة طويلة ونوبات الفزع توقفت منذ سنوات ونوبات الألم في العين خفت وتيرتها برغم أنها تنتابك بين حين وآخر. تجدر الإشارة أيضاً أنه لم يعد هناك حوادث سير أو أهل تتفجع عليهم وتحزن على غيابهم.

ترجع اثنتين وثلاثين سنة إلى الوراء وإلى مثل هذا اليوم بالتحديد، أي إلى منتصف عمرك وفي مثل هذا الوقت تقريباً. يردك خبر موت والدك الليلة الفائتة، ليلة أخرى من ليالي كانون الثاني/يناير عامرة بالثلوج كهذه الليلة تماماً وبهوائها القارس وطقسها العاصف؛ تتشابه الليلتان في كل شيء. عجلة الزمن تتحرك وتقف في الوقت ذاته؛ كل شيء مختلف ولكن متشابه في الوقت نفسه، و... كلا، لسوء طالعه قصّر عن بلوغ الرابعة والسبعين. عاش حتى سن السادسة والستين. بسبب اتباع شعورك الذي راودك دائماً بأنه ما من شك سوف يعيش حتى سن متقدمة لم تكن ثمة حاجة ملحة البتة لتصفية الخلافات القائمة دوماً

بينكما. لذا ما أن استوعبت أخيراً حقيقة وفاته المفاجئة غير المتوقعة حتى لم يتبقّ لك سوى إحساس بأن مهمتك لم تنجز، سوى الإحباط التام من جراء كلمات لم ينطق بها لسانك وفرص ضاعت إلى الأبد. مات في سريره وهو يجامع عشيقته، رجل معافى خانه قلبه على نحو يتعذر فهمه وتعليله وتسبب بانهياره. طوال السنين التي توالت بعد ذلك اليوم الكانوني عام ١٩٧٩ قال لك رجال كثيرون إنها «أفضل ميتة» (الموت الأصغر غدا موتاً فعلياً)، ولكن لم تقل لك أي امرأة هذا الكلام، وأنت نفسك تعتبرها أسوأ طريقة للرحيل عن هذه الدنيا؛ وعندما تفكّر في عشيقة والدك في الجنازة وفي نظرة الصدمة والاضطراب في عينيها (نعم قالت لك كم كان أمراً مروّعاً بالفعل، أفظع تجربة مرّت بها في حياتها)، تتمنى أن لا يحدث هذا الأمر لزوجتك. من حين رحيل والدك في مثل هذا اليوم منذ اثنتين وثلاثين سنة، أنت نادم على غيابه الفجائي، لأنه لم يعش كفاية ليرى بنفسه أن ابنه المتعثر في خطاه وغير العملي لم ينته به الأمر في دار المعوزين كما كان يخشى دوما. لكن ليت عمره طال عدة سنوات أخرى كي يدرك هذا الأمر. يحزنك ما جرى في ذلك اليوم: توفي والدك وهو في السادسة والستين بين ذراعي عشيقته بينما كنت لا تزال تصارع على جميع الجبهات؛ كنت لا تزال تتجرع كأس الفشل ومراراته.

لا، لا تريد أن تموت؛ حتى وفيما تدنو من السن التي «شارفت» فيها حياة والدك على الانتهاء؛ لم تسمّ أي مقبرة من أجل اتخاذ الترتيبات اللازمة لدفنك. لم تتبرع بأي من الكتب التي من المؤكّد أنك لن تقرأها ثانية، ولم تشرع في تنظيف حنجرتك بالتنحنح لتقول وداعاً للجميع. ومع ذلك أصبت بما تدعوه نوبة قلبية كاذبة منذ ثلاثة عشر

عاماً، أو بالتحديد بعد عيد ميلادك الخمسين بشهر واحد: كنت جالساً في غرفة مكتبك في الطبقة السفلية تتناول غداءك المكون من شطيرة سمك التونة عندما باغتتك النوبة القلبية الكاذبة. عاجلتك نوبة من الألم المتواصل والمطّرد في صدرك كله نزولاً إلى ذراعك اليسرى وصعوداً إلى حنكك، وهي الأعراض الكلاسيكية لاضطراب القلب وعطبه، أي الانسداد الشرياني المروّع الذي من شأنه القضاء على الإنسان في غضون دقائق معدودة. وفيما ظلّ الألم يشتد ليبلغ ذروته شعرت وكأنما قوة حارقة خرقت أحشاءك وأشعلت صدرك، وبالوهن وبالدوار. وقفت مترنّحاً وصعدت الدرج ببطء متمسكاً بالدرابزين بيديك الاثنتين ثم هويت على أرضية الردهة وأنت تنادي زوجتك بصوت ضعيف بالكاد يسمع. نزلت بسرعة من الطبقة العلوية، وعندما رأتك واقعاً على ظهرك، أخذتك بين ذراعيها وأمسكت بك وهي تستفهم عن مكان الألم وتقول إنها ستتصل بالطبيب. وفيما رفعت نظرك إلى وجهها كنت على يقين أنك على وشك الاحتضار لأن وجود هذا المقدار الكبير من الألم يعني شيئاً واحداً فقط: الموت. لكنّ الأمر الغريب، ربما هو أكثر أمر مستغرب حدث لك هو أنك لم تكن خائفاً بل هادئاً ومتماسكاً ومتقبلاً تماماً الفكرة القائلة إنّك على وشك مغادرة هذه الدنيا، قائلاً في سرّك: «هذا هو الوضع إذاً، سوف تموت الآن؛ ربما الموت ليس سيئاً كما ظننته لأنك هاهنا تهنأ بين ذراعي المرأة التي تحب. وإذا كان لا بدّ من أن تموت الآن فاعتبر نفسك محظوظاً لكونك عشت حتى سن الخمسين». نقلت إلى المستشفى ولبثت طوال الليل في أحد أسرّة غرف الطوارئ وأجريت لك فحوص دم كل أربع ساعات. ما أن أقبل الصباح التالي حتى تبيّن أن ما كنت تعانيه ليس نوبة قلبية بل التهاب في المريء. وما زاده سوءاً هو من دون شك جرعة عصير الليمون الحامض الكبيرة في

شطيرتك. ردّت لك حياتك من جديد وكان قلبك سليماً ومعدّل خفقاته طبيعياً، وعلى رأس هذه الأخبار السارة وقفت على أمر هام: إن الموت لم يعد حدثاً يُخشى حدوثه بعد الآن، وإنه عندما يحين أجل الإنسان ينتقل كيانه إلى منطقة أخرى من الوعي ويكون قادراً على تقبّله. أو هكذا خيّل إليك، فبعد خمس سنوات حين انتابتك أولى نوبات الفزع، تلك النوبة المفاجئة والرهيبة التي اجتاحت جسدك وطرحتك أرضاً، لم تكن هادئاً أو متقبلاً الأمر على الإطلاق، خلت أنك راحل عن هذه الدنيا وقتئذٍ أيضاً، ولكنك هذه المرة تملّكك الذعر وأخذت تصيح وتصرخ. لم يعترك مثل هذا الخوف من قبل. حسبك ما قلت عن مناطق أخرى للوعي ومخارج هادئة من وادي الدموع هذا. انبطحت على الأرض وأخذت تصرخ، لأن الموت كان في داخلك ولم يكن لديك رغبة في أن تموت.

ثلوج، ثلوج تتساقط بكمية كبيرة هذه الأيام والأسابيع الأخيرة حتى بلغت سماكة الثلوج المتساقطة على «نيويورك» في أقل من شهر ستا وخمسين بوصة. لم تعد على معرفة بعدد العواصف التي اجتاحت المنطقة حتى الآن، ربما هي ثمان أو تسع. أما أكثر المعزوفات المسموعة طوال كانون الثاني/يناير في «بروكلين» فهي موسيقا الشوارع التي تعزفها الجرّافات وهي تكشط رقع الثلج السميكة عن الأرصفة. البرد جدّ قارس والحرارة متدنية جداً (بلغت ذات صباح ثلاث درجات)، وهناك رذاذ وزخّات مطر وضباب وثلج نصف ذائب ورياح عاتية دائماً لكن الأكثر من ذلك كله هناك الثلج الذي لا يريد أن يذوب. وفيما العواصف تهب الواحدة تلو الأخرى، تكتسي الأشجار الصغيرة والكبيرة في جنينتك الخلفية بلحى من الثلج تطول وتسمك دوماً. نعم، يبدو هذا الشتاء أحد الشتاءات القاسية، ولكن على الرغم من البرد

القارس والانزعاج وتوقك الشديد غير المجدي إلى الربيع لايسعك إلا أن تعجب بحيوية هذا المشهد الجوي الدرامي المنطوي على تضارب عنيف ومشوّق بين قوى مختلفة، ولا تزال تشعر عندما تنظر إلى الثلوج المتساقطة برهبة كما اعتدت أن تفعل عندما كنت ولداً.

اللعب الخشن الصاخب. هذه هي الكلمات الثلاث التي تخطر ببالك الآن عندما تفكّر في مسرّات أيام «الولدنة» (بعكس الآلام). اللعب مصارعة مع والدك، وهي حالة نادرة، بما أنه كان يغيب عن البيت في ساعات صحوك (اعتاد الخروج إلى العمل وأنت نائم والرجوع إلى المنزل بعد إيوائك في السرير)، لكنّها أوقات لا تنسى ربما لهذا السبب. تتذكر أيضاً حجم بنيته الجسدية وعضلاته غير العادي، وعدم استطاعتك سوى رؤية جسمه الضخم جداً وأنت تصارعه وتمسك بذراعيه لإلحاق الهزيمة بملك «نيو جيرسي» (في المصارعة) في معركة بالأيادي؛ وكان يشارك أيضاً في جولات المصارعة هذه ابن عمّك الذي يكبرك بأربع سنوات. كلّ ذلك كان يجري عصر كل أحد، ميعاد زيارتك أنت وأسرتك لبيت عمك وعمتك: الانشغال ذاته غير الطبيعي بالأمور الجسمانية البحتة فيما كنت تتدحرج معه على الأرض، الابتهاج بتلك الحركية الجسمانية والحماسة والاسترسال الكلي. الجري والقفز والتسلق؛ كنت تركض حتى تشعر أنّ رئتيك على وشك الانفجار وأن جنبك يؤلمك. يوماً تلو آخر وحتى حلول المساء في أيام الصيف حين تأبى الشمس مبارحة السماء سريعاً وتتباطأ في الزوال، كنت هناك على الحشيش تركض بكل قوتك. نبضات قلبك تدق بعنف في أذنك والريح تلفح وجهك. وبعدها بقليل تناور وتمسك بالخصوم في ألعاب مثل «كرة القدم» و«راكب الفرس» (Johnny on the Pony) و«ركل التنكة» (Kick the Can) و«ملك القصر»

(King of the Castle) و«انتزاع الراية» (Capture the Flag). كم كنت رشيقاً وخفيفاً أنت وأصدقاؤك، كم كانت أجسامكم طيّعة، وكم كنتم متحمسين لشنّ هذه الحروب المزعومة بحيث أنكم انقضضتم بعضكم على بعض بشراسة شديدة لا هوادة فيها: أجساد غضة صغيرة تصطدم بأجساد غضة صغيرة أخرى، طرح بعضكم بعضاً على الأرض وشدّ الأكمام والإمساك بالرقاب و«الفركشة» و«التدفيش». تقومون بأي شيء لتكونوا الرابحين في اللعبة؛ حيوانات كلكم: حيوانات ضارية تماماً. ولكن كم نمت عميقاً بعد كل هذا اللعب؛ أطفئ النور، أغمض عينيك... وأراك غداً.

كانت هناك أيضاً مهاراتك المطردة دوماً في «البيسبول» التي بت تلعبها ببراعة وفطنة أكثر وعلى نحو مرض على الأمد البعيد. لا تتطلب حركات عنيفة وخشنة كسائر الألعاب؛ شغفك بهذه اللعبة ابتدأ في سن السادسة أو السابعة: التقاط الكرة ورميها، (صدّ الكرات)، وحسن التركيز كل لحظة ما دامت اللعبة جارية، وهذا يعتمد على عدد اللاعبين المخرجين وعدد اللاعبين على القاعدة. كما من قواعد اللعبة أن تعرف مسبقاً ما يجب عليك فعله في حال قذفت الكرة باتجاهك: إما أن تقوم برمية أساسية وإما برمية إلى لاعب ثانوي، وإما تقوم بلعبة مزدوجة. وإلا ولأنك قمت بضربة عاجلة، تركض لالتقاط الكرة من اليسار بعد ضربة أرضية، ومن ثم تستدير فجأة لتسدّد الرمية المتتابعة الطويلة إلى الموقع الصحيح في الملعب. لا لحظات مملّة على الإطلاق على الرغم من الرأي الذي من المحتمل أن يتبنّاه منتقدو اللعبة: يجب أن تكون على أهبة الاستعداد والترقّب، وعلى جهوزية دائمة وأن يكون عقلك خزاناً من الاحتمالات؛ ومن ثم الانفجار المفاجئ، الكرة تتسارع نحوك والحاجة الملحّة للقيام بما عليك فعله: ردّات الفعل (reflexes)

المطلوبة لتأدية عملك والإحساس الرائع وأنت تسجّل سبقاً رياضياً بقذف إحدى الكرات الأرضية إلى يسارك أو يمينك وتمرير كرة دقيقة إلى اللاعب الرئيس لكن لا متعة أكبر من قذف الكرة وتسوية وقفتك ومشاهدة الرامي وهو يتحرك ليرمي الكرة ويقذفها مباشرة؛ والشعور باحتكاك الكرة بالجزء المكتنز من المضرب، والصوت الناتج من هذا الاحتكاك في ذاته كان مدعاة للمتعة بينما كنت تتابع اللعب برميتك القوية وتشاهد الكرة تطير بعيداً إلى الميدان الخارجي. لا... لم يكن ثمة شعور يشبهه، أو يوازي نشوة تلك اللحظة. ولأنك أصبحت تجيد اللعبة أكثر فأكثر بمرور الزمن، اختبرت لحظات عديدة كهذه اللحظة، وعشت من أجلها أكثر مما عشت من أجل أي شيء آخر. كنت مأخوذاً تماماً بلعبة الصبيان التافهة هذه، لكنها كانت تمثّل لك ذروة السعادة في ذلك الزمن؛ لم يكن ثمة شيء أفضل يستطيع جسدك القيام به.

ثم كانت هناك السنوات التي سبقت دخول الجنس إلى المعادلة، أي قبل أن تعي أنّ الإطفائي المصغّر بين رجليك لم ينفع سوى في كونه أداة لتفريغ مبولتك. لا بدّ من الرجوع ثانية إلى سنة ١٩٥٢، ولكن ربما حدث ذلك قبلها بقليل أو بعدها بقليل: تسأل أمك ما يسأل كل طفل والديه، السؤال الاعتيادي: «من أين يأتي الأطفال؟» بمعنى آخر: «من أين أتيت أنا؟ ما هي العملية الغامضة التي أتيت من خلالها إلى العالم بصفتي كائناً بشرياً؟». جواب والدتك عويص، غير عملي وملتبس جداً ومجازيّ جداً إلى حدّ أنه يحيّرك ويشوش ذهنك تماماً. تقول والدتك: «يزرع الأب البذرة في الأم، وشيئاً فشيئاً ينمو الطفل ويكبر». في هذه المرحلة من حياتك، لا تعرف عن البذور سوى تلك التي تثمر أزهاراً ونباتات، البذور التي ينثرها المزارعون في الحقول الواسعة في موسم الزرع إيذاناً بابتداء دورة جديدة من إنتاج المحاصيل بموسم الحصاد

في الخريف. ترى في الحال صورة مرسومة في عقلك: والدك مرتد ثياب مزارع، نسخة كرتونية تمثّل مزارعاً مرتدياً بنطالاً فضفاضاً أزرق مع حمّالتين وعلى رأسه قبعة قش؛ يمشي وهو يحمل مدمّة كبيرة على كتفه. يمشي بخطى واسعة متبختراً لا مبالياً في منطقة ريفيّة مجهولة، في طريقه لزرع البذر. بعدها، ظللت لبعض الوقت ترى الصورة التالية كلما فتح موضوع الأطفال: والدك بهيئة مزارع يرتدي بنطالاً فضفاضا أزرق، ويضع على رأسه قبعة قش مسنّنة ويحمل على كتفه مدمّة. لكنك كنت تعرف أنّ في هذا الأمر خطباً ما، لأن البذور تزرع في الأرض دائماً: إما في البساتين وإما في الحقول الواسعة، وبما أن أمك لم تكن بستاناً أو حقلاً، فلم يكن لديك أي فكرة مقنعة عن هذا العرض التوضيحي لوقائع الحياة المرتبط على هذا النحو بالبستنة. أيعقل أن يوجد إنسان غبي شأنك في تلك المرحلة العمرية؟ كنت صبياً صغيراً غبياً لم يملك الفطنة والذكاء ليطرح السؤال من جديد، لكن الحقيقة تقال إنك استمتعت بتخيّل والدك فلاحاً وبرؤيته في ذلك الزي الغريب المضحك. بيد أنك بكل أمانة لم تكن لتستوعب كلام أمك لو توخت الدقّة في إجابتها.

قبل هذا الحديث مع والدتك ببضعة أسابيع أو أشهر، أو ربما بعده بقليل، ضاع ابن جيرانك الصغير، الذي ضربك بقوة على رأسك بلعبة المدمّة، بطريقة غريبة غامضة. هرعت والدته القلقة إلى فناء منزلكم وطلبت منك ومن أصدقائك البحث عنه. انطلقتم جميعاً متوجهين إلى الأرض المتاخمة لمنطقة بريّة حرجية. تحت الأشجار الكبيرة نمت شجيرات متشابكة اعتدتم اتخاذها مخبأ سرياً. رحتم ترددون اسمه عالياً: «مايكل» بالرغم من أن اسمه الشائع لديكم كان «المشاغب» (Brat) أو «الوحش» (Monster): مجرم على هيئة قزم كرّس حياته إلى

ذلك الحين بالمطلق للقيام بأعمال إرهابية وعنفية. توغّلت في مكان كثرت فيه الأشجار الصغيرة وأخذت تنفض عن وجهك أوراق الشجر وتفرّق الأغصان وتحثّ الخطى، شبه متيقن أنك ستعثر على المجرم الهارب رابضاً عند قدميك؛ ولكن ما عثرت عليه بدلاً منه كان عشاً من «الزراقط» أو الزنابير دسته من غير قصد، وما هي إلا ثوان معدودة حتى اجتاحتك تلك المخلوقات اللاسعة المؤلمة، وانقضت على وجهك وذراعيك. وحتى عندما حاولت ضرب هذه الحشرات وكشّها، تسلّلت مجموعة أخرى منها إلى داخل ثيابك وخلّفت لسعاتها آلاماً شديدة في رجليك وصدرك وظهرك. ركضت من دون أخذ نفس من ذلك المكان إلى أن وطئت العشب في الفناء الخلفي للمنزل وصراخك مسموع في كل مكان بالطبع، وهناك كانت والدتك التي ألقت عليك نظرة خاطفة ثم ما لبثت أن جرّدتك من ثيابك؛ وعندما أصبحت عارياً تماماً، أحاطت جسدك العاري بذراعيها وأسرعت بك إلى البيت. ما أن أصبحتما في الداخلِ حتى حملتك إلى فوق؛ فتحت الحنفية ووضعتك في مغطس بارد جداً.

عُثر على الولد: إذا لم تخنك الذاكرة تعتقد أنهم عثروا عليه في بيته، نائماً في غرفة الجلوس إما مختبئاً خلف الكنبة وإما متكوراً تحت إحدى الطاولات. لكن في حال احتجت إلى دليل أقوى يثبت أنه لم يمت أو لم يختفِ إلى الأبد في ذلك اليوم، فليس عليك سوى أن تعود بالذاكرة إلى عصر أحد الأيام التي أعقبت حادثة اختفائه هذه، ربما كان بعدها بأربع أو خمس سنوات. كنت ملازماً السرير لإصابتك بالإنفلونزا؛ يوم آخر من عداد الأيام الموسومة بالمرض والضجر والكآبة التي قضيتها أسير البيجاما والحُمّى وحبة أسبرين عليك ابتلاعها كل أربع ساعات. كنت في حبس بعيد عن الصخب

والهواء الطلق، تفكر في أصدقائك الذين انتهى دوام مدرستهم قبلها بقليل وكانوا من دون أدنى شك يلعبون مباراة بيسبول غير رسمية في منتزه «غروف بارك» في ظل الشمس الساطعة والجو الدافئ، ما يعني أن عصر ذلك اليوم كان وقتاً مثالياً للعب البيسبول. كنت في التاسعة أو العاشرة، وحسب ما تذكر الآن، أي بعد نصف قرن، ما جرى في ذلك اليوم هو: وجودك وحيداً في البيت وخارجاً في الفناء الخلفي كان كلب العائلة غافياً على العشب وقد ربط إلى زلاجة سلكية صنعها والدك خصوصاً له. أدى دوراً حيوياً في حياتك وقد شكّل جزءاً منها طوال سنتين على أقل تقدير، وكم تولّعت به! كلب صيد صغير متوثب مرحاً، يعدو وراء المغامرة، وعنده ولع بتعقّب السيارات. دهسته سيارة مرة قبل ذلك وتضرّرت قائمته الخلفية اليسرى، فعطبت ولم يبق قادراً على استخدامها، ما صيّره كلباً ذا ثلاث قوائم: كلباً غير طبيعي ذا قائمة خشبية؛ برأيك كان قرصاناً متفاخراً متهوراً على هيئة كلب، بيد أنه تأقلم جيداً مع هذا العيب في جسده. وعلى الرغم من أن له ثلاث قوائم فقط، كان بمقدوره أن يسبق جميع كلاب الحي الطبيعية في الجري. إذاً كما قلت من قبل، كنت متمدداً على السرير في غرفتك العلوية على يقين أنّ كلبك الأعرج مربوط بأمان إلى الوتد في الفناء الخلفي، حين اخترقت الهدوء السائد فجأة جلبة: أزيز عجلات سيارة أمام بيتك تبعها مباشرة عواء عال من شدّة الألم، عواء كلب يتألم؛ ولدى سماعك ذلك الصوت عرفت في الحال أنه كلبك. قفزت من السرير وهرعت إلى الخارج لترى «المشاغب، الوحش» ماثلاً هناك يعترف لك أنه حرّر كلبك من مقوده لأنه أحب أن يلعب معه. ثم ظهر فجأة سائق السيارة. كان رجلاً صاخباً منزعجاً جداً لما حدث ويقول للناس الذين تجمّعوا حوله أنه لم يكن يملك خياراً آخر، وأن الولد والكلب ركضا مباشرة إلى

وسط الشارع وكان عليه أن يختار الاصطدام إما بالولد وإما بالكلب. لذا انحرف فجأة وأصاب الكلب. كان هذا كلبك، كلبك، الذي غلب عليه اللون الأبيض، ملقىً ميتاً في وسط الشارع الأسود. فيما كنت تلتقطه من الأرض وتحمله إلى داخل البيت قلت في سرّك: «لا لقد أخطأ الرجل، إذ كان من الأولى أن يدهس الولد وليس الكلب. كان من الأولى أن يقتل الولد». كنت ساخطاً جداً على الولد بسبب ما فعله بكلبك. لبثت تفكّر دائماً بأنه لم يسبق لك أن تمنيت الموت لأي كائن بشري آخر.

من غير ريب كان للشجارات حصة في تلك المرحلة من حياتك، فليس بمقدور إنسان تخطي مرحلة الفتوة من دون بعض منها بل الكثير منها. وعندما تفكر في الشجارات والمواجهات التي اشتركت فيها والأنوف الدامية، سواء كنت المسؤول عنها أو المصاب بها، والضربات الموجهة إلى بطنك التي هدّت أنفاسك والمسكات المعتمدة إما لتطويق رأس الخصم وإما لليّ ذراعه وتثبيتها خلف الظهر وقد طرحتكما معاً الاثنين على الأرض، لا تستطيع الإتيان بشاهد واحد يثبت أنك كنت البادئ بها، فالحق يقال إنك لطالما نفرت من كل ما له علاقة بالشجارات وكل أنواع النزاعات؛ ولكن لأنه كثر المتربّصون بك، أي أولئك المتنمّرون الذين لهم أجساد قوية وعقول ضعيفة وقد تمادوا في رشقك بالشتائم وتهديدك واستفزازك ورميك بأقذع الإهانات، شعرت في بعض الأحيان أنك مجبر على الدفاع عن نفسك حتى ولو كنت الأصغر حجماً وبنية أو شبه متأكدٍ أنك ستُشبع ضرباً. كان لديك ميل إلى الحروب غير الحقيقية مثل الإمساك بالخصم الحامل كرة القدم وتوقيفه و«انتزاع الراية»، ولعب الأطفال الصاخب المتمثّل بالانطلاق بقوة باتجاه المتلقف عند لوح الأهداف، لكن القتال الحقيقي كان

يثير اشمئزازك لما كان له من آثار سلبية جداً على صعيد المشاعر والانفعالات ولأنه كان أكبر مسبب للاكتئاب والأحزان لإثارته مشاعر الغضب. حتى ولو خرجت منتصراً من المعركة كنت تشعر دائماً برغبة في البكاء بعدها. لم يعد أسلوب «إما قاتل وإما مقتول» لتسوية الخلافات يعني لك شيئاً بعد أن انقضّ أحد الصبيان عليك في المخيم الصيفي ذات مرة بالوثب من دعائم السقف الخشبية لحجرتك، وانتهى الأمر بكسرك ذراعه حين رددت أذاه بطرحه بعنف على إحدى الطاولات الخشبية. كنت في العاشرة؛ ومنذ ذلك الوقت تحاشيت الشجارات قدر استطاعتك، لكنها داومت على اعتراض طريقك من حين إلى آخر، أقلّه حتى سن الثالثة عشرة، حين توصّلت إلى الحل الآتي: بمقدورك الفوز على أي فتى في أي شجار وذلك بأن تضرب خصيتيه بركبتك، وتسدد بركبتك ضربة موجعة إلى منفرج ساقيه بكل قوة يمكنك استجماعها، وعلى هذا النحو تنتهي المعركة في غضون ثوان معدودة. بتّ معروفاً بصفتك «محارباً شرساً بغيضاً»، وربما كان في هذا النعت شيء من الصواب، لكنك لم تقاتل بهذا القدر من الشراسة إلا لأنك لم ترغب في القتال والتشاجر. خضت نزالاً من هذا النوع ثم تلاه آخر، فكان كافيا لذيوع صيتك، ولم يهاجمك أحد بعد ذلك بالمرّة. كنت في سن الثالثة عشرة حين تخليت نهائياً عن كار المصارعة.

توقفت المواجهات والمعارك مع الصبيان ولكن في المقابل أصبح شغفك بالبنات مقيماً، كما تقبيلهن والإمساك بأيديهن. بدأ خوضك هذا المضمار قبل مرحلة البلوغ بوقت طويل، أي في عمر لا يفترض بالصبيان الاهتمام بمثل هذه الأمور. فمنذ عمر مبكر، أي عندما كنت في صف الروضة وقعت في حب البنت الصغيرة ذات

الشعر الذهبي المضفور عند مؤخر الرأس على شاكلة ذيل الفرس (كان اسمها «كاتي»)، لطالما افتتنت بالتقبيل؛ حتى في تلك السن، أي في الخامسة أو السادسة، تبادلت أنت و«كاتي» القبل أحياناً. بالتأكيد كانت قبلات عاجلة عابرة وبريئة، ولكن كم دغدغت قلبيكما. أما في ما تدعى مرحلة الكمون[1]، فقد أجمع أصدقاؤك على ازدراء البنات على الملأ، واعتادوا الاستهزاء بهن وإغاظتهن وقرصهن ورفع فساتينهن. لكنك لم تضمر تجاههن أي ضرب من ضروب النفور والكراهية كما كان دأب أولئك الصبيان، ولم يكن بمقدورك مطلقاً استنهاض همتك للمشاركة في تلك الشيطنات. طوال تلك الفترة المبكرة في حياتك التي قضيتها وهي المرحلة الدراسية الابتدائية (أي حتى سن الثانية عشرة، حين حملت العلم الأميركي وكان رأسك مربوطاً بشاشة مبلّلة بالدم في احتفال تخرج صفك)، لما تتوقف عن الاستسلام لمختلف أنواع الحب من افتتان وولع وهيام وعن الوقوع في غرام بنات عديدات مثل «باتي» و«سوزي» و«دايل» و«جان» و«إيثل». بالطبع لم يكن هناك أكثر من التقبيل والإمساك بالأيدي (لم تملك القدرة على الجماع الذي كانت لا تزال آلياته مبهمة بالنسبة إليك إلى حدّ ما بما أنك لم تصل إلى البلوغ الكامل قبل سن الرابعة عشرة). لكن القبل كانت قد اكتست بطابع الشراسة والتوحش قبل حلول يوم التخرج؛ ففي السنة المدرسية الأخيرة تلك، أي قبل دخولك مدرسة الأحداث العالية [السابع والثامن ابتدائي والأول ثانوي] لم تمرّ عطلة نهاية أسبوع تقريباً إلا كنت تدعى أنت وزمرة من الرفاق، لم يقل عددهم عن الخمسة

(١) مرحلة من مراحل تكوين الشخصية تمتد من حوالى الخامسة إلى بدء البلوغ وتكون فيها الدوافع الجنسية كامنة أو مستترة. (المترجمة)

عشر أو العشرين، إلى حفلة راقصة من دون مرافقة الكبار في بيت أحدهم. في غرف جلوس الضواحي والأقبية - الطبقات السفلية، اعتاد صبيان لما يبلغوا بعد وبنات ذوات نهود نابتة حديثاً الرقص على أغاني «الروك آند رول» (الأغاني الضاربة في عامي ١٩٥٨ و١٩٥٩)؛ ثم مع امتداد السهرة إلى ساعة متأخرة كانت تخفت الأنوار وتصمت الموسيقا ويتجه كل صبي وبنت إلى زاوية معتمة من زوايا الغرفة للانغماس في القبل المثيرة حتى أوان الذهاب إلى البيت. تعلّمت الكثير عن الشفاه والألسنة ذلك العام وتشرّبت المتع الحسية كلما أحسست بجسد أنثى يلامس جسدك وهي بين ذراعيك وبذراعيها تطوقانك. إلا أن الأمر انتهى عند هذا الحدّ: ثمة خطوط لم يمكن تجاوزها موقتاً، وقد سرّك عدم تجاوزها، ليس بسبب الخوف بل لأن الأمر لم يخطر على بالك أصلاً.

أخيراً أقبل اليوم الذي شهد اجتيازك العتبة الفاصلة بين الطفولة والمراهقة. وبما أنك قد تذوّقت تواً هذا الشعور، واكتشفت أن صاحبك في أيام النضج، أي الإطفائي، كان في الواقع أحد العوامل المسبّبة للسعادة القصوى، أصبح عالمك المعيش مختلفاً لأن الابتهاج الغامر بذلك الشعور قد أعطى حياتك معنى «مختلفاً» ومدّك بسبب آخر للعيش. ها قد بدأت مرحلة الاهتمام المفرط بالأعضاء التناسلية. كأي ذكر آخر جال في هذه الأرض، كنت مشدود الانتباه إلى هذا التغيير الذي طرأ على جسدك. في غالبية الأيام استحوذ هذا الأمر على حيّز كبير من تفكيرك وفي بعض الأيام على تفكيرك كله.

مع ذلك ما أن تعود بذاكرتك إلى السنوات التي أعقبت مباشرة التغيير الجذري الذي طرأ على جسدك حتى تدهش حين يتراءى لك كم كنت حذراً ومتردّداً ومتخلفاً آنئذٍ. فعلى الرغم من شغفك

بالجنس ومطاردتك الدائمة للفتيات في المدرستين المتوسطة والثانوية وقصصك الغرامية مع «كارين» و«بيغي» و«ليندا» و«برايان» و«كارول» و«سالي» و«روث» و«بام» و«ستار» و«جاكي» و«ماري» و«روني» ومداعباتك، على الرغم من ذلك كله، لم تكن مغامراتك الجنسية مثيرة كما توقّعت أو ممتعة بالمرة؛ فبالكاد شكّلت خطوة أمامية، ما خلا مشاركتك في اللقاءات الحميمة عندما كنت في سن الثانية عشرة. ربما لم تكن محظوظاً أو لم تملك الجرأة الكافية. لكنك تميل إلى الاعتقاد بأن للسبب صلة أكبر بالمكان والزمان: بلدة في ضواحي المدينة جلّ سكانها من الطبقة الوسطى في السنوات الأولى من ستينيات القرن العشرين؛ وهناك أيضاً جملة قواعد وقوانين غير مكتوبة قضت حينئذٍ بأن لا تسلّم البنت نفسها للصبي وبأنّ على البنت الصالحة الحفاظ على سمعتها. الحد الأقصى المسموح به كان التقبيل والمداعبة، وخصوصاً أن أقلّ أشكال المداعبة هو خطر على عرض الفتاة، بمعنى آخر يجب أن تلامس يد الصبي صدراً مغطى بطبقتين أو ثلاث طبقات من الثياب: سترة ذات أكمام (حسب الفصل الذي ترتدى فيه) و«بلوزة» وحمّالة صدر. ولكن الويل والثبور لكل صبي حاول إدخال يده إلى البلوزة، فما بالك إذا تجرّأ وتوغّلت يده أكثر إلى المنطقة المحرّمة الواقعة تحت حمّالة الصدر؟ فمصير تلك اليد كان الإبعاد بسرعة من قبل الصبيّة التي عليها الحفاظ على سمعتها حتى ولو كانت في سرّها راغبة بشدة كما الصبي، في أن تظل اليد هناك. كم مرة رفض عرضك بخشونة بهذه الطريقة؟ وتتساءل عن عدد الرحلات الاستكشافية عديمة الجدوى التي قامت بها يداك ما تحت تنانير صاحباتك وستراتهن. كم رحلة غير مكتملة قمت بها قاصداً مملكة الجسد العاري قبل ردّك خائباً عند البوابة؟ على هذه الحال

كانت حياتك الجنسية «بالويل» في طورها الأول؛ لاءات كثيرة: لا يسمح بالتعرّي، لا لخلع الثياب... كما عليك أن تنسى نهائياً وجود أي دور للأعضاء التناسلية في هذه اللعبة. وهكذا تمضي أنت و«ليندا» في تبادل القبل مرّة وثانية وثالثة حتى تتشقق شفتاك ويسيل اللعاب على خدّيك فيما تتمنى طوال الوقت أن لا ينفجر عضوك المنتصب والناتئ في سروالك التحتاني.

تعيش حالة متأزمة من الإحباط والاهتياج الجنسي محطّماً الرقم القياسي المسجّل في أميركا الشمالية في الاستمناء شهرياً طوال عامي ١٩٦١ و١٩٦٢. لم يكن الامتاع الذاتي أو الاستمناء باليد من اختيارك بل فرضته الظروف عليك: محتجز داخل جسدك الآخذ في النمو والدائم التغيّر، الفتى الذي كان في الثالثة عشرة والبالغ طوله خمس أقدام وإنشين صار عمره خمسة عشر عاماً وطوله خمس أقدام وعشرة إنشات. قد تكون ما زلت فتى صغيراً لكنك ولد في جسم رجل، رجل يحلق ذقنه مرتين في الأسبوع، رجل نبت له شعر على ساعديه ورجليه وتحت إبطيه كما نبتت عانته لأنه لم يعد محتلما بل تام التكوين. حتى وفيما أنت تتقدّم في دراستك وفي نشاطاتك الرياضية، وتسافر إلى آفاق بعيدة في عالم الكتب، ترى أن ما يهيمن على حياتك هو ظمأ شديد لديك لم يروَ للجنس. تشعر أنك تموت فعلاً من شدة الظمأ، وليس ثمة مطمح آخر أهم بالنسبة إليك، ولا قضية جوهرية من أجل خير ذاتك المتألمة والجائعة وسعادتها سوى فقدان عذريتك بأسرع ما يمكن. مهما يكن، بهذا القدر هي شهوتك الجنسية، ولكن ليس ثمة من كتب أن الرغبات لا بدّ أن تتحقق. إذاً لا يفارقك العذاب بل يلازمك طوال سنة ١٩٦٢ التي امتازت بالنكران المترافق بالهذيان حتى خريف عام ١٩٦٣، حين تسنح لك فرصة

ذهبية أخيراً بعد طول انتظار؛ ومع أنها ليست مثالية بهذا القدر الكبير وبعيدة كل البعد عن الصورة المرسومة في خيالك، لا تتردّد في القول: نعم. أنت في السادسة عشرة، وقد قضيت شهري تموز/يوليو وآب/ أغسطس وأنت تعمل نادلاً في أحد المخيمات الصيفية في شمال ولاية «نيويورك». وشريكك في العمل فتى من «كوينز» (فتى مدينة حافظ غيباً جميع شوارع «نيويورك» بخلافك يا من لا يعرف شيئاً تقريباً) يحب الدعابة ويستميل الناس بكلامه المعسول. يتصل هذا الفتى بك ليقول إن لديه عنوان ورقم هاتف أحد بيوت الدعارة في «المنطقة الغربية العليا» (Upper West Side) وسوف يهيّئ لك موعداً إذا رغبت في ذلك؛ ولأنك ترغب في الذهاب حقاً تستقلّ الباص قاصداً المدينة يوم السبت التالي وتلتقي صديقك أمام أحد مباني الشقق السكنية في الثمانينيات والتي لا تبعد كثيراً عن النهر. إنه عصر يوم من آخر أيام شهر أيلول/سبتمبر حيث يتميز الجو بالرطوبة وبتساقط الرذاذ. كل شيء رمادي ورطب جداً: طقس يستلزم استخدام المظلة أو أقله وضع قبّعة، ولكن لا تملك أياً منهما، ومع ذلك لا ترى بأساً في الأمر على الإطلاق بما أنك آخر ما تفكّر فيه الآن هو الطقس. تستحضر كلمة ماخور صوراً ذهنية مغرية في مخيلتك، وها أنت تتوقّع أن تدخل مؤسسة كبيرة فخمة في زخرفتها، مزدانة بجدران حمراء مخملية فاخرة تعمل فيها شابات فاتنات عددهن خمس عشرة أو عشرون فتاة (أي فيلم تافه أوحى لك تلك الفكرة؟). لكن وفيما تخطو أنت وصديقك إلى داخل المصعد، الذي لم تر مصعداً آخر في «نيويورك» كلها يماثله في البطء والقذارة وتشويه المعالم بسبب الشعارات والصور المرسومة عليه، سرعان ما تراجع حساباتك. يتضح لك أن الماخور الفخم ليس سوى شقة متواضعة مؤلفة من غرفة نوم واحدة صغيرة ليس فيها إلا امرأتان لا أكثر: مالكة

الماخور، وهي امرأة سوداء ممتلئة الجسم تقارب الخمسين من عمرها واسمها «كاي»، ترحّب بصديقك وتحتضنه بحرارة وكأنهما «صاحبان منذ زمن»، وامرأة أخرى أصغر بكثير وسوداء أيضاً، تبدو في العشرين أو الثانية والعشرين من العمر تقريباً. كلتاهما جالستان على كرسيين من دون ظهر ومن دون ذراعين في المطبخ الصغير جداً الذي لا تفصله عن غرفة النوم سوى ستارة رقيقة تكاد تلامس الأرضية. كل واحدة منهما ترتدي روباً حريرياً مزركشاً. ما يروّح عنك أن الشابة جذابة جدا، فوجهها يسرّ الناظر كثيراً، حتى يمكن القول إنه وجه جميل. تعلمكما «كاي» بالسعر (خمسة عشر دولاراً؟ عشرون دولاراً؟)، ثم تسألكما أي منكما يريد «الدخول» أولاً. يضحك صاحبك ويقول إنه لم يأت لهذا القصد بل جاء ليصطحبك فقط (لا شك أن الفتيات في «كوينز»، مقارنة «بفتيات نيوجيرسي» هنّ الأقل عزوفاً عن طرح ثيابهنّ على الأرض). تلتفت «كاي» وتخيّرك بينها وبين زميلتها الشابة. وعندما تختار الشابة لا تبدو «كاي» منزعجة بل تكتفي بهزّ كتفيها دلالة على عدم الاكتراث وتبتسم وتقول وهي تمدّ يدها: «هيا يا حبيبي ناولني المصاري». عندئذ تنقّب عن المال في جيبك وتخرج الخمسة عشر أو العشرين دولاراً التي تدين لها بها. تخطو أنت والفتاة الصغيرة إلى الغرفة الأخرى فيما تسدل «كاي» الستارة خلفكما (تنسى أن تسأل عن اسمها إما من فرط خجلك وإما من توترك، ما يعني أنها ظلّت مجهولة الاسم بالنسبة إليك طوال هذه السنين). تتقدمك الفتاة إلى السرير الكائن في الزاوية وتخلع الروب بسرعة وتلقيه على كرسي، ولأول مرّة في حياتك أنت في حضرة امرأة جميلة عارية، امرأة يافعة ذات جسد جميل على نحو لافت. فلها نهدان رائعان وذراعان وكتفان رائعتان ومؤخرة رائعة ووركان رائعان وساقان رائعتان؛ وبعد ثلاث سنوات

طوال من الإحباط والخيبة والإخفاق، ينتابك شعور جديد لم تختبره منذ بداية مرحلة المراهقة: شعور بالغبطة والسعادة. تشير عليك الفتاة بخلع ملابسك، ومن بعدها أنتما معاً على السرير، كلاكما عاريان، وكل ما ترغب فيه فعلاً، أقله للوقت الراهن، هو أن تلمسها وتقبّلها وتتلمّس بشرتها الناعمة كالحرير، الناعمة إلى حدّ أنها تجعلك ترتعش لمجرّد لمسها بيدك. لكن تقبيل الفم ليس من قواعد اللعبة بما أن المومسات لا يقبّلن زبائنهن في الفم. كما ليس لديهن اهتمام بالمداعبة التمهيدية أو باللمس لمجرّد الاستمتاع بالملامسة المتبادلة. لأن الفعل الجنسي في ظل هذه الظروف ليس مدعاة للمتعة بل هو وظيفة يجب تأديتها، وكلما أسرع الزبون في إتمام العمل الذي دفع لقاءه كان أفضل. تعلم أنها المرّة الأولى التي تضاجع فيها امرأة، وأنك مبتدئ بكل ما في الكلمة من معنى من دون تجارب سابقة في هذا المضمار. تعاملك بلطف وبتؤدة. تشعر أنها إنسانة طيبة، وأنت لا تمانع إن أرادت هي المباشرة في المجامعة رأساً، فأنت أكثر من مستعد وراغب في اتباع القواعد التي تفرضها هي: من المؤكد أنك جاهز، وعضوك منتصب منذ اللحظة التي خلعت فيها الفتاة الروب. لهذا فيما هي تسترخي على ظهرها، تعتليها بسرور وتدعها تدل عضوك على المكان الذي لطالما تاق إلى ولوجه سنين طويلة. هائل، كل شيء هائل. تحس أن الأمر كما تخيلته دائماً. هو رائع، بل أكثر من رائع، أكثر بكثير. كل شيء جميل في البداية، عندما يتراءى لك أنه ما هي إلا ثوان حتى يكون العمل قد أنجز، ولكن في هذه اللحظة بالذات تنتبه إلى أن «كاي» وصاحبك يتحدثان ويضحكان في المطبخ الذي لا يبعد عن السرير أكثر من عشر أقدام أو اثنتي عشرة قدماً. وما أن تنتبه لوجودهما حتى يتشتت ذهنك؛ وما أن يبدأ فكرك في الشرود عن العمل الذي بين يديك حتى تشعر

أن الملل بدأ ينتاب الفتاة وأن هذا العمل برمّته غدا مضجراً ومتعباً بالنسبة إليها. حتى وإن كنت فوقها لا تجدها قريبة منك بل هي في مدينة أخرى، في بلد آخر. ثم عندما يبدأ صبرها ينفد تسألك إن كان بمقدورك أن «تمشّي» الحال وحدك وتجيبها: «نعم، بالتأكيد». وبعد عشرين ثانية يتكرر السؤال والجواب، ولكن حين تتحدث إليك ثانية تقول: «هيا أخرجه ودع يدي تنهي الأمر؛ أنتم الأولاد لا تفلحون إلا في الاستمناء تواً لكن لا تملكون أي فكرة عن هذا الفعل بحق وحقيق». وهكذا تدعها تستمنيك، وهذا بالضبط ما داومت على فعله بنفسك طوال الثلاث سنوات الماضية، مع فرق بسيط: يدها أفضل من يدك بكثير.

لم تعد إلى هناك مطلقاً، وبقيت سنة ونصف سنة بعد تلك الليلة تتخبط بالسترات و«البلوز» والصديريات، ومضيت في التقبيل والملامسة، وبذل الجهد للحؤول دون حدوث ما يربك كالقذف في غير أوانه. ثم وفي الثامنة عشرة خططت سرّاً للتغيب عن المدرسة الثانوية في آخر شهرين من السنة الدراسية: أولاً لإصابتك بكثرة الوحيدات[1]، ما أبقاك واهناً وطريح الفراش طوال شهر أيار/مايو تقريبا، وثانيا بسبب سفرك إلى أوروبا على متن رحلة بحرية للطلاب قبل تخرج دفعة صفك بثلاثة أسابيع. أذنت لك إدارة المدرسة بالتغيب طوال هذه المدة لأن علاماتك كانت جيدة وسبق أن نلت القبول للالتحاق بالكلية في الخريف. وهكذا انطلقت في رحلتك شريطة أن تعود في مطلع أيلول/سبتمبر لتأدية امتحاناتك النهائية ونيل شهادتك رسمياً. كان السفر جواً مكلفاً في العام ١٩٦٥، لكن الرحلات البحرية المتوافرة للطلاب بأسعار مخفّضة لم تكن غالية إلى حد كبير. وبما أن ميزانيتك

(١) حالة تتميز بازدياد الوحيدات ازدياداً غير طبيعي في الدم. (المترجمة)

لم تكن كافية (جنيت بعض المال لقاء وظائف صيفية زاولتها في العامين الماضيين) فضّلت السفر في رحلة بحرية مدة تسعة أيام على متن السفينة «إس.إس. أوريليا» من «نيويورك» إلى «الهافر» [مدينة في الجزء الشمالي من فرنسا]. بلغ عدد الطلاب المسافرين على متن المركب ثلاثمئة تقريباً، وقد أتمّ معظمهم عاماً أو عامين من دراستهم في الكلية، ما يعني أنّ جلّهم كان أكبر منك بقليل؛ وبما أنه لم يكن ثمة شيء تفعله أنت وزملاؤك الركاب وأنتم تعبرون المحيط «الأطلنطي» ببطء، وتشغلون الوقت بالنوم والأكل وقراءة الكتب ومشاهدة الأفلام، كان من البديهي، ويبدو لك الآن أن كلمة «من المحتم» مناسبة تماماً، أن يتركّز تفكير ثلاثمئة شاب وشابة تراوح أعمارهم بين الثمانية عشرة والحادية والعشرين على الجنس في المقام الأول. فقد اجتمعت ثلاثة عناصر لخلق أجواء سهّلت عليكم ممارسة الجنس «من دون حارس ولا بواب»: الضجر والتقارب الجسدي، والاسترخاء في ظل طقس صاح في رحلة بحرية طويلة والتنبه إلى أنّ السفينة هي عالم مغلق على نفسه وأنّ كل ما يحدث فيه هو ابن ساعته فقط و لن يخلّف أثراً باقياً. ابتدأت المداعبات قبل غروب الشمس في اليوم الأول من الرحلة واستمرت حتى لامست السفينة البر بعد مئتي ساعة. كانت السفينة مقراً عائماً لأعمال الفحش، هناك على الأمواج العالية حيث بنات وصبيان يتسللون اثنين اثنين من وإلى الكابينات المعتمة، ويتبادلون شركاءهم من يوم إلى آخر. في خلال الرحلة هذه وجدت نفسك مرّتين في السرير مع إحداهن؛ وفي كلتا المرّتين كانت الفتاتان متفهمتين وتتمتعان بالفطنة والدراية بخلاف البنات المهذبات اللواتي ترعرعت معهن في «نيوجيرسي»، إذ كانت هاتان الفتاتان، كما الأخريات في السفينة، من «نيويورك» ومن ثم امتلكتا قدراً أكبر من الحنكة والخبرة قياساً

بعذارى مدينتك اللواتي استخدمن أياديهنّ كمطارق ولم يفلحن سوى في ضربك بعنف كلما داعبتهن. بوجود الانجذاب القوي والمتبادل بينك وبين «رينيه» ثم «جانيت» لم يكن ثمة وخز للضمير حيال خلع الملابس والتسلل بين الشراشف والمجامعة كما كانت الحال في تلك الشقة البائسة في «المنطقة الغربية العليا». كما تضمّنت المغامرة عناصر أخرى مثل التقبيل واللمس والمشاعر غير المزيفة، وهذا ما شكّل في ذاته تجربة متقدمة في هذا المجال متمثلة بتلقينك المتعة الجنسية لشريكين يساهمان في القدر ذاته في إطالة اللذة ما أمكن. بالطبع بقي الكثير لتتعلّمه في هذا المجال، إذ لم تكن أكثر من مبتدئ في تلك المرحلة، ولكن كنت على أقله على «السكة» واكتشفت وجود أمور كثيرة للتطلّع إليها.

بعد ذلك، أي في خلال فترة إقامتك في «باريس» في مطلع السبعينيات، حين كانت هناك فترات زمنية متتالية مكثت فيها وحيداً تنام ليلة تلو الأخرى من دون جسد إلى جانبك على السرير الضّيق في غرفتك الصغيرة جداً، وحين أصبحت فيها شبه مجنون في وحدتك القاتلة من دون أنثى في بعض الأوقات، ليس بسبب عدم الانفراج جنسياً فقط ولكن لغياب أي نوع من الاحتكاك الجسدي، ولأنه لم يكن ثمة أحد تلجأ إليه، ما من امرأة يمكنك التعويل عليها لتكون الرفيقة التي كنت تتوق إليها، اعتدت الخروج أحياناً والبحث عن مومس. ربما حدث هذا الأمر خمس أو ست مرات في خلال السنين العديدة التي مكثت فيها هناك. اعتدت التجوال في الطرق الجانبية لمنطقة «لي زال» المجاورة، التي أصبحت مهدّمة الآن، والقريبة جداً من غرفتك، وفي أحيان أخرى قرّرت المجازفة والابتعاد أكثر والذهاب سيراً إلى شارع «سانت دنيس» والأزقّة والمسالك والدروب المرصوفة

بالحصى المجاورة له؛ كانت الأرصفة غاصّة بنساء مصطفات، إما مستندات إلى جدران المباني وإما عاملات في الدعارة. عرض باهر لإمكانات أنثوية متيسّرة من جميع الأشكال والألوان: بدءاً بفتيات وسيمات في بداية العشرينيات وانتهاء بالقديمات في المهنة من فتيات الشوارع، مجمّلات بماكياج فاقع، وممن كنّ في منتصف الخمسينيات. مومسات يمثّلن كل ما يتخيّله العقل من صفات جسدية ومن أجناس وألوان بشرية: من فرنسيات متكوّرات الجسم إلى إفريقيات رشيقات وإيطاليات وإسرائيليات ممشوقات ناهدات. بعضهنّ في ملابس مثيرة، تغطي أجسادهن تنانير قصيرة وصدورهن متدلاة من صديريات مقوّرة وبلوز شفافة، وأخريات كنّ يرتدين «الجينز» وسترات بسيطة؛ لم يختلفن عن الفتيات اللواتي قصدت وإيّاهن المدرسة ذاتها في بلدك. لكن كعوب أحذيتهن كلها عالية أو أنهن انتعلن جزمات، جزمات جلدية سوداء أو بيضاء، وجميعهن وضعن حول الرقبة بواءً ظرفية أو لفاعاً حريرياً. ومنهن أيضاً فتيات ماسوشيات - ساديات في زي جلدي زاه لافت للنظر، أو فتيات على هيئة تلميذات في المدرسة مرتديات تنانير بليدية [مربعة النقش أو متصالبته] وبلوز بيضاء توحي بالجدية والوقار، لكن كل هذه المظاهر المتباينة عرضت لتلبية جميع الرغبات والميول والأذواق. وكان الرجال يتمشون في الشوراع الخالية من السيارات: جمع غفير من رجال صامتين يتفحّصون الإمكانات المتوافرة على أرصفة الشوارع بنظرات خاطفة مستترة أو بحملقات جريئة. في هذا المكان كانت نساء من جميع الأصناف والأنواع مستعدات لتأجير أنفسهن لرجال من جميع الأصناف والأنواع لفترات وجيزة، رجال وحيدين سواء أكانوا من جنسيات عربية أم زبائن في خريف العمر ببذلاتهم الأنيقة أم جموعاً من المهاجرين وفدوا إلى بلاد الاغتراب من

دون نسائهم أم طلاباً خيّب الحب أملهم أم أزواجاً ضجرين. ما لبثت أن انضممت إلى تلك الجموع وشعرت فجأة بأنك لم تعد جزءاً من عالم اليقظة وبأنك غبت في حلم إيروتيكي أثارك وزعزع كيانك في آن واحد؛ فقد شعرت بالدوار لمجرد التفكير بأنه في إمكانك اصطحاب أي فتاة منهن إلى السرير إن عرضت عليها مئة فرنك فقط (عشرون دولاراً). هذه الفكرة «دوّختك» بيولوجياً محرّكة شهوتك الطبيعية. وفيما كنت تطوف في الشوارع الضيّقة بتأن بحثاً عن رفيقة لسدّ الحاجة التي أخرجتك من غرفتك وجاءت بك إلى هذه المتاهة من الأجساد، رأيت نفسك تنظر إلى وجوه بدلاً من أجساد أو وجوه أولاً وأجساد ثانياً، تبحث عن وجه جذّاب، وجه كائن بشري لا يزال في عينيه وهج الحياة، أحد لما يغرق روحه تماماً بعد في أوحال البغاء ولا غموضه وآليته المصطنعة. ما يدعو إلى العجب أنك أفلحت في العثور على هذا الوجه في جولاتك الخمس أو الست في أحياء باريس الحمراء الشرعية مئة بالمئة. لم تكن تجارب سيئة حينئذٍ ولا لقاءات أفعمتك بمشاعر الأسف أو الندم. وعندما تتأمل فيها الآن يتراءى لك أنك عوملت جيداً لأنك لم تكن عجوزاً «عظيم الكرش» أو أحد العمال الذين تنبعث منهم رائحة كريهة وممن لديهم أظفار متسخة، بل (كنت) شاباً مسالماً لائق المظهر وحسن الطلعة في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من العمر، شاباً لم تكن له متطلبات خاصة أو محرجة أو غير مريحة بالنسبة إلى النساء اللواتي رافقتهن إلى الغرف العلوية. كنت بكل بساطة شاباً مديناً لهن بالفضل لمؤانستك في سريرك. من ناحية أخرى، من الخطأ نعت أي من هذه التجارب بالتي لا تنسى. صحيح أنها كانت منشّطة ومتسمة بالصراحة والعفوية وباعثة على الرضا والارتياح، بيد أنه بالنظر إلى الأمر من جميع الوجوه فقد اكتست بطابع

الجدية والعملانية عند التنفيذ، وكانت بمنزلة خدمة مقدّمة بجدارة لقاء أجر محدّد. ولكن بما أنك لم تعد ذلك المبتدئ الأخرق، ابن السادسة عشر عاماً الذي كنته في السابق، لم تفاجأ بكل هذا لأنك لم تتوقع أكثر منه ومع ذلك حدث ذات مرّة أمر غير اعتيادي: اشتعلت شرارة متبادلة بينك وبين قرينتك الموقتة في آخر مرة دفعت فيها لامرأة مالاً لتمارس الجنس معك وتحديداً في صيف العام ١٩٧٢ حين جنيت نقوداً كنت في أمسّ الحاجة إليها لقاء وظيفتك عامل تحويل الخطوط الهاتفية في مكتب صحيفة «نيويورك تايمز» في باريس، حيث كنت مسؤولاً عن نوبة منتصف الليل، أي منذ السادسة مساءً إلى الواحدة صباحاً تقريباً. لم تعد تذكر عدد ساعات العمل بالضبط، ولكنك اعتدت الوصول عند انتهاء الدوام النهاري وخلو المكتب من الموظفين، والجلوس وحيداً إلى أحد المكاتب: الشخص الوحيد في الطبقة المعتمة في إحدى البنايات على «الضفة اليمنى» (Right Bank)، منتظراً رنين الهاتف الذي كان نادر الحدوث. كنت تستغلّ الصمت المتواصل في تلك الساعات لقراءة الكتب و «العمل على» أشعارك. ذات مساء يوم من أيام الأسبوع، وعندما فرغت من نوبة عملك، غادرت المكتب وخطوت إلى الخارج، إلى حيث احتضنك هواء الصيف. ولأنّك تأخرت عن الالتحاق بالمترو الأخير في ذلك اليوم، توجّهت إلى المنزل على قدميك، ورحت تسير الهوينا جنوباً في نسمات الصيف العليلة. لم تتعب إطلاقاً وأنت تتمشى ببطء في الشوارع الخالية في طريق العودة إلى غرفتك الخالية الصغيرة. بعد قليل كنت في شارع «سانت دنيس» حيث كان العديد من الفتيات اللواتي كنّ مازلنَ يعملْنَ على الرغم من تلك الساعة المتأخرة. ثم انحدرت إلى شارع جانبي مجاور حيث اعتادت أجمل الفتيات التجمع وأنت مدرك بأن لا رغبة لديك في

الذهاب إلى المنزل بعد وبأنك لطالما بقيت وحيداً؛ فخشيت العودة إلى غرفتك الخالية الموحشة. وفي وسط الميدان لفتت إحداهن انتباهك: فتاة سمراء طويلة، صاحبة وجه فاتن وقوام لا يقل عن الوجه جمالاً وجاذبية. وعندما ابتسمت لك وسألتك إن كنت تريد رفيقة، لم تفكّر مرتين في قبول عرضها. ابتسمت ثانية مسرورة بالسرعة الهائلة التي تمّت فيها الصفقة؛ أمعنت النظر في وجهها فرأيت أنها كانت ستتمتع بجمال أخّاذ يخلب القلوب لو أن عينيها لم تكونا متقاربتين كثيراً، ولو لم تكن فقط حولاء قليلاً. لكنك لم تعر أهمية لهذا العيب لأنها بالرغم منه كانت لا تزال جذابة أكثر من المومسات الأخريات في ذلك الشارع. أسرتك ابتسامتها التي كانت برأيك رائعة. خطر ببالك أنه لو كان باستطاعة الناس جميعاً أن يبتسموا مثلها لانتفت الحروب أو النزاعات بين البشر ولعمّ السلام الأرض وسكنت السعادة العالم كله إلى الأبد. «ساندرا» كان اسمها: فتاة فرنسية في منتصف العشرينيات. وفيما كنت تصعد وراءها السلّم المتعرج إلى الطبقة الثالثة في الفندق، أسرّت لك بأنك كنت آخر زبائنها في تلك الليلة، بالتالي لم يكن ثمة داع للاستعجال وبأنها ستبقى ما دمت أنت راغباً في بقائها معك. كلامها هذا شكّل سابقة وخرقاً لجميع الأصول والمعايير المهنية، ولكن قد بات واضحاً لك أن «ساندرا» لم تكن كسائر الفتيات العاملات في ذلك الشارع: انتفت لديها صفتان لازمتان مدرجتان في نطاق هذا العمل وهما القساوة والبرودة. ثم دخلتما الغرفة معاً؛ تجربتك معها اختلفت من الأول إلى الآخر عن التجارب السابقة التي عشتها في تلك الناحية من المدينة. كانت مرتاحة، مسترخية وبوضعية نفسية توحي بالدفء وانشراح الصدر حتى عندما خلعتما ثيابكما، وحتى عندما اكتشفت أن جمال قوامها فوق العادة (الكلمة التي وردت في خاطرك

هي «ملكة» - majestic)، كما نطلق الصفة نفسها على أجساد بعض الراقصات. من صفاتها الأخرى طلاقة اللسان والحيوية الزائدة. لم تكن مستعجلة للبدء بالعمل، ولم تربكها إطلاقاً رغبتك في لمسها وتقبيلها. تمدّدت معك باسترخاء على السرير وأخذت تبيّن لك الوضعيات المختلفة والمتنوعة للمضاجعة التي اعتادت هي وصديقاتها اعتمادها مع زبائنهن: وكأنها «كاما سوترا»(١) شارع «سانت دنيس»، وهي تلتف دائرياً من جانب إلى آخر وعلى نفسها وتساعدك على ليّ جسمك على نحو يناسب وضعيتها، وتضحك بعذوبة على سخافة الموضوع برمّته وهي تكشف لك عن اسم كل وضعية من تلك الوضعيات. لسوء الحظ لا تتذكّر الآن سوى وضعية واحدة منها لعلّها كانت باهتة أكثر من أمثالها، رتيبة، بعيدة كل البعد عن الحيوية، ولهذا السبب كانت مضحكة أيضا مقارنة بالوضعيات الأخرى: le paresseux أي «الرجل الكسول». بكل بساطة لم تتطلّب منك سوى التمدّد على جانبك ومجامعة شريكتك وجهاً لوجه. لم تلتق قبلاً امرأة منسجمة مع جسدها بهذا الشكل، امرأة تمتلك هذا القدر من السكون والصفاء في طريقة تعاملها مع ذاتها العارية. في نهاية المطاف لم تعد تستطيع كبح نفسك لشدة اهتياجك بالرغم من أنك كنت ترغب في أن تتواصل هذه الشروح العملية حتى الصباح. حسبت أن الأمور سوف تنتهي عند هذا الحدّ، فلطالما كان «إشباع اللذة» (Jouissance) يمثّل خاتمة اللقاء في الماضي، ولكن حتى بعد قضاء وطرك منها لم تلح «ساندرا» عليك في المغادرة، بل رغبت في الاستلقاء معك على السرير والتحدث معاً. وهكذا بقيت معها ساعة إضافية أخرى تقريباً هانئاً، سعيداً لكونك بين ذراعيها فيما

(١) كاما هو إله الحب في الميثولوجيا الهندوسية وسوترا عبارة عن قواعد سلوك تلخص جانباً من التعاليم البوذية. (المترجمة)

رأسك مستند إلى كتفها. رحتما تتناقشان في أمور غابت عن بالك طويلاً، وعندما استفسرت أخيراً عم تفعل عندما تكون وحدك وأجبتها بأنك تؤلف أشعاراً انتظرت منها أن تهزّ كتفها لا مبالية أو أن لا تعلّق على جوابك؛ ولكن لا، فاجأتك مرة أخرى، لأنك ما أن بدأت تتحدث عن الشعر حتى أغمضت «ساندرا» عينيها وأخذت تلقي أبياتاً من إحدى قصائد «بودلير». ألقت على مسمعك مقاطع شعرية طويلة بإحساس قوي، مستذكرة إياها بدقّة وبإتقان، ولم يسعك إلا التمني بأن يقوم «بودلير» من قبره ويسمعها تلقي شعره(١):

يا أمّ الذكريات، يا سيدة العشيقات،

يا أنت، يا كلّ ملذّاتي! يا أنت، يا كلّ واجباتي!

لسوف تتذكّرين جمال المداعبات،

حلاوة الموقد وسحر الأمسيات

يا أمّ الذكريات، يا سيدة العشيقات!

كانت إحدى التجارب المميّزة في حياتك، ومن أسعدها. وحتى بعد عودتك إلى «نيويورك» وحين كتابة الفصل التالي من قصتك، لبثت تفكّر في ساندرا وفي الساعات التي قضيتها برفقتها تلك الليلة، وفكّرت جدّياً في ركوب الطائرة والذهاب مجدّداً على جناح السرعة إلى باريس وطلب يدها.

دائماً ضائع، تتخبط في الاتجاه المعاكس؛ دائماً تدور في دوائر. دائماً تعجز عن التكيف مع الاتجاهات المكانية. حتى في «نيويورك»،

---

(١) أبيات مأخوذة من قصيدة «الشرفة» (Le Balcon) ترجمة «نزار سرطاوي» http://www.fobyaa.com/?p=15137 (المترجمة)

أي المدينة التي يسهل معرفة طرقاتها قياساً بالمدن الأخرى، المدينة التي قضيت فيها الجزء الأكبر من مرحلة الرشد، تصادف المتاعب غالباً: كلما استقللت قطار الأنفاق من «بروكلين» إلى «مانهاتن» (على افتراض أنك ركبت القطار المناسب ولم تتوغّل عميقاً في «بروكلين»)، ازددت حرصاً على التريّث برهة لتحديد مقصدك ساعة صعودك الدرج وخروجك إلى الطريق، ومع ذلك لا بدّ أن تتجه شمالاً وليس جنوباً [كما هو مفترض] والذهاب شرقاً وليس غرباً. وحتى عندما تحاول أن تتشاطر، بتصحيح الخطأ المزعوم والإقدام على عكس ما كنت تنوي فعله: أي الذهاب يميناً بدلاً من الذهاب يساراً، تجد نفسك تتحرك في الاتجاه الخاطئ مدركاً أنّ إعاقتك الذهنية لا بدّ أن تدلّك على الوجهة الخاطئة، بغضّ النظر عن عدد التعديلات التي أجريتها.

أبعد عن ذهنك المشي في الغابات، أنت خلال دقائق، تجد نفسك تائهاً بلا أمل. حتى وإن ولجت أحد المباني ولا سيّما مبنى تجهله، سوف تتخذ الرواق الخطأ أو تركب المصعد الخطأ. هذا بغض النظر عن الأماكن المغلقة الصغيرة. ففي مطعم تتنوّع فيه أماكن الجلوس، لا بد من أن تتّبع الطريق الخطأ وأنت عائد من دورة المياه، وسوف يستغرق أمر اهتدائك إلى طاولتك دقائق إضافية. في المقابل يبدو أنّ معظم الآخرين، بمن فيهم زوجتك التي لا تخطئ بوصلتها الحدسية، يبلغون أهدافهم بكل سهولة. يعرفون جيداً أين هم وأين كانوا وإلى أين سيصلون، لكنك جاهل في هذا المجال، بل أنت تائه «باستمرار» في اللحظة الآنيّة، في الفراغ الذي يغمرك كل لحظة بلحظة دون امتلاكك أدنى فكرة عن مكمن الجهة الشمالية الحقيقية بما أنه بالنسبة إليك لا وجود للجهات الأربع الرئيسة مطلقا لا الآن ولا في السابق. بقيت إعاقة

ثانوية إلى حدّ الآن من دون نتائج سلبية جداً، ولكن هذا لا يعني أنك لن تصادف يوماً تقع فيه في الهاوية.

جسدك في غرف صغيرة وفي غرف كبيرة؛ جسدك يطلع السلالم وينزلها؛ جسدك يسبح في برك الماء والبحيرات والأنهار والمحيطات؛ جسدك يغوص في الحقول الموحلة؛ جسدك يستلقي على العشب الطويل في المروج الخالية؛ جسدك يجول في شوارع المدن؛ جسدك يتسلّق بتثاقل التلال والجبال؛ جسدك يقعد على الكراسي، ويتمدّد على الأسرّة، وعلى الشطآن؛ جسدك يركب الدراجة على الطرق الريفية، يعبر الغابات والمراعي والبراري، يركض على مضامير مرصوفة بحجارة بركانية، يقفز إلى فوق وإلى تحت على أرضيات خشبية صلبة؛ جسدك يقف وقت الاستحمام؛ ويخطو إلى المغاطس الدافئة ويقعد على كراسي المراحيض. جسدك ينتظر في المطارات ومحطات سكك الحديد؛ ويصعد وينزل في المصاعد ويميد يميناً ويساراً في مقاعد السيارات والباصات؛ جسدك يسير في العواصف الممطرة من دون مظلة؛ ويقعد في الصفوف ويتصفّح الكتب في المكتبات ويلقي نظرة على محال الأسطوانات الموسيقية (لترقد في سلام)؛ جسدك يقعد في صالات العرض ودور السينما وقاعات الحفلات الموسيقية؛ ويراقص الفتيات في صالات الألعاب الرياضية في المدرسة؛ جسدك يمارس رياضة التجذيف بالكانو في الأنهار ويسيّر المراكب بالمجاذيف في البحيرات؛ جسدك يتناول الطعام وهو جالس إلى طاولات المطبخ وغرف الطعام وفي المطاعم؛ ويتسوّق في المتاجر الكبيرة الشاملة وفي محال الأجهزة الكهربائية وفي محال المفروشات وفي محال الأحذية ومحال بيع الآلات والمعدّات المنزلية ومحال البقالة ومحال الثياب؛ جسدك واقف في الصف لإجراء معاملات السفر ورخص القيادة؛ جسدك مستند إلى ظهر الكرسي فيما رجلاك مرفوعتان على المكتب

أو الطاولة وأنت تكتب على المفكّرات، وتنحني فوق الآلات الكاتبة؛ جسدك يسير في العواصف الثلجية من دون قبعة؛ ويرتاد الكنيس والكنيسة؛ جسدك يرتدي الثياب ويخلعها في غرف النوم وغرف الفنادق وحجرات الأدراج المقفلة؛ ويقف على السلالم المتحرّكة ويتمدّد على أسرّة المستشفيات ويرقد على طاولات المعاينة في عيادات الأطباء؛ جسدك يجلس على كراسي الحلّاقين وأطباء الأسنان؛ ويتمرغ على العشب ويقف على رأسك على العشب؛ جسدك يقفز في برك السباحة؛ وينطط كرات السلّة في الملاعب ويرمي كرات البيسبول وكرات القدم في الحدائق العامة؛ جسدك يختبر الأحاسيس المختلفة من جرّاء السير على الأرضيات الخشبية والإسمنتية والمبلطة والحجرية، ولدى ملامسة قدميك الرمل والتراب والعشب؛ ولكن الأهمّ من ذلك كله هو اختبار إحساسك وأنت على أرصفة الشوارع، لأنك على هذا النحو ترى نفسك كلما توقفت تساءلت: «من أنا؟»: رجل يمشي، رجل أمضى حياته وهو يسير في شوارع المدن.

هناك المحصورات والأماكن التي أقمت فيها، الغرف الصغيرة والغرف الكبيرة التي حمت جسدك من الهواء الطلق. بداية مع ولادتك في مستشفى «بث إسرائيل» في «نيوأرك»، نيو جيرسي (٣ شباط/ فبراير ١٩٤٧) والسفر زمنياً إلى الحاضر (هذا الصباح الكانوني، كانون الثاني/يناير البارد عام ٢٠١١). هذه هي الأماكن التي حط فيها جسدك على مرّ السنين: الأماكن التي سمّيتها «منزلك» في السرّاء وفي الضرّاء:

١- «ساوث هاريسون ستريت ٧٥؛ إيست أورانج، نيو جيرسي».
إحدى الشقق في مبنى قرميدي مرتفع بعض الشيء. العمر من صفر إلى سنة ونصف السنة. ذكريات معدومة، ولكن حسب ما سمعت لاحقاً

في طفولتك تمكّن والدك من توفير الإيجار بإعطاء مالكة الشقّة جهاز تلفزيون: رشوة فرضتها الأزمة السكنية التي عانتها الدولة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. بما أنّ والدك امتلك حينئذٍ محلّاً صغيراً لبيع الأجهزة الكهربائية، كانت الشقة التي أقمت فيها مع والديك مجهّزة بتلفزيون، ولهذا كنت في عداد الجيل الأول من الأميركيين، بل قل من الناس الأوائل في هذا العالم، الذين شبّوا على مشاهدة التلفزيون.

٢- «فيلادج رود ١٥٠٠؛ يونيون، نيو جيرسي». شقة مع حديقة في مجمّع مؤلّف من مبانٍ قرميدية خفيضة يدعى «ستويفيسانت فيلادج»، حيث ازدانت الأرصفة الهندسية الشكل بصفوف عريضة من الأعشاب مرتّبة بعناية. ولكن من المؤكد أن كلمة «عريضة» غير مطلقة بالأخذ في الاعتبار مدى صغر حجمك في ذلك الحين. من سن السنة ونصف السنة حتى الخامسة. لا ذكريات ثم بعض الذكريات ثم ذكريات بالجملة. الجدران باللون الأخضر الغامق والحاجبات الفينيسية[١] في غرفة المعيشة. التنقيب عن ديدان بمالجة التشتيل. كتاب برسوم لكلب مشارك في سيرك يدعى «بي وي»: دمية كلب دلماسي تتحول بأعجوبة إلى كلب طبيعي الحجم. وضع قافلة سياراتك وشاحناتك المصغّرة بالترتيب. الاستحمام في «المجلى». حصان آلي يدعى «وايتي». كوب مُحرق من الكاكاو الساخن انسكب عليك وخلّف ندبة باقية في ثنية مرفقك.

٣- «جادة أيرفنغ ٢٥٣، ساوث أورانج، نيو جيرسي». بيت أبيض مكسو بألواح التلبيس مؤلف من طبقتين، بني في عشرينيات القرن الماضي: له باب أمامي أصفر ومدخل سيارات مفروش بالحصباء، وفناء

(١) ستائر ذات أضلاع يمكن تعديلها لإدخال القدر المطلوب من النور. (المترجمة)

خلفي كبير. من الخامسة حتى الثانية عشرة. موقع ذكريات طفولتك كلها تقريباً. بدأت العيش هناك منذ زمن بعيد جداً: توصيلة الحليب كانت تتم بواسطة عربة يجرّها حصان بعد انتقال العائلة إلى هذا البيت بسنة أو سنتين.

٤- «هاردينغ درايف ٤٠٦؛ ساوث أورانج، نيو جيرسي». بيت أكبر من البيت السابق، مبني على الطراز «التيودري» [من ١٤٨٥ إلى ١٦٠٣]؛ لم يكن الموقع الذي بني عليه ملائماً: كان قائماً على بقعة تكثر فيها التلال. فناؤه الخلفي لم يكن له مثيل من حيث صغر الحجم؛ وغرفه الداخلية «مغمومة» مظلمة ينقبض منها الصدر. من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة. هو البيت الذي عانيت فيه عذابات المراهقة وكتبت فيه أشعارك وقصصك الأولى. هو البيت الذي فسخ فيه زواج والديك. ظلّ والدك يعيش فيه (وحده) حتى مماته.

٥- «فان فيلسور بلايس ٢٥؛ نيوأرك، نيو جيرسي». شقة مؤلفة من غرفتي نوم على مسافة قصيرة من «ثانوية ويكواهيك» والمستشفى الذي ولدت فيه. استأجرتها والدتك بعد انفصالها عن والدك وطلاقهما. من السابعة عشرة حتى الثامنة عشرة. غرفتا النوم لوالدتك ولأختك الصغيرة، لكنك كنت تنام على أريكة تمدّد وتطوى في غرفة الجلوس[١] الصغيرة جداً. غير أنك لم تنزعج بتاتاً من هذه الترتيبات الجديدة لابتهاجك بسبب انتهاء زواج والديك الفاشل جداً ولشعورك بالارتياح لأنك لم تعد تسكن في الضواحي. كنت تملك سيارة حينئذٍ، سيارة «شيفروليه كورفير» مستعملة سعرها ستمائة دولار (السيارة المعيبة ذاتها التي أطلقت مسيرة «رالف نادر» المهنية، مع أنها لم تسبب لك مشاكل

---

(١) حجرة يخلو فيها المرء إلى نفسه للاسترخاء أو للقراءة. (المترجمة)

جدية). اعتدت كل صباح قيادة السيارة والذهاب إلى ثانويتك الواقعة في «مايبلوود» التي لم تبعد كثيراً عن المنزل؛ استنفدت حركات أي طالب في المرحلة الثانوية، وأصبحت حراً بعيداً عن أعين الكبار الساهرة ومراقبتهم، تأتي وتذهب متى تشاء وعلى أهبة الاستعداد للتحليق بعيداً.

٦- «الجناح ٨١٤ أ، كارمان هول؛ القسم الداخلي في جامعة كولومبيا». كل جناح مكون من غرفتين، وكل غرفة كان يشغلها طالبان. جدران من فدرة الخبث[١] وأرضيات مغطاة باللينوليوم[٢]، وسريران متصلان تحت النافذة، ومكتبان، وخزانة مبيتة لخزن الثياب، وحمّام مشترك بين الطلاب الذين كانوا يشغلون جناح ٨١٤ ب. من الثامنة عشرة حتى التاسعة عشرة. كان «كارمان هول» أول سكن جامعي في جامعة كولومبيا في السنوات الخمسين الماضية. البيئة المحيطة كانت متشدّدة وبغيضة، لكن ومع ذلك أفضل بكثير من الغرف الشبيهة بسجون القرون الوسطى المظلمة والواقعة تحت الأرض، الموجودة في المهاجع الأقدم عهداً (مثل «فورنالد» و«هارتلي») زرت أصدقاءك أحياناً، وهالتك رائحة الجوارب النتنة المتسخة، والأسرّة الضيقة وغير المريحة بطوابقها الثنائية، والظلمة الدائمة. كنت في «كارمن هول» عندما انقطعت الكهرباء في مدينة «نيويورك» عام ١٩٦٥ (الشموع في كل مكان، جو احتفالي فوضوي)، ولكن أكثر ما تذكره في غرفتك وجود مئات الكتب التي قرأتها هناك والفتيات اللواتي انتهى بهن الأمر في سريرك. لقد تغيّرت القوانين الداخلية السارية في كلية اللامتخرجين الذكور من قبل إدارة الجامعة في الوقت المناسب تماماً، أي تزامناً مع

---

(١) ضرب من حجارة البناء يصنع من إسمنت وخبث. (المترجمة)

(٢) مادة متينة قابلة للغسل تغطى بها الأرضيات بكبس مزيج من زيت بذر الكتّان المحمى ومسحوق الفلين وبعض الأصباغ على خلفية من الخيش. (المترجمة)

بداية سنتك الأولى في الجامعة، كما أنه سمح للمرة الأولى للإناث بالدخول إلى الغرف وإبقاء الباب مغلقاً. بعد أن كان سمح لهن بالدخول شرط إبقاء الباب مفتوحاً، أتبع ذلك بفترة انتقالية دامت سنتين سمح في خلالهما بترك الباب موارباً بمقدار عرض كتاب واحد، ولكن بفضل أحد الفتيان النابهين ممن لهم عقول حكماء تلموديين، انتهى عهد الأبواب المفتوحة لأنه تحدّى الإدارة باستخدام علبة ثقاب. زميلك في الغرفة كان أحد أصدقاء الطفولة. بدأ يتعاطى المخدّرات من منتصف الفصل الدراسي الأول، وانزلق أكثر فأكثر في هذا الطريق بينما مرت السنة ببطء، وذهبت نصائحك له بترك هذا الطريق أدراج الرياح. وقفت عاجزاً تتفرج عليه وهو يتحطّم. بحلول الخريف التالي كان قد انسحب من الكلية قبل إتمام سنته الجامعية الأولى من دون رجعة. لهذا السبب رفضت تعاطي المخدرات حتى في عز الستينيات الصاخبة والملأى بالمجون والملذات. نعم للكحول، نعم للدخان ولكن لا وألف لا للمخدّرات. بحلول عام ١٩٥٩، أي السنة التي تخرجت فيها، كان قد قضى اثنان من أصدقاء الطفولة، غير الذي ذكرته آنفاً، من جراء جرعة زائدة.

٧- «وست وان سيفينث ستريت ٣١١؛ مانهاتن». شقة مؤلفة من غرفتين في الطبقة الثالثة من مبنى درجي [بدون مصعد] من أربع طبقات بين «برودواي» و«ريفيرسايد درايف». من التاسعة عشرة حتى العشرين. شقتك الأولى، التي شاركك فيها في السكن زميلك في صف السوفومور [السنة الجامعية الثانية]: «بيتر شوبرت»، صديقك الحميم في أثناء دراستك الجامعية قبل التخرج. مسكن بائس، مهجور، يتصف برداءة التصميم، لا حسنات له سوى أجرته الرخيصة ووجود بابين للدخول: الأول مفتوح على الغرفة الكبرى التي استخدمتها

غرفة نوم وعمل معاً، إضافة إلى المطبخ وغرفة الطعام وغرفة المعيشة. والباب الآخر مفتوح على رواق ضيّق محاذٍ للغرفة الأولى، كان يؤدّي إلى حجيرة في الخلف استخدمها «بيتر» غرفة نوم له. أنت و«بيتر» كنتما مدبّري منزل فاشلين جديرين بالرثاء؛ فالمكان كان قذراً وانسدّ «مجلى» المطبخ مراراً وتكراراً والأجهزة الكهربائية فاقتكما عمراً وبالكاد كانت تعمل، والفئران الصغيرة جداً كبر حجمها على السجادة البالية. شيئاً فشيئاً حوّلتما أنتما الاثنان الخربة التي استأجرتماها إلى مكان بائس بغيض. ولأن تناول الطعام هناك كان يبعث على الكآبة ولأنكما كنتما جاهلين في مجال الطهو، ارتأيتما ارتياد مطاعم رخيصة وتناول الوجبات معاً: إما مطعم «تومز» وإما مطعم «كوليدج إن» لتناول الفطور، وقد فضلتما المكان الأخير تدريجاً لوجود جهاز تضع فيه قطعة نقدية فيسمعك أغاني رائعة («بيللي هوليداي» و«إديث بياف»). كما اعتدتما تناول العشاء ليلة تلو الأخرى في مطعم «غرين تري»، وهو مطعم مجري على ناصية «جادة أمستردام» و«وست وان إيلفنث ستريت»، حيث عشتما على كمية ضئيلة من الغولاش[1] واللوبياء والفاصوليا الخضراء التي تركت على النار أكثر مما يجب. أما العقبة [الحلوى] فكانت «البلاسينكا» الشهية. لسبب مجهول تبقى ذكرياتك المتصلة بتلك الشقة وما جرى فيها مبهمة، أكثر من ذكرياتك المتصلة بالأماكن الأخرى التي سكنت فيها قبلاً أو بعداً. كان زمن الأحلام المفزعة، أحلام كثيرة مفزعة تتذكرها الآن جيداً (لا تزال تذكر بوضوح الحلقة الدراسية عن «مونتيني» [ميشال إيكييم دو ١٥٣٣-١٥٩٢] التي كان يديرها «دونالد فرايم» ومادة «ميلتون» التي كان يدرّسها «إدوارد تايلر»)؛ ولكن بالإجمال ما يستعاد في ذاكرتك من

(١) طعام يعد من لحم البقر أو عجل وخضر وفلفل حلو. (المترجمة)

تلك الفترة هو شعور بالاستياء ورغبة ملحة بأن تكون في مكان آخر: الحرب في فييتنام أخذت تطول وأميركا منقسمة والأجواء حولك ملبدة والهواء ثقيل لا يمكن تنشقه، يبعث على الاختناق. سجّلت أنت و«شوبرت» اسميكما لدراسة المنهاج المقرر للسنة الثالثة الجامعية في الخارج: باريس. غادرت «نيويورك» في شهر تموز/ يوليو وتشاجرت مع المدير في شهر آب/أغسطس ولم تكمل المنهاج ومكثت هناك حتى شهر تشرين الثاني/نوفمبر بصفتك «لا طالباً»: أي تلميذاً سابقاً، يقطن في فندق صغير مقتصر على الضروريات الأساسية (لا هاتف ولا حمّام خاص) حيث شعرت أنك بدأت تتنفس ثانية، ولكن أقنعك أحدهم حينئذٍ بالرجوع إلى جامعة «كولومبيا»؛ نقلة ملائمة من ناحية مسألة التجنيد واعتراضك على الحرب، لكن وقت الراحة الرسمي أفادك. وعندما رجعت مكرهاً إلى «نيويورك» توقفت الأحلام المفزعة.

٨- «وست وان فيفتينث ستريت ٦٠١؛ مانهاتن». شقة أخرى غريبة الشكل مؤلفة من غرفتين لا تبعد كثيراً عن «برودواي» ولكن بناءها أمتن بكثير من بناء الشقة السابقة مع المزية الإضافية المتمثلة بوجود مطبخ حقيقي واقع بين الغرفتين الكبرى والصغرى، وكان كبيراً كفاية (بالكاد) لحشر جناح طاولة صغير جداً [امتداد للمائدة يطوى عند عدم الحاجة إليه]. من العشرين حتى الثانية والعشرين. هي شقتك المنفردة الأولى، معتمة باستمرار بسبب موقعها في الطبقة الثانية وإلا فكانت وافية بالغرض ومريحة وملائمة لحاجاتك الآنية. قضيت هناك سنواتك الجامعية الأولى والثانية والنهائية ؛ كانت سنوات صاخبة في جامعة «كولومبيا»، زمن التظاهرات والاعتصامات والإضرابات

الطالبية وهجمات الشرطة وأعمال الشغب التي عمّت الحرم الجامعي والطرد بالجملة وسيارات الدوريات [مقفلة لنقل السجناء] لسوق المئات إلى السجن. انكببت على دراستك بجدّ شاقاً طريقك بصعوبة وبكثير من الاجتهاد والكدح، وشاركت في كتابة مقالات نقدية لأفلام سينمائية وكتب في النشرة الطالبية ونظمت وترجمت أشعاراً وأتممت فصولاً عديدة من رواية لم تكملها لاحقاً، ولكن، تحديداً في العام ١٩٦٨، شاركت في الاعتصامات التي دامت أسبوعاً أدّت إلى زجّك في إحدى سيارات الشرطة وسوقك إلى وسط المدينة وإلى زنزانة اعتقال في منطقة «المدافن» (Tombs). كما أشرت سابقاً كنت قد تخلّيت عن القتال والشجار منذ عهد بعيد ولم تكن تنوي الاشتباك مع رجال الشرطة حين حطّموا باب الغرفة في «مبنى الرياضيات» حيث كنت تترقب اعتقالك، ولم تكن وحيداً بل بمعيّة عدة طلاب آخرين، ولكن لم يكن في نيتك أيضاً التعاون والخروج من هناك على قدميك. أرخيت جسمك وترنّحت، أي إنك استخدمت الأسلوب الكلاسيكي القائم على المقاومة السلبية الذي اعتمدته حركة الحقوق المدنية في الجنوب؛ اعتقدت بهذا أن رجال الشرطة سوف يحملونك إلى الخارج بهدوء، ولكن أعضاء «قوة الاستطلاع التكتيكية» كانوا غاضبين في تلك الليلة، فالحرم الجامعي الذي اقتحموه غدا ساحة حرب دموية، وكانت مقاربتك غير العنفية وذات المبادئ السامية للمسألة آخر همّهم. ركلوك وسحبوك بشدّ شعرك، وعندما رأوا بعد ذلك كله أنك لم تزل رافضاً الوقوف على قدميك، داس أحدهم بقوة يدك بكعب جزمته. كانت ضربة مباشرة تسبّبت بتورّم مفاصل أصابع قدميك وبألم مبرّح أياماً بعد الحادثة. وفي عدد «ذا دايلي نيوز» الصادر في صباح اليوم التالي كانت هناك صورة لك وأنت تسحب بالقوة إلى سيارة الدورية،

مرفقة بالتعليق الآتي: «فتى عنيد». لا ريب أنه كان وصفاً في محلّه تماماً في تلك المرحلة من حياتك: فتى عنيد غير متعاون.

٩- «وست وان سيفينث ستريت٢٦٢؛ مانهاتن». مرة أخرى شقة مؤلفة من غرفتين ومطبخ مع «قعدة». لكنها لم تكن غريبة الشكل كسابقاتها: غرفة كبيرة وغرفة أصغر إلى حدّ ما، ومع ذلك كانت الغرفة الصغيرة كافية ولا تشبه أبداً الغرف الضيقة جداً في الشقق السابقة التي كانت كالقبر من حيث المساحة. الطبقة العلوية في مبنى مؤلف من تسع طبقات واقع بين «برودواي» و«جادة أمستردام»، أي إنّ نور الشمس نفذ إليها أكثر من الشقق الأخرى في «نيويورك»، برغم كون نوعية بنائها رديئة مقارنة بالشقة السابقة حيث اعتاد «آرثر» الرجل البدين المفتول العضلات والمرح القيام بأعمال الصيانة بطريقة عشوائية وببطء شديد. من الثانية والعشرين حتى ما قبل عيد ميلادك الرابع والعشرين بأسبوعين، أي في المجموع سنة ونصف سنة. أقمت في هذه الشقة مع صاحبتك، وكانت تجربتكما الأولى في العيش مع شخص من الجنس الآخر من دون زواج. في سنتكما الأولى معاً كانت هي تكمل شهادة الليسانس في كلية «برنارد» وكنت طالباً متخرجاً تدرس منهاج الدكتوراه المقرّر في الأدب المقارن في جامعة «كولومبيا». لكنك أضمرت في نفسك الانتظار حتى يحين الوقت المناسب لهجر الدراسة لأنك علمت منذ البداية أنك لن «تصمد» أكثر من سنة واحدة. إلا أن إدارة الجامعة قدّمت لك منحة جامعية ومعاشاً. وهكذا انكببت على إعداد رسالة الماجيستير التي تحوّلت إلى مقالة مؤلفة من ستين صفحة تدعى «فن الجوع» (بحثت في دراستك هذه مؤلفات لكل من

«همسون»[1] و«كافكا» و«سيلين» و«بيكيت»، وتبادلت الآراء مع مرشدك، إدوارد سعيد، وحضرت عدداً من الحلقات الدراسية الإلزامية وتغيبت عن المحاضرات ومضيت تكتب رواياتك الخيالية وأشعارك وقد بدأت تنشر بعضاً منها في مجلّات محددة الانتشار. وعندما انتهى العام الدراسي أوقفت دراستك كما خطّطت واستقلت من حياتك الطالبية إلى الأبد وانطلقت للعمل على متن ناقلة نفط تابعة لشركة «إسّو» كانت تقوم برحلات مكوكية بين معامل تكرير متنوعة ومتعدّدة في خليج مكسيكو وعلى طول الحد الساحلي للمحيط الأطلسي: وظيفة لقاء أجر جزل كنت تأمل أن يوفّر لك المال الكافي للإيفاء بتكاليف انتقالك الموقت إلى باريس. وفّقت صاحبتك في العثور على إحداهن للمشاركة في التكفّل بمصاريف الشقة في خلال الأشهر التي غبت فيها: شابة بيضاء حادة الذهن وطلقة اللسان كسبت رزقها من خلال الادّعاء بأنها «منسّقة أغان» سوداء في محطة إذاعية يقتصر فيها العمل على السود. ومن الظاهر أنها لاقت نجاحاً كبيراً، ورأيت أن الأمر مُسلٍ جدا؛ لكن كيف لا تنظر إليه بصفته سمة أخرى من سمات ذلك الزمن، مثالا آخر على منطق المجانين المهيمن على الواقع الأميركي؟ بالنسبة إليك وإلى صاحبتك، تبيّن أنّ تجربتكما في المساكنة كان مآلها خيبة الأمل. وبعد عودتك في إثر انتهاء فترة عملك المحدّدة في الأسطول التجاري والمباشرة في الاستعداد للسفر إلى باريس، حسمتما المسألة بالاتفاق على أن الحب الرومنسي بينكما قد استنفد ولم يعد جديراً بالاعتبار وبأنك ستسافر وحدك. ذات ليلة قبل أوان سفرك المحدّد،

(١) روائي وشاعر وكاتب مسرحي نروجي يعتبر أبرز زعماء الثورة الرومنتيكية المحدثة في الأدب النروجي. (المترجمة)

ثارت معدتك عليك وانتابتك نوبات ألم مبرّح كأنها سكاكين تمزّق أحشاءك: كم كانت نوبات ألم موجعة في هجماتها، ولا هي خفّت فيما كنت تتلوى من شدة الألم على السرير؛ شعرت وكأنما «تعشيت» طبقاً كبيراً من الأسلاك الشائكة. السبب المعقول الوحيد لتلك الآلام هو انفجار الزائدة، وحسبت أنه لا بدّ أن تجرى لك عملية جراحية تواً. كانت الساعة الثانية صباحاً. ذهبت متلوياً من الألم إلى غرفة الطوارئ في مستشفى «سانت لوك» (St. Luke). لا تعرف كيف تحمّلت الألم بأقصى درجاته وأنت تنتظر ساعة أو ساعتين. وبعدها عندما عاينك الطبيب أخيراً قال لك بلهجة الواثق إنه لم يكن ثمة خطب في الزائدة وما أصابك هو التهاب قوي ومفاجئ في المعدة. قال لك: «تناول هذه الأقراص وتجنّب المأكولات الحارّة وسوف تشعر بتحسّن شيئاً فشيئاً». أصاب في تشخيصه وفي ظنّه. لم تفهم ماذا جرى لك في تلك الليلة إلا لاحقاً، أي بعد سنوات عديدة. كنت خائفاً، ولكن من دون أن تعرف أنّك خائف. لقد بلبلتك فكرة اجتثاث جذورك، وأثارت فيك حالة من القلق الزائد والمكبوت تماماً. ولا شك أن فكرة الانفصال عن صاحبتك قد أزعجتك أكثر مما تصوّرت. أردت الذهاب إلى «باريس» وحدك، ولكنّ جزءاً منك هاله هذا التغيير الجذري، ولهذا أصيبت معدتك بالخلل ومزّقتك إرباً إرباً. لطالما كانت هذه قصة حياتك: كلما تصل إلى مفترق طريق ينهار جسدك، لأن جسدك لطالما علم ما يجهله عقلك، وبغض النظر عن الطريقة التي يختارها للانهيار، سواء أكانت كثرة الوحيدات أم التهاب المعدة أم نوبات الذعر، فإن جسدك هو الذي يتحمّل دائماً العبء الأكبر من مخاوفك ومعاركك الداخلية، متلقياً الضربات التي لا يقوى أو لن يقوى عقلك على مواجهتها.

١٠- «جادة جاك ماواس ٣، الدائرة ١٥، باريس». شقة أخرى

مؤلفة من غرفتين مع مطبخ له «قعدة» في الطبقة الثالثة من عمارة مؤلفة من ست طبقات. العمر: أربعة وعشرون عاماً. لم يكن قد مضى على وصولك إلى باريس (٢٤ شباط/فبراير، ١٩٧١) وقت طويل حتى بدأت تراجع حساباتك حيال الانفصال عن صاحبتك. كتبت لها رسالة سألتها فيها إن كانت تملك الشجاعة لترميم العلاقة، وعندما قالت: «نعم»، استمرّ المدّ والجزر في علاقتك بها: سعادة وحزن، انفصال ووصال، صعود ونزول. كانت ستنضم إليك في باريس في مطلع نيسان/ أبريل، قبل عودتها رحت تبحث عن شقة مفروشة (كسبت مبلغاً «لا بأس به» من عملك في السفينة التجارية ولكن لم يكن كافياً لشراء فرش شقة)، وسرعان ما عثرت على البيت في جادة «جاك ماواس» الذي كان نظيفاً، ومنوّراً وليس غالياً جداً ومزوداً ببيانو أيضاً. بما أنّ صاحبتك كانت عازفة بيانو بارعة وكرّست بعض أوقاتها للعزف على هذه الآلة الموسيقية («باخ» و«موزار» و«شوبرت» و«بيتهوفن») حجزت الشقة فوراً، عارفاً تمام المعرفة إلى أي مدى ستكون مسرورة بخبطة الحظ هذه: لا ليس «باريس» فقط، بل «باريس زائد بيانو». انتقلت إلى الشقة؛ وحالما أكملت فرشها بالمستلزمات الضرورية (من كسوة فراش وقدور وأوان للقلي وصحون ومناشف وأوان فضية)، رتّبت موعداً مع أحدهم للمجيء والقيام بدوزنة البيانو الذي لم تلمسه يد منذ عهد بعيد. حضر رجل كفيف في اليوم التالي (نادراً ما التقيت مدوزن بيانو مبصراً): رجل بدين في الخمسين من العمر تقريباً، ذو وجه أبيض كالعجين وعينان تدوران في محجريهما. باعتقادك كان منظره غريباً ولكن ليس بسبب العينين فقط: بشرته أيضاً، البشرة الشاحبة المنتفخة مثل الطابة التي بدت رخوة وطرية وكأنما كان يقيم في مكان ما تحت الأرض حال دون وصول النور إلى وجهه. جاء وبصحبته شاب في

الثامنة عشرة أو العشرين ليمسك بذراعه ويقوده من الباب الأمامي تجاه الآلة الموسيقية في الغرفة الخلفية. لم ينطق الشاب بكلمة واحدة منذ لحظة دخولهما الشقة إلى خروجهما منها، ولذلك لم تقدر أن تعرف ما نوع القرابة بينهما وما إذا كان الشاب أحد أبنائه أو أحد أبناء إخوته أو أحد أولاد عمومته أو أحد الأجراء المساعدين. لكن المدوزن أكثر من الكلام، وبعد الانتهاء من عمله توقف برهة ليدردش معك، فقال: «هذه هي جادة جاك ماواس في الدائرة ١٥. هذا الشارع صغير جداً أليس كذلك؟ العمارات فيه قليلة جداً إذا لم أكن مخطئاً». قلت له إن ما قاله صحيح فالشارع كان صغيراً جداً بالفعل. تابع قائلاً: «هو أمر غريب، ولكن يصادف أنني أقمت هنا في سنوات الحرب. كان مكاناً ملائماً للعيش حينئذ». سألت: «لماذا؟». أجاب: «لأن عدداً من الإسرائيليين تعوّدوا الإقامة في هذا الحي قبلاً، ولكن عند بداية الحرب رحلوا». في البدء لم تفهم مراده أو أنك لم تشأ أن تصدّقه. ربما أجفلتك كلمة إسرائيلي بعض الشيء ولكن بسبب إلمامك الجيد بالفرنسية فطنت إلى أن الكلمة كانت أحد المرادفات لكلمة «يهودي»، أقله بالنسبة إلى جيل الحرب، مع أنها بحكم خبرتك لطالما حملت في طياتها نبرة ازدرائية: هو ليس إعلاناً صريحاً ومباشراً بمعاداة السامية بقدر كونه وسيلة للتعبير عن الفصل بين اليهود والفرنسيين، وعن جعلهم [اليهود] فئة أجنبية دخيلة: ذلك الشعب الغريب الغامض والقديم الآتي من الصحراء بعاداته الغريبة وإلهه البدائي المتشبع بروح الانتقام. ما سمعته كان مزعجاً بما فيه الكفاية لكن تتمّة الجملة فاحت منها رائحة الجهل والإنكار المتعمّد الكريهة بحيث لم تكن متيقناً إذا كان الرجل الذي كنت تتكلم معه أكبر مغفّل في العالم أو أحد المتعاونين السابقين مع

حكومة «فيشي»[١]: «رحلوا». لا شك أنهم رحلوا في جولة بحرية مترفة حول العالم، وقضوا عطلة على مدى خمسة أعوام متتالية وهم يتنعمون بشمس «المتوسط» ويلعبون التنس في «فلوريدا كيز» ويرقصون على شواطئ أوستراليا. تمنّيت أن يرحل الرجل الكفيف وأن يغرب عن وجهك بأسرع ما يمكن، لكن وفيما كنت تناوله أجرته لم تقاوم رغبتك في توجيه سؤال واحد وأخير له، فقلت: «آه... وإلى أين ذهبوا عندما رحلوا؟». تريّث مدوزن البيانو في الردّ كأنما يبحث عن جواب لسؤالك، وعندما لم يعثر عليه ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، ابتسامة المعتذر وقال: «ليس لدي أدنى فكرة، ولكن لم يرجع معظمهم». هذا كان أول درس، من بين دروس أخرى متعددة تلقيتها في ذلك المبنى وعلّمتك من طريق التكرار شيئاً عن طرائق الفرنسيين في التعامل مع الغير. الدرس الثاني كان عنوانه «حرب المواسير» الذي سجلت بدايته بعد أسبوعين. لم تكن شبكة مواسير المياه الموجودة في شقتك حديثة، كما كان ثمة عطل في سلسلة شد سلطانية المرحاض وخزان الماء العلوي. فكلما شددت «السيفون» في المرحاض كانت تتحرك المياه وقتاً ليس بقصير محدثة صوتا قويا. لم تبالِ بهذا الأمر، فالمياه الجارية في المرحاض لم تمثل لك مصدرا كبيرا للإزعاج، ولكن بدا أنها خلقت بلبلة كبيرة في الشقة «السفلية»: الصوت الهادر الناتج من سحب الماء بأقصى سرعة ممكنة. لم تكن دارياً بكل هذا إلى أن دُسّت لك رسالة من تحت الباب ذات يوم، مرسلة من جارتك في الشقة «السفلية» وبالتحديد سيدة تدعى «مدام روبنشتاين» (كم كان مدوزن البيانو سيصدم لو أنه علم بأن مكان سكنه أيام الحرب لم يزل يؤوي بعض الإسرائيليين الذين لم يندثروا)؛ رسالة

(١) حكومة تعاونت مع المحور وعرفت بحكومة «فيشي». (المترجمة)

تنم عن سخط صاحبتها وتذمرها بسبب الضجة التي لا تحتمل الآتية من الحمّام في منتصف الليل، مبلغة إياك أنها قد بعثت إلى مالك المبنى في «أرّاس» شكوى خطية حكت له فيها عن سلوكك غير اللائق، وهددت باللجوء إلى الشرطة في حال لم يتخذ بحقك الإجراءات اللازمة القاضية بإخلائك الجبري. دهشت لحدة نبرتها العدائية وصعقت لأنها لم تزعج نفسها وتطرق بابك وتبحث في المشكلة معك شخصياً (وهذه كانت الطريقة المعتادة لحل الخلافات بين المستأجرين في المباني الشققية في «نيويورك»)، ولكن بدلاً من ذلك اتصلت بالسلطات العليا من دون علمك. هذه هي الطريقة الفرنسية في معالجة الأمور التي هي بخلاف الطريقة الأميركية: إيمان مطلق بالتسلسل الهرمي للسلطة، إيمان لا يرقى إليه الشك بقنوات البيروقراطية لتصويب الأخطاء وتصحيح الأوضاع الخاطئة ولو قامت على أتفه الأسباب. لم يسبق لك أن التقيت هذه المرأة ولم تملك أدنى فكرة عن شكلها، وها هي تهاجمك وترميك بأقذع الإهانات وتعلن عليك الحرب من أجل مسألة غابت عن انتباهك حتى أتتك الرسالة. لكي تتحاشى ما افترضت أن تؤول أمورك إليه، أي الإخلاء الإجباري الفوري، كتبت رسالة إلى مالك المبنى شارحاً فيها موقفك حيال ما جرى وواعداً إياه بإصلاح المرحاض المعطّل، وردّاً عليها تلقيت رسالة مرحة، ودودة لم ترد فيها كلمة مثبطة واحدة: لا بد أن يكون للشباب زمنه. عِشْ ودع غيرك يَعِشْ، لا مكان للقلق وانشغال البال، ولكن لا تكثر من الاستخدام الخارجي للماء فحسب، اتفقنا؟ (الفرنسيون البغيضون الشرسون في مقابل الفرنسيين الطيبين والسمحاء. في خلال الثلاث سنوات ونصف السنة التي عشت فيها بينهم التقيت بعضاً من أبغض الشخصيات وأكثرها لؤماً على وجه الأرض. ولكنك في المقابل التقيت بعض رجال

ونساء لم تعرف شبيهاً لهم في الودّ والسماحة). حلّ السلام لبعض الحين. حتى ذلك الوقت لم تكن تعرف السيدة «روبنشتاين» شخصياً ولم ترَ لها وجهاً، لكن الشكاوى من الشقة «السفلية» توقفت. ثم وصلت صاحبتك من «نيويورك» وبدأت شقتك الهادئة الساكنة تضج بصوت عزفها على البيانو. ولأنك شغفت بالموسيقا أكثر من أي شيء آخر لم تتصوّر أنه في وسع أي إنسان الاعتراض على عزف الألحان الرائعة على البيانو المنبعثة من الطبقة الثالثة. بيد أنه ذات عصر يوم أحد متميّز بجمال طقسه في أواخر الربيع، وبينما كنت جالساً على الأريكة تستمع إلى عزف صاحبتك لمقطوعة «شوبرت» «لحظات موسيقية» (Moments Musicaux) تناهت فجأة أصوات هادرة ثائرة من الطبقة السفلية، هتافات زاعقة غاضبة. كان آل «روبنشتاين» يستضيفون في منزلهم زواراً، وكان الغاضبون يصيحون: «غير معقول! كفاية! الأمر لم يعد محتملاً!». وبعدما أخذ أحدهم يضرب بشدة على السقف الكائن تحت البيانو مباشرة بعصا مكنسة، وسمع صوت امرأة تصيح: «كفى! أوقفوا هذه الضجة اللعينة الآن!»، لم يعد الأمر محتملا بالنسبة إليك أيضاً؛ وعندما لم يسكت الصوت وظلّ الصراخ يعلو من الطبقة الثانية، اندفعت بقوة من شقتك ونزلت جرياً على الدرج إلى الطبقة الثانية، وأخذت تقرع باب آل «روبنشتاين» بقوة. لم تكد تمضي ثلاث ثوان حتى فتح الباب (لا شك أنهم سمعوا وقع قدميك). وقفت هناك وجهاً لوجه أمام السيدة «روبنشتاين» غير المرئية سابقاً والتي تبيّن أنها امرأة جذابة في منتصف الأربعينيات (لِمَ نفترض دائماً أن الشخص الفظ وغير اللطيف قبيح المنظر؟)، ومن دون مقدمات انطلقتما مباشرة في مباراة صراخ من النوع الثقيل. لم تكن شخصاً يثور وينفعل بسهولة، ولم تجد قبل ذلك صعوبة كبيرة في الحفاظ على هدوء

أعصابك والتحكم في مشاعرك وانفعالاتك. على العموم كنت معتاداً القيام بما أمكن لتجنب الدخول في جدال أو معارك كلامية، ولكن في ذلك اليوم بالذات خرجت عن طورك ولم تستطع ضبط أعصابك بسبب غضبك الشديد، ولأن غضبك جعلك تحلّق في لغتك الفرنسية إلى مستويات عالية لم تألفها من السرعة والدقة، تعادلتما في التفنن في المعارك الكلامية. موقفك الدفاعي: «لدينا الحق، كل الحق، في العزف على البيانو ليس عصر يوم الأحد فقط، بل في عصر أي يوم كان، وفي أي وقت من الأوقات: في أي يوم أو أسبوع أو شهر ما دام العزف ليس في آخر الليل أو في ساعات الصبح الأولى». في حين أن موقفها الدفاعي: «هذه أسرة بورجوازية محترمة. إذا كنت ترغب في العزف على البيانو فلتستأجر «استديو»؛ هذه أسرة بورجوازية صالحة، وهذا يعني أننا نلتزم القوانين ونتصرف بطريقة متمدّنة، الأصوات العالية ممنوعة؛ في شقتك كان يقيم السنة الماضية أحد مخبري الشرطة. عملنا على دفعه خارج العمارة لأنه لم يرجع إلى منزله في أوقات محددة أو مبكرة». هذه أسرة بورجوازية محتشمة تلتزم اللياقات الاجتماعية. ثمة بيانو في شقتنا ولكن هل نعزف عليه بالمطلق؟ بالطبع لا. بدت لك حججاً واهية، مجرّد لغو وتكرار للمعنى لا يزيده قوة الكلام المشبع بالكليشيهات والتصريحات المؤكّدة والمضحكة الجديرة بأن ينطق بها «السيد جوردان»، أحد شخوص «موليير»، لكنها نطقت بتلك الكلمات الرنّانة بشيء كبير من الغضب الشديد والعنف البالغ وبلهجة الواثق الذي ينفث حقداً وكراهية، بحيث لم تسمح حالتك النفسية بأن تضحك. بقي كل منكما على موقفه ولم يحقق حوار الطرشان هذا شيئاً يذكر: لم يرجع أحدكما عن رأيه وكنتما تبنيان جداراً من العداوة والبغضاء يفصل بينكما إلى ما شاء اللّه. وعندما تخيّلت كم سيكون

المستقبل مريراً إذا استمررتما على ما كنتما عليه اتخذت قراراً بحسم المسألة وقلت في نفسك إن اللحظة قد حانت لتحويل الدفة والعمل على إنجاح الحوار وتحويل مساره إلى وجهة مختلفة تماماً. فقلت: «يا له من أمر مؤسف ومحزن جداً. أيعقل أن يتحارب يهوديان على هذا النحو؟ فكري يا سيدة «روبنشتاين» في كل هذا العذاب والضنى وكل مشاهد الموت هذه وكل الفظائع التي تعرّض لها شعبنا. انظري إلينا نحن الاثنين، كل منا يصرخ في وجه الآخر بسبب أمور تافهة. يجب أن يخجل كل منا من نفسه». مرّت الحيلة عليها كما أملت. ما قلته نفذ إلى داخلها؛ أسلوبك في الكلام أقنعها. وفجأة انتهت المعركة. منذ ذلك اليوم توقفت السيدة «روبنشتاين» عن معاداتك. فكلما رأيتها في الشارع أو عند البوابة ابتسمت لك وخاطبتك بالقول، كما تستدعي السلوكيات الاجتماعية اللائقة في مثل هذه اللقاءات: «صباح الخير سيدي». وبادلتها التحية بمثلها بتهذيب وبابتسامة مشرقة: «صباح الخير سيدتي». هكذا كان أسلوب العيش في فرنسا: ترى الناس يقحمون أنفسهم بحكم العادة لمجرّد الاستمتاع بإقحام أنفسهم، ويمضون في هذا الأمر حتى تظهر لهم أنك راغب في مبادلتهم هذه العادة وبهذا تكتسب ودّهم واحترامهم. أضف إلى ذلك أنك أنت والسيدة «روبنشتاين» يجمعكما انتماؤكما إلى الطائفة اليهودية: كلاكما يهودي. لم يكن من داعٍ للتشاجر ثانية مهما كانت عدد المرّات التي عزفت فيها صاحبتك على البيانو. شعرت بالقرف والاشمئزاز لأنك قبلت اللجوء إلى مثل هذا الأسلوب الماكر، لكن ورقتك الرابحة وحجتّك الأقوى نفعتا واشتريت بهما راحتك طوال فترة إقامتك المتبقية في جادة «جاك ماواس».

١١- «جادة اللوفر ٢؛ الدائرة الأولى، باريس». غرفة خادمة في

الطبقة العلوية لعمارة مؤلفة من ست طبقات قبالة نهر «السين». العمر: خمس وعشرون سنة. غرفتك كانت واقعة في الجهة الخلفية؛ وما اعتدت مشاهدته كلما نظرت من النافذة هو تمثال غريب ناتئ من برج جرس الكنيسة المجاورة: «كنيسة سان جرمان أوكسير»، الكنيسة ذاتها التي دقت أجراسها من دون انقطاع في ٢٤ آب/أغسطس عام ١٥٧٢، معلنة نبأ مصرع «سان بارثولوميو» في ذلك اليوم. على يسارك استطعت مشاهدة «اللوفر»، وعلى يمينك اعتدت مشاهدة السوق، ومن بعيد، أي على الطرف الشمالي لمدينة «باريس»، لاحت قبة «مونمارتر». كان هذا أصغر مكان أقمت فيه في حياتك: غرفة صغيرة إلى حدّ أنها لم تتسع سوى لما قلّ ودلّ من الضروريات: سرير ضيق ومكتب متناهٍ في الصغر وكرسي مستقيم الظهر ومجلى وكرسي آخر مستقيم الظهر إلى جانب السرير حيث احتفظت باللوحة الكهربائية الحارقة والركوة الوحيدة التي امتلكتها، والتي كنت تستعملها لتسخين الماء لصنع القهوة الفورية والبيض المسلوق. أما المرحاض فكان يقع في آخر الرواق من دون «دش» أو مغطس. سكنت هناك لتعسّر حالتك المادية، والغرفة قدمت لك مجاناً. محسنان كريمان أسديا لك هذا المعروف: صديقاك جاك وكريستين «دوبين» (أفضل الأصدقاء وألطفهم، ليتبارك هذان الاسمان إلى الأبد). كانا يشغلان شقة كبيرة في الطبقة الثانية، ولأن هذا المبنى شيّد في الحقبة التي درجت فيها العمارات المتبعة بغرف علوية أو «سطوح»، فقد ألحقت شقتهما بغرفة زائدة للخادمة في الطبقة العلوية. عشت بمفردك. مرّة ثانية أخفقت أنت وصاحبتك في إنجاح العلاقة، ومرّة ثانية انفصلتما. حينئذٍ حطّت الرحال في غربي إيرلندا حيث سكنت في أحد الأكواخ التي يستخدم فيها الخُثّ للتدفئة، على بعد أميال قليلة من «سليغو». وكان يقاسمها العيش فيه

صديقة من أيام المدرسة الثانوية. بالرغم من ذهابك إلى «إيرلندا ذات مرّة طامعاً في استهوائها من جديد، لم تفلح في مسعاك النبيل لأن قلبها قد انشغل بحب شاب إيرلندي، وتزامنت زيارتك مع بداية علاقتهما الغرامية (التي أخفقت أيضاً في آخر الأمر)، ما يعني أنك قمت بالزيارة في الوقت غير المناسب؛ وغادرت تلال «سليغو» الخضراء التي كانت تعصف بها الرياح، وأنت تتساءل عمّ إذا كنت ستراها ثانية».

رجعت إلى غرفتك وإلى جوّها الموحي بالوحشة والوحدة القاتلة، إلى أصغر الغرف الصغيرة التي دفعتك في بعض الأحيان خارجاً بحثاً عن المومسات. إلا أنه من الخطأ القول إنك لم تشعر بالسعادة في هذا المكان، إذ لم تلق صعوبة في التأقلم مع انخفاض مستوى معيشتك، وشعرت بالدافع والقوة لدى اكتشافك أنه بمقدورك مواصلة العيش وتدبّر أمورك برغم أحوالك المادية المعدومة: طالما كنت قادراً على الكتابة لم يهمّك أين كنت تعيش وكيف. يوماً تلو الآخر وطوال الشهور التي مكثت فيها هناك، داوم عمال بناء على العمل في الجهة المقابلة تماماً للمبنى الذي كنت تسكنه. كانوا يشقون طريق مرأب تحت الأرض لركن السيارات، إلى عمق أربع أو خمس طبقات. وفي المساء وكلما اتجهت إلى النافذة وتطلعت إلى بقعة الأرض المحفورة وإلى الحفرة الهائلة الممتدة في الأرض من تحتك، اعتدت رؤية جرذان، مئات من الجرذان اللزجة البرّاقة تتكاثر في الأوحال.

١٢ - «جادة ديكارت ٢٩؛ الدائرة الخامسة، باريس». شقة أخرى مؤلفة من غرفتين ومطبخ مع «قعدة»، في الطبقة الرابعة من مبنى مكوّن من ست طبقات. العمر: ست وعشرون سنة. عدد من الوظائف المستقلة لقاء أجور محترمة، ما انتشلك من حالة الفقر المدقع التي كنت تعيشها. ها قد تحسّنت أحوالك المالية بحيث أصبح بإمكانك توقيع

عقد لاستئجار شقة أخرى. كما أن صاحبتك قد عادت من «سليغو» ولم يعد الشاب الإيرلندي في الصورة، ومرة أخرى قررتما استئناف علاقتكما وخوض تجربة العيش معاً ثانية. هذه المرة مرّت الأمور بسلام إلى حدّ ما، وإن لم تخل من بعض المطبات، ولكن من دون خضات قوية كما جرى سابقاً، ولم يهدد أحدكما بهجر الآخر. من المؤكّد أنّ تلك الشقة كانت مبهجة أكثرمن مساكنك الأخرى في باريس. حتى حاجبة المبنى اتصفت باللطف والدماثة (شابة حلوة بشعرها الأشقر القصير كانت متزوجة شرطياً، ولم تفارق الابتسامة ثغرها ولم يبارح الكلام الدافئ شفتيها، خلافاً للعجائز المتطفلات والرديئات الطباع اللواتي كنّ مسؤولات عادة عن مباني الشقق المفروشة). أضف أنك سررت بالإقامة في هذه الناحية من المدينة، أي في وسط الحي اللاتيني العريق، بمحاذاة التلة، بدءاً بالمكان الذي يدعى «دو لا كونتر سكارب»، بمقاهي أرصفته ومطاعمه وسوقه المسرحية المفتوحة التي تضجّ بالحياة وبالحركة. إلا أنّ الأعمال الحرّة الجيدة التي عرضت عليك قبل سنة أصابها ركود تام، وأخذت مواردك المالية تتناقص مرّة أخرى. حسبت أنه سيكون بمقدورك أن تصمد حتى نهاية الصيف، وأنه سيتحتم، عليك حينئذٍ أن توضب أغراضك وتعود إلى «نيويورك». ولكن في اللحظة الأخيرة تمدّدت إقامتك في فرنسا على نحو غير متوقّع.

١٣- «سان مارتان، مواساك - بيلفو، فار». بيت مزرعة في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا، أي في إقليم «بروفانس». طبقتان، وجدران حجرية سميكة جداً وسقف من القرميد الأحمر ومصاريع (نوافذ) وأبواب خضراء غامقة اللون، حولها عدة فدادين من حقول، وتحدها

من جانب واحد غابة قومية[1] وطريق ترابي من الجانب الآخر: مكان ناء معزول. وقد حفرت على أحد حجارة البناء فوق الباب الأمامي الكلمتان (L'An VI) أي «السنة السادسة». قدّرت بأن هذا يعني عام الثورة السادس، ما يدلّ على أن البيت قد بني في العام ١٧٩٤ أو ١٧٩٥. من السادسة والعشرين إلى السابعة والعشرين. أمضيت أنت وصاحبتك تسعة أشهر بصفتيكما مشرفين على أعمال تلك الأملاك النائية الواقعة في جنوب البلاد، وعشتما هناك منذ مطلع أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٣ حتى أواخر أيار/مايو عام ١٩٧٤. ومع أنك كتبت سابقاً عن بعض الأمور التي حدثت لك في ذلك البيت («دفتر اليوميات الأحمر» (The Red Notebook) قصة رقم ٢)، إلا أن ثمة الكثير مما لم تقله في الصفحات الخمس تلك. حين تفكّر الآن في الوقت الذي قضيته في ذلك الجزء من العالم، أول ما تستعيده ذاكرتك هو الهواء ورائحة الصعتر والخزامى المتصاعدة حولك كلما تمشيت في الحقول المتاخمة للبيت؛ والهواء العابق، والشديد وقت هبوب الريح، المتراخي كلما نزلت الشمس في الوادي وخرجت السحليات والسمادر زاحفة من الشقوق في الصخور لتتكاسل في الحر؛ ثم جفاف الأرض وصلابتها والصخور الرمادية المتوهجة والتربة الحمراء على طول بعض الدروب وعلى امتداد الطريق، والخنافس السوداء في الغابة وهي تدفع كرات روثها الضخمة، والعقائق[2]. وهي تنقضّ على الحقول والكروم المجاورة، وقطعان الخراف وهي تعبر المرج الذي لم يبعد كثيراً عن البيت، والظهور الفجائي للخراف، مئات من الخراف تندفع معاً وتتقدم إلى الأمام بالترافق مع رنين أجراسها، وشدة الرياح الشمالية العنيفة

(١) غابة كبيرة مصونة بموجب قرار حكومي من الاستثمار الشخصي. (المترجمة)

(٢) غربان طويلة الذيل. (المترجمة)

الباردة، والعواصف التي كانت تدوم اثنتين وسبعين ساعة متواصلة بحيث لم يبق شبّاك أو مصراع أو باب أو قرميد «فالت» من البيت إلا رجّته؛ والوزّال الأصفر الذي افترش منحدرات التلال في الربيع، وأشجار اللوز المثمرة، وشجيرات إكليل الجبل؛ وأشجار البلوط الحي القصيرة والمتوقفة عن النمو بجذوعها الكثيرة العقد وأوراقها المتلألئة؛ والشتاء ببرده القارس الذي اضطرك إلى إقفال الطبقة الثانية والإقامة في الغرف السفلية الثلاث متلمساً الدفء من السخّان الكهربائي في إحداها ومن نار الحطب في غرفة أخرى؛ وآثار كنيسة صغيرة على جرف مجاور حيث اعتاد فرسان الهيكل التوقف وهم في طريقهم للمشاركة في الحروب الصليبية؛ و«الشواش» الصادر عن جهاز راديو الترانزستور الضعيف الإرسال الذي كنت تملكه، في منتصف الليل على مدى أسبوعين متتاليين وأنت تحاول جاهداً الاستماع إلى النقل المباشر لمباريات الاتحاد القومي الذي كانت تقوم به القوات المسلحة الأميركية من «فرانكفورت». كانتا مباراتين فاصلتين بين فريقي «ميتس» و«سينسيناتي»، وبين «ميتس» و«أوكلاند» حسب «الترتيب التسلسلي العالمي»؛ ثم هناك عاصفة البرد التي كنت تفكر فيها لأيام خلت، والكرات الثلجية التي كانت تدق بعنف السقف المصنوع من الطين المحروق وتذوب على العشب المحيط بالبيت. ربما لا تماثل كرات البيسبول في كبر حجمها بل كرات غولف يلعب بها رجال يبلغ طول الواحد منهم تسع أقدام؛ وأتبعت بالمرة الوحيدة التي سقط الثلج فيها، وكل شيء غدا أبيض في لحظات، وجارك الأقرب الذي كان أحد المزارعين المستأجرين العازبين، يعيش وحده مع كلب لونه لون «الترافل» في بيت أصفر على وشك السقوط، ويحلم بثورة عالمية، والرعيان يتناولون المشروب في حانة «مواساك

بيلفو» في أعلى التلة، أيديهم ووجوههم «مسودّة» من الوسخ: أوسخ رجال رأتهم عيناك؛ والجميع يشدد على حرف «الراء» في الكلام وهي طريقة في الهجاء دارجة في جنوب فرنسا؛ وحرف «غ» (g) المضاف، بحيث صارت كلمتا خمر وخبز بالفرنسية «فان» و«بان» (Pain و Vin) تلفظان «فانغ» و«بانغ» (Paing و Vaing)؛ وحرف «السين» (s) الذي لا يلفظ في كل الأماكن الأخرى في فرنسا لا يزال يلفظ من قبل «أهل بروفانس»، محيين بذلك أصولهم البروفنسية؛ بذلك تتحوّل كلمة «etrangers» [أي أجانب] إلى «estrangers» بلفظ حرف (s). وفي جميع أنحاء المنطقة تقرأ الشعار «أرض حرة!» (Occitanie Libre!) على الصخور والجدران لأن هذه كانت أرض الـ «أوسي» (oc) وليس الـ «وي» (Oui) في العصور الوسطى. و..نعم.. كنت أنت وصاحبتك «أجنبيين» (estrangers) كما كان يقول أهل «بروفانس» في ذلك العام. ولكن كم كانت العيشة هانئة رضية في هذه الأنحاء من البلاد مقارنة بالرسميات الجوفاء والباردة في «باريس» وحدّة طباع أهلها.

لم عاملك الناس بودّ وبدفء في خلال إقامتك في الجنوب بمن فيهم الزوجان البورجوازيان الضيقا الأفق وصاحبا الاسم المتعذر حفظه «آسييه دو بومبينيون»، فقد اعتادا دعوتك بين الفينة والأخرى إلى بيتهما، الكائن في قرية «ريغوس» المجاورة، لمشاهدة الأفلام على التلفزيون؛ وفضلاً عن ذلك الأشخاص الذين وثّقت معرفتك بهم في «اوبس»، أي على مسافة سبعة كيلومترات من بيتك، إلى حيث كنت تذهب مرّتين أسبوعياً للتسوق. بلدة بلغ عدد سكانها ثلاثة أو أربعة آلاف نسمة وقد كان يشعر المرء فيها وكأنه في مدينة كبيرة، فيما أشهر العزلة «مدّت» البقاء. وبما أنه لم يوجد سوى مقهيين رئيسيين في «أوبس»، مقهى حزب اليمين ومقهى حزب اليسار، رحت تتردّد إلى

المقهى الأخير حيث رحّب بك روّاد المقهى الدائمون من مزارعين وميكانيكيين متسخي الثياب كانوا إما اشتراكيين وإما شيوعيين، ومن سكان المنطقة المشاكسين الثرثارين الذين زاد تعلّقهم بالغريبيْن الأميركيين الشابين أو حسب لغتهم (American estrangers). كما تذكر مجالستهم في تلك الحانة فيما الجميع يشاهد التقارير الإخبارية عن نتائج الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٧٤ على شاشة التلفزيون، والحملة الرئاسية التي كان يخوضها كل من «جيسكار ديستان» و«فرنسوا ميتران» في إثر وفاة «جورج بومبيدو». تستعيد الآن أجواء المرح الصاخب ومشاعر خيبة الأمل القصوى في تلك الأمسية. ساد المرح الصاخب وأسرف الجميع في الشرب؛ كان الجميع يثمل ويتلفّظ بالشتائم، ولكن هناك في «أوبس» أيضاً كان صديقك ابن اللحام، يناهزك في العمر ويعمل في دكان والده، ومهيأ لتسلم الدكان مكانه، إلا أنه في الوقت ذاته كان مصوّراً من الطراز الأول. أمضى تلك السنة وهو يصوّر شريطاً وثائقياً عن إخلاء قرية صغيرة وتدميرها، سبق أن وُضعت بشأنها خطة مبرمجة زمنياً لغمرها من أجل إقامة أحد السدود مكانها. ابن اللّحام بصوره الفاجعة التي تسحق القلب، والسكارى في حانة الجناحين الاشتراكي والشيوعي؛ وهناك أيضاً طبيب الأسنان في «دراغينيان»، الرجل الذي وجب على صاحبتك زيارته غير مرّة بسبب العملية المعقدة التي أجراها لها في تجويف اللب الواقع في جذر إحدى أسنانها، وكل الساعات العديدة التي قضتها على كرسيه، وعندما أنجز العمل أخيراً وأعطاها الفاتورة تبيّن أن المال كله الواجب دفعه هو ثلاثمئة فرنك فقط (أي ستون دولاراً): مبلغ قليل جداً، غير متكافئ إطلاقاً مع ما استنفده من أجلها من وقت وجهد ولهذا استفهمته عن سبب تقاضيه ذلك الأجر الزهيد، فأجابها بتلويحة من يده وهزّة

كتف خفيفة فيها شيء من الحياء والخجل: «اصرفي النظر عن هذا الأمر، فقد كنت سابقاً شاباً صغيراً مثلك».

١٤- «ريفرسايد درايف ٤٥٦»؛ في منتصف الصف الطويل من البيوت والمحال المتلاصقة بين «وست وان سيكستينث» ستريت و«وست وان ناينتينث» ستريت، «مانهاتن». غرفتان وبينهما مطبخ برفع شفرة الحلاقة؛ السقيفة الشمالية أو الطبقة العاشرة من مبنى مؤلف من تسع طبقات، مطلّ على نهر «هدسون». كلمة سقيفة شكّلت مصطلحاً مضلّلاً في هذه الحال بما أن شقتك والسقيفة الجنوبية إلى جانبها لم يكونا جزءاً أساسياً من المبنى الذي أقمت فيه. كان هذان البناءان التابعان للمبنيين الشمالي والجنوبي واقعين داخل بيت مستقل قائم بذاته خفيض السقف، صغير مؤلف من طبقة واحدة صنع من الجص الأبيض، رابض على سطح المبنى الرئيس مثل كوخ فلاح نقل بصورة تتناقض ومحيطه الطبيعي من الشارع الخلفي لإحدى القرى المكسيكية. من السابعة والعشرين إلى التاسعة والعشرين. المكان في الداخل كان ضيقاً بالكاد يتسع لشخصين (كنت وصاحبتك لا تزالان معاً). لم يكن ثمة خيار آخر لندرة الشقق المتاحة للإنسان العادي في «نيويورك»؛ وبعد غياب دام ثلاثة أعوام ونصف العام في الخارج عدت وأمضيت أكثر من شهر تبحث عن أي مكان للإقامة فيه، وشعرت بأنك محظوظ، لحطّ رحلك في هذا المكان الجيّد التهوئة وإن كان ضيّق المساحة ومحشوراً بالأغراض. ثمة عدة إيجابيات للعيش فيه: النور الساطع والأرضيات البرّاقة المصنوعة من الخشب الصلد والرياح العاتية التي كانت تعصف بنهر «هدسون» إضافة إلى النعمة التي كانت لكما دون غيركما المتمثّلة بسطيحة عريضة على شاكلة حرف «L» كادت تزيدُ على مساحة الشقة في الداخل. في موسم الحر خفّف

السطح من آثار الخوف المرضي من الأماكن المقفلة، ولم تملّ قط الخروج إلى السطح والتطلع إلى المنظر من الجهة الأمامية للمبنى: أشجار حديقة «ريفرسايد» و«ضريح غرانت» (Grant's Tomb) [١] من جهة اليمين، والمركبات المتحركة المنطلقة بسرعة ثابتة على امتداد «جادة هنري هدسون». وأجمل من كل ذلك النهر ومشاهدة حركته التي لا تتوقف والأعداد الهائلة للزوارق والمراكب المبحرة على امتداد مياهه، والسفن المعدة لشحن البضائع والمراكب المستخدمة لقطر السفن والمراكب الكبيرة التي كانت تقام على متنها الرحلات والمهرجانات والاحتفالات الخاصة، واليخوت والزوارق القمرية[٢]، والسباقات اليومية للسفن الصناعية والمراكب الصغيرة للمتعة المنتشرة بكثافة في النهر الذي سرعان ما اكتشفت أنه عالم آخر، عالم متوازٍ جار إلى جانب رقعة الأرض التي كنت تسكنها، مدينة من ماء أبعد بقليل من نطاق مدينة الحجارة والتراب. اعتاد أحد الصقور الضالة أن يستقر قليلاً على السطح بين الحين والآخر، ولكن زوارك في غالبية الأحيان كانوا طيور النورس والغربان والزرازير. ذات عصر يوم من الأيام، حطّت حمامة حمراء خارج نافذتك (لونها قرنفلي ضارب إلى الصفرة ومبقّعة بالأبيض): فرخ مجروح، جسور في فضوله، وعيناه غريبتان بإطارهما الأحمر. وبعد أن قمت أنت وصاحبتك بإطعامه مدة أسبوع وأصبح قادراً على الطيران من جديد، عاود الرجوع إلى سطح شقتك كل يوم تقريباً طوال أشهر عديدة. تكرّرت زياراته إلى حدّ أنّ صاحبتك أعطته اسماً في النهاية: «جوي»؛ المقصود من هذا كله أن «جوي»، فرخ

(١) يوليسيس سيمبسون غرانت (١٨٢٢ - ١٨٨٥) الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأميركية دافع عن حقوق الزنوج المدنية. (المترجمة)

(٢) زوارق تجارية لرحلات المتعة. (المترجمة)

الحمام، قد صار في مصاف الطيور المدلّلة، رفيق خارجي شارككما في عنوانه حتى الصيف التالي حين رفرف بجناحيه للمرة الأخيرة وطار إلى الأبد. كنت تُشمّر عن ساعديك للعمل من الظهر حتى الخامسة عند تاجر كتب نادرة في شارع «إيست سيكستي ناينث». كنت تنظم الأشعار وتراجع الكتب وتتأقلم مجدداً وببطء مع العيش في أميركا في الوقت الذي كانت البلاد منشغلة بفضيحة «ووترغايت» وبالتحقيقات الأولية في هذه القضية وسقوط « ريتشارد نيكسون»، ما جعلها مختلفة بعض الشيء عن أميركا التي غادرتها قبل سنوات. في ٦ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٤، أي بعد حوالى شهرين من الانتقال إلى البيت الجديد، تزوجت صاحبتك رسمياً. أقمتما احتفالاً بسيطاً في شقتك، أتبع بحفلة أنس وسمر أقامها صديق كان يقطن في إحدى الشقق المجاورة الأكبر بكثير من شقتك. أخذاً في الاعتبار التغييرات العاطفية التي طرأت عليكما منذ البداية: الوصل والفصل الدائمان، العلاقات الغرامية مع أشخاص آخرين، الانفصالات وتسوية الخلافات المتعاقبة بانتظام كما تعاقب الفصول تماماً، يبدو لك أن التفكير في الإقدام على الزواج في تلك المرحلة بالذات كان ضرباً من الغباوة ونتيجة الوقوع في حبائل الأوهام. فأقلّه أنكما كنتما تقدمان على مجازفة كبيرة وتراهنان على تماسك صداقتكما وعلى خططكما الطموح المشتركة بصفتكما كاتبين للأخذ بالزواج إلى مسار مختلف عن تجربتكما السابقة معاً. لكنكما خسرتما الرهان، خسرتما أنتما الإثنين لأنه كان مقدراً عليكما الخسارة، ولهذا لم تتمكنا من البقاء متزوجين إلا أربع سنوات: تزوجتما في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٤ وتحرّرتما من الالتزام في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٨. تعاهدتما على العيش معاً عندما بلغتما السابعة والعشرين: ربما كنتما كبيرين كفاية من جهة معرفتكما بأمور الحياة وعدم الإقدام

على تلك الخطوة، ولكن في الوقت ذاته كنتما بعيدين كل البعد عن النضج الكامل، مراهقين بكل معنى الكلمة، والحقيقة القاسية تمثّلت بعدم امتلاكما الفرصة لإنجاح الزواج.

١٥- «جادة ديورانت ٢٢٣٠؛ بيركلي، كاليفورنيا. شقة مصغّرة [كافية ومؤثّثة عادة] (غرفتان ومطبخ صغير)، في مقابل ملعب كرة القدم المدرّج في الجامعة، على بعد خطوات من الحرم الجامعي. العمر: تسعة وعشرون عاماً. شعرت بالضجر وبنقمة على كل شيء من دون سبب محدّد، وبأن شقة «نيويورك» الصغيرة جداً قد أطبقت عليك وحاصرتك أكثر من أي وقت آخر. انتشلتك من هذه الحالة دفعة نقدية لا على البال ولا على الخاطر (منحة من مؤسسة «إنغرام ميريل»)، ما شرّع الباب أمام إمكانات وحلول أخرى لمشكلة السكن كيفياً ومكانياً؛ وبما أنك شعرت بأن الوقت قد حان لإعادة تنظيم أمورك، صعدت أنت وزوجتك الأولى إلى متن قطار في «نيويورك» وسافرتما إلى «شيكاغو» حيث ترجّلتما وركبتما قطاراً آخر واتجهتما إلى «الساحل الغربي» (West Coast)، مروراً بأراضي «نبراسكا» المستوية التي لا تنتهي، وجبال «روكي» وصحراء «أوتاه» و«نيفادا، وتوقفتما في «سان فرانسيسكو» بعد رحلة دامت ثلاثة أيام. كان ذلك في شهر نيسان/أبريل عام ١٩٧٦. الهدف هو اختبار العيش في «كاليفورنيا» لنصف سنة للتيقن من الرغبة في العيش فيها والانتقال إليها نهائياً. كان لديك عدة أصدقاء مقربين في تلك الناحية سبق أن زرتهم قبل سنة وغادرتهم وفي البال ذكرى طيبة وانطباع جيد. أما لماذا وقع اختيارك على«بيركلي» للعيش فيها وليس «سان فرانسيسكو» فلأن سعر الشقق كان أدنى، أضف أنك لم تملك سيارة وكان يسهل عليك أكثر تدبّر أمورك من دون سيارة في ذلك الجانب من خليج «سان فرانسيسكو».

لم تكن بالشقة الباهرة أو «الواو» بل صندوقاً واطئ السقف تفوح منه رائحة خفيفة من العفونة والعطن كلما أغلقت النوافذ. لكن وبرغم ذلك لم يكن مكاناً لا يطاق ولا مقفراً موحشاً يبعث على الكآبة. بيد أنك لا تتذكر شيئاً عن اتخاذ القرار بشأن استئجاره، لأنه لم يمض وقت طويل على وصولك إلى المدينة، أي في مطلع الأسبوع الأول، حين كنت تقيم موقتاً مع بعض الأصدقاء، حتى دعيت للمشاركة في لعبة الكرة الليّنة [تشبه لعبة البيسبول]، في الدور الثاني. عندما كان ظهرك موجّهاً إلى العدّاء فيما وقفت على مسافة بعيدة جيداً عن الخط الخلفي تنتظر رمية من أقصى الملعب، عمل العدّاء ما بوسعه لأن يرتطم بك من الخلف، فطرحك أرضاً بإعاقة تحركك على نحو مهلك (لعبة خاطئة). ولأنه كان ضخماً وأخذت على حين غرّة، «طقّ» رأسك بفعل الاصطدام قبل أن تقع على الأرض، ما تسبب بارتجاج قوي في الرقبة. (كان مهاجمك المعروف بروحه الرياضي العدائي الذي أطلق عليه غالباً لقب «الحيوان»، ذا ثقافة عالية. ظلّ يؤلف كتباً عن التصوير الزيتي الهولندي في القرن السابع عشر ويترجم عدداً من أعمال الشعراء الألمان. تبين أنه أحد الطلبة السابقين لأحد أساتذتك السابقين. رجل حاز إعجابكما أنتما الإثنان. وعندما علم «الحيوان» بهذه الصلة المشتركة بينكما عبّر عن ندمه الشديد قائلاً إنه لو كان يعرف من أنت لما كان فعل ما فعله. لطالما حيّرك هذا الاعتذار. هل يا ترى القصد من قوله هذا أن تلاميذ «أنغوس فليتشر» السابقين كانوا دون سواهم معفيين من مخططاته البغيضة لكن طريقته في اللعب مع الآخرين كلهم كانت مشروعة؟ لا تكف عن حكّ رأسك حيرة وعجباً). نقلك أصدقاؤك إلى غرفة الطوارئ في المستشفى المحلي حيث وضع

حول رقبتك سناد مبطن يمكن تعديله بواسطة فيلكرو[1]، ووصف لك الطبيب جرعات قوية من «الفاليوم» لترخية العضلات، وهو دواء لم تتناوله قبلاً وتأمل بألا تتناوله ثانية: كان فاعلاً من جهة لتسكين الألم إلا أنه «صرعك» وشلّ قدرتك على التفكير طوال أسبوع تقريباً، وطمس ذكرياتك المتعلقة بما جرى بعد وقوع تلك الأحداث مباشرة، ما يعني أن عدة أيام من روزنامة حياتك قد امّحت. ليس بمقدورك استعادة أمر واحد جرى لك طوال فترة استخدامك سناد الرقبة الرهيب وابتلاعك تلك الأدوية التي تمحو الذاكرة؛ لهذا عندما انتقلتما أنت وزوجتك إلى الشقة في «جادة ديورانت»، أثنيت عليها بسبب عثورها على تلك الشقة السكنية المناسبة من حيث موقعها بالرغم من أنها تداولت وإياك مطولاً أمر الشقة سابقاً قبل أن تتخذا القرار معاً بالسكن فيها. بقيتما طوال المدة التي حددتماها للمكوث، وهي ستة أشهر، وليس أكثر. ثمة إيجابيات كثيرة للعيش في «كاليفورنيا»: أغرمت بمناظرها الطبيعية وبخضرها وبالرائحة العطرة لأشجار «الأوكالبتوس» التي تفوح دوما في الهواء، والكتل الضبابية وشلالات النور المحيطة بك من جميع الجهات. لكن بعد فترة قصيرة شعرت بالاشتياق إلى «نيويورك»: فضاء «نيويورك» الرحب وضخامتها وفوضويتها وصخبها، إذ كلما تعمقت في معرفة «سان فرانسيسكو» بدت لك أصغر وأخف رونقاً. صحيح أنك لم تتضايق في العيش في أكثر الأماكن عزلة ونأياً (على سبيل المثال الأشهر التسعة في «فار» التي كانت من أكثر الأوقات الخصبة فكرياً بالنسبة إليك) لكن رأيت أنك إذا كنت ستقيم في إحدى المدن فلا بدّ من أن تكون مدينة كبيرة، أكبر مدينة، بمعنى أنه يمكنك أن تغتنم وجود النقيضين المتمثلين بالأماكن الريفية «المشلوحة» بعيدا

(١) شريط لاصق مكوّن من قطعتي نسيج متقابلتين تلصق إحداهما بالأخرى. (المترجمة)

من جهة والأماكن المدينية الكبيرة؛ بالنسبة إليك كلاهما كانا مكانين لا يثيران فيك الكلال والملل، بخلاف المدن والبلدات الصغيرة التي استنفدت نفسها بنفسها بسرعة هائلة، وفي النهاية تركتك برداناً بحاجة إلى الدفء، مثبط الهمة. وهكذا عدت إلى «نيويورك» في أيلول/سبتمبر، وطالبت باسترداد الشقة الصغيرة المطلة على نهر «هدسون» (كانت قد أجّرت إلى مستأجر من الباطن)[1]، وألححت في الطلب، ولكن ليس لوقت طويل، ففي تشرين الأول/أكتوبر أتاك خبر سعيد: بشّرت بقدوم طفل لطالما انتظرته، ما كان يعني اضطرارك إلى البحث عن مكان آخر للسكن. أردت البقاء فيها، اعتقادك أنك ستبقى في «نيويورك» كان راسخاً، لكن كل شيء في «نيويورك» كان باهظ الثمن، وبعد عدة شهور من البحث المضني عن شقة أكبر من التي أخليتماها، شقة تقدر على دفع أجرتها، قبلت الهزيمة وأخذت تبحث في مكان آخر.

١٦- «ميلليس رود ٢٥٢؛ ستانفوردفيل، نيويورك». بيت أبيض مؤلف من طبقتين في شمال مقاطعة «داتشيس». تاريخ البناء مجهول، لكنه ليس بالحديث ولا بالقديم جداً، أي من المفترض أن يكون ما بين عامي ١٨٨٠ و١٩١٠. تبلغ مساحته نصف فدان إضافة إلى حديقة في الخلف تتكاثر فيها النباتات، وفناء أمامي معتم مظلّل بأشجار الصنوبر، وبقعة أرض مزروعة بالأشجار بين أرضك والأراضي الواقعة جنوباً. كان مكاناً متداعياً أكل عليه الدهر وشرب، ولكن ليس إلى درجة الانهيار الوشيك. كان مكاناً ممكناً تحسينه في أوقات الفراغ إذا توافرت الأموال اللازمة نظراً إلى مساحته الكبيرة: مكوّن من غرفة معيشة وغرفة طعام

(١) مستأجر من مستأجر أول شاغل للعقار. (المترجمة)

ومطبخ وغرفة للضيوف/ غرفة مكتب في الطبقة الأرضية وثلاث غرف نوم في الطبقة العلوية وقيمته الشرائية ٣٥ ألف دولار، وواحد من عدة بيوت واقعة على طريق ريفي جانبي يشهد حركة سير طبيعية. لم تعشْ في عزلة تامة كما كانت الحال في «بروفانس»، ولكن بالرغم من ذلك كانت عيشة ريفية؛ صحيح أنك لم تصادف مطلقاً أطباء أسنان ينكرون ذواتهم من أجل غيرهم أو مزارعين يساريين فيهم الإنسانية، لكن جيرانك في «ميلليس رود» كانوا مواطنين لطفاء وأهل ثقة. كثير منهم كانوا أزواجاً في مقتبل العمر لديهم أطفال صغار، سرعان ما تعرفت إليهم جميعهم بدرجات متفاوتة. لكن أكثر ما تذكره عن جيرانك في مقاطعة «داتشيس» هي الأحداث المأسوية التي وقعت في بيوتهم: على سبيل المثال الشابة ابنة الثمانية والعشرين ربيعاً التي أصيبت بالتصلب المضاعف(١)، أو الزوجان الكهلان الملتاعان في المبنى المجاور، اللذان توفّيت ابنتهما بعد إصابتها بالسرطان قبل سنة وكان عمرها خمسة وعشرين عاماً. تبدلت هيئة الوالدة فصارت «جلداً وعظماً» لأن نظامها الغذائي الثابت اقتصر على «الجن»، وزوجها المرهف الحس والحنون بذل ما بوسعه لكي يعينها على العيش ويساندها: قدر كبير من الآلام والشقاء خلف الأبواب الموصدة والستائر المسدلة لتلك البيوت، ولا بد من أن يدرج بيتك أيضاً في عداد تلك البيوت. من الثلاثين حتى الواحد والثلاثين. فترة حالكة، من دون شك أنّ تلك الفترة كانت الأحلك في حياتك، إلا أن فسحة البياض الوحيدة فيها تمثلت بولادة ابنك في حزيران/يونيو عام ١٩٧٧؛ لكنه كان المكان الذي فسخ فيه زواجك الأول، والذي دهمتك فيه

(١) حالة مرضية تصيب الجهاز العصبي المركزي محدثة تصلباً في أنسجة الدماغ. (المترجمة)

مشاكل مالية دائمة (كما ذكرت بالتفصيل في «عيشة كفاف» (Hand to Mouth))، وفيه كانت النهاية المؤكدة لصفتك شاعراً. لا تؤمن بالبيوت المسكونة ولكن فيما تتأمل الآن في ما جرى في تلك الفترة من حياتك تشعر أنك كنت تعيش تحت تأثير روح شرّير وأن البيت بذاته كان له دور ما في المشاكل التي صبّت عليك دفعة واحدة. فقد سكن البيت قبل انتقالك إليه بعقود عديدة شقيقتان عازبتان من أصول ألمانية - أميركية واسم العائلة «ستيمرمان»؛ في الوقت الذي اشتريت المكان منهما كانتا طاعنتين في السنّ، أي في أواخر الثمانينيات أو مطلع التسعينيات، وكانت إحداهما عمياء والأخرى صمّاء ودخلتا إلى دار لرعاية المسنين قبل ذلك بسنة تقريباً. من أجرى مفاوضات البيع نيابة عنهما جارة كانت تقطن على بعد مبنيين في أسفل الطريق: امرأة ممتلئة بالحياة والجاذبية من مواليد «كوبا»، كانت متزوجة رجلاً أميركياً سكوتاً يقوم بإصلاح الماكينات، وهوايتها جمع تماثيل زجاجية لفيلة (!؟). أسرّت لك بعدد من الحكايات عن الأختين «ستيمرمان» السيئتي السمعة. كره الواحدة للأخرى كان أمراً ظاهراً، ومنذ نعومة أظفارهما وهما في صراع قاتل. كان يجمعهما «رباط مؤبد» وكانتا عدوّتين لدودتين إلى آخر حد؛ وقد عرفتا بمعاركهما الكلامية الشرسة وأصواتهما العالية التي كانت تسمع على طول «طلعة» و«نزلة» «شارع ميلليس». عندما قالت لك الجارة كيف أن الشقيقة الصمّاء كانت تعاقب الشقيقة العمياء بحبسها في الصوان في الطبقة السفلية، لم تستطع منع نفسك من استحضار مشاهد من روايات قوطية[١] وتتذكر الفيلم السينمائي الرديء بالأسود والأبيض الذي قامت ببطولته كل من «بيتي دايفيس» و«جوان كراوفورد» في مطلع الستينيات. حسبت الأمر مسلياً ومثيراً للضحك: شخصيتان

---

(١) تتميز بأجواء الرعب والغموض. (المترجمة)

غريبتان على نحو مضحك ومخبولتان تماماً؛ وأنّ ما فات مات وأنك سوف تبعث أنت وزوجتك الحامل في ذلك البيت القديم نفحة من زخم الشباب والنشاط وكل شيء سيتغيّر، مغيّباً عن بالك أنّ الشقيقتين قد أقامتا في ذلك البيت طوال خمسين أو ستين عاماً أو ربما سبعين أو ثمانين عاماً، وأنّ كل شبر فيه كان مشبّعاً بروحيهما الشرّيرين. في الحقيقة التقيت الشقيقة الصمّاء ذات يوم في بيت المرأة الكوبية (كادت تشرق إلى حد الوفاة وهي تحاول تناول فنجان قهوة فاتر)، لكنها بدت بالنسبة إليك شخصاً لطيفاً بما فيه الكفاية ولا يمثل أي خطر عليك وعلى الآخرين، ولم تعاود التفكير في هذا الموضوع. ثم انتقلت إلى البيت، وانشغلت أنت وزوجتك في أيامكما الأولى هناك في تنظيف الأثاث وإعادة ترتيبه (كان بعضه في البيت أصلاً قبل قدومكما إليه)؛ حينذاك سحبتما صواناً[١] من الجدار في المدخل العلوي ووجدتما غراباً نافقاً على الأرض خلفه: غراب نافق منذ أمد طويل يابس تماماً ولكن ظلّ على حاله. لا.. لم يكن أمراً مسلياً وطريفاً على الإطلاق. حتى ولو أنكما حاولتما التخفيف من وطأة ما شاهدتماه بالضحك والتظاهر بأنّ كل شيء على ما يرام، إلا أنّك لبثت تفكر في الطائر النافق شهوراً عديدة بعد هذه الحادثة، ذلك الطائر الأسود، نذير الشؤم التقليدي. في صباح اليوم التالي عثرت على صندوقين أو ثلاثة صناديق من الكتب في الرواق الخلفي، ومن باب الفضول لرغبتك في تقليب تلك الكتب عسى أن تجد منها ما يستحق الاحتفاظ به، فتحت الصناديق؛ أخذت تنتزع كراريس صادرة باسم جمعية «جون بيرتش»[٢]، كتب غير مجلدة

(١) خزانة كبيرة ذات أبواب ورفوف. (المترجمة)

(٢) منظمة مغالية في المحافظة وفي العداء للشيوعية أنشأها «روبرت ولتش» عام ١٩٥٨. (المترجمة)

تتحدث عن مخطط الشيوعيين لاختراق حكومة الولايات المتّحدة الأميركية. وكان هناك أيضاً عدة مجلدات تحكي عن مؤامرة الفلوريد الرامية إلى غسل دماغ أطفال أميركا، وكراريس دعائية مؤيدة للنازية نشرت في الإنكليزية قبل الحرب؛ أما الكتاب الذي أقلقك وأزعجك أكثر من غيره فكان نسخة من «بروتوكول زعماء بني صهيون» (The Protocols of the Elders of Zion)، كتاب الكتب، هو أبغض دفاع مؤثر عن معاداة السامية ورد في كتاب. لم ترم كتاباً من قبل [في القمامة] ولم تحاول مطلقاً أن تفعل ذلك من قَبل، لكنك تخلصت من هذه الكتب: أخذت الصناديق إلى مكب نفايات البلدة ودسستها بكل قوتك تحت كومة من القمامة المتعفنة الفاسدة. لم يكن ممكناً العيش في بيت يحوي كتباً كهذه. أملت أن تكون تلك نهاية المشاكل، ولكن حتى وبعد أن تخلصت من الكتب لم يكن ممكناً أيضاً العيش هناك. حاولت، ولكن بكل بساطة لم يكن ذلك ممكناً.

١٧- «فاريك ستريت ٦؛ مانهاتن». غرفة واحدة في أعلى طبقة من مبنى صناعي مؤلف من عشر طبقات في ما يسمّى الآن «ترايبيكا». هو مسكن مؤجر من الباطن انتقل إليك بواسطة الصاحبة السابقة لأحد أصدقاء الطفولة. مئة دولار في الشهر لقاء تشريفك بإقامة موقتة في مكتب إمدادات كهربائية سابقاً؛ مكان معزول بائس، لا يصلح مسكناً للإنسان، إذ ظلّ يستخدم، حتى قبل انتقالك إليه بوقت قصير غرفة خزن لعلّية الفنان الواقعة في الجانب المقابل للردهة. كان مزوّداً مغسلة ينزل فيها الماء بارداً، ولكن لم يكن فيه مغطس أو مرحاض أو منتفعات في المطبخ. أحوال معيشية لم تختلف عن أمثالها في غرفة الخدم التي أقمت فيها في شارع «اللوفر» في باريس، لكن مساحة هذه الغرفة كانت ثلاثة أو أربعة أضعاف أكبر من تلك الغرفة وثلاثة أو أربعة

أضعاف أقذر منها أيضاً. العمر اثنان وثلاثون عاماً. قبل أن تستقرّ هناك في مطلع العام ١٩٧٩، مررت بجملة صدمات متتابعة وتغيّرات مفاجئة وانتفاضات باطنية غيّرتك جذرياً وحدّدت لحياتك سكّة مختلفة. إذ لم يكن ثمة مكان تلجأ إليه أو مال لدفع تكاليف الانتقال إلى منزل آخر، حتى وإن كنت تعرف عنوانه؛ فبقيت في البيت في مقاطعة «داتشيس» بعد انهيار زواجك حيث كنت تنام على الأريكة السّريرية في زاوية غرفة مكتبك في الطبقة السّفلية. ها أنت الآن تفطن (بعد ثلاثة وثلاثين عاماً) إلى أنّ تلك الأريكة كانت سريرك في طفولتك. بعد أسبوعين، وفيما كنت تقوم برحلة إلى «نيويورك»، جاءك الكشف: لحظة التجلّي اللافحة التي أخرجتك مما كنت واقعاً فيه من خلال فرجة ضيقة في الكون فسحت لك في المجال بأن تبدأ الكتابة من جديد. بعدها بثلاثة أسابيع وفيما كنت مستغرقاً في كتابة النص النثري الذي سبق أن بدأته مباشرة بعد انتعاشك وتحرّرك وولادتك الجديدة، وقع عليك خبر وفاة والدك غير المتوقعة كالصاعقة. إلى زوجتك ينسب الفضل الكبير، فقد لازمتك ووقفت إلى جانبك طوال الأيام والأسابيع الموحشة التي أعقبت وفاته وأخذت على عاتقها القيام بما يلزم في تلك الفترة العصيبة من تهيئة للجنازة والاهتمام بالأمور المتعلقة بمخلفات الوالد من ممتلكات وموجودات وديون، وتوزيع ربطات عنقه وبذلاته وأثاثه وتولي أمر بيع بيته (الذي كان قيد الإعداد آنفاً)، ومؤازرتك في كل المسائل العملية الموجعة التي تعقب الموت. ولأنكما لم تعودا متزوجين أو لأنكما أصبحتما زوجين بالاسم فقط أزيلت الضغوط التي يسببها الزواج ورجعتما صديقين مرّةً أخرى، تماماً كما كان دأبكما في أيامكما الأولى معاً. شرعت في كتابة القسم الأول من «اختراع العزلة»

(The Invention of Solitude)؛ وحينما انتقلت إلى شارع «فاريك» في مطلع الربيع، كنت مستغرقاً في تكملته وأنجزت الكثير منه.

١٨- «كارول ستريت ١٥٣؛ بروكلين». شقة قطارية[1] في الطبقة الثالثة من مبنى مؤلف من أربع طبقات مجاور لشارع «هنري». من الثالثة والثلاثين حتى الرابعة والثلاثين: ثلاث غرف ومطبخ مع «قعدة» وحمام. كانت غرفة النوم المطلة على الشارع الأمامي كبيرة بما فيه الكفاية لوضع سرير مزدوج لك وآخر مفرد لابنك (الأريكة السريرية إياها التي اعتدت النوم عليها عندما كنت طفلاً، والتي استعدتها بعد أن بعت البيت في «ستانفوردفيل»). كما تألفت الشقة أيضاً من غرفتين متوسطتي الحجم إحداهما من دون نوافذ حوّلتها إلى غرفة مكتب والأخرى استخدمتها غرفة معيشة (ذات نافذة واحدة مطلة على الجنينة) متبعة بالمطبخ (نافذة واحدة) والحمّام في الجهة الخلفية. لا تنكر أنها كانت شقة مبهرجة، مزوّقة بطريقة تنم عن ذوق سقيم ومهلهلة، ولكن شتان ما بينهما وبين المساكن التي أقمت فيها قبلها؛ مقارنة بها تعد هذه الشقة الفضلى. خسرت مكان سكنك في شارع «فاريك» في كانون الثاني/يناير عام ١٩٨٠ (تخلى الفنان عن علّيته)، وعندما تبيّن أنّ الإيجارات في «مانهاتن» باهظة جداً بحيث لم تلقَ شقّة معقولة السعر تؤويك أنت وابنك البالغ من العمر سنتين ونصف السنة (الذي أمضى معك ثلاثة أيام كل الأسبوع)، عبرت منطقة «النهر الشرقي» (East River) وأخذت تبحث عن مسكن لكما في «بروكلين»، وتساءلت لِمَ لم يخطر هذا ببالك في العام ١٩٧٦؟ فبالتأكيد مثّل العيش في هذه الناحية حلّاً أفضل من خوض غمار رحلة طويلة وقطع مئة ميل إلى الشمال وشراء بيت مسكون في مقاطعة «داتشيس». لكن في الحقيقة

(١) شقة في مبنى ذي صف طويل من الحجرات الضيقة. (المترجمة)

إنّ «بروكلين» لم تخطر ببالك حتى في ذلك الوقت لأن «نيويورك» كانت تختصر «بمانهاتن» وليس غيرها، أما الأقسام الإدارية الأخرى لمدينة «نيويورك» فكانت بالنسبة إليك أماكن أجنبية مجهولة كالبلاد النائية في «أوقيانيا» و«الدائرة القطبية الشمالية» (Arctic Circle). انتهى بك المطاف في «كارول غاردنز»: حي إيطالي منغلق على نفسه بذل معظم أناسه جهداً خاصاً لكي يشعروك بأنك شخص غير مرحب به بين ظهرانيهم، فطفقوا يعاملونك بارتياب ويحملقون فيك بصمت وكأنك دخيل في وسطهم، أو الأحرى (estranger) بالشدّ على حرف الـ(s)[1]، حتى وإن حسبوك إيطالياً في ذاتك. لكن كان من المؤكد وجود مشكلة لديك: ربما طريقة ارتدائك الثياب أو في حركاتك أو حتى ربما «نظرة» عينيك. كم من مرة، وعلى مدى سنتين على وجه التقريب، ما كان يحدث وأنت تسير في شارع «كارول» في طريقك إلى شقتك هو رؤية النساء الطاعنات في السن يجلسن على أدراج بيوتهن ويتوقفن فجأة عن الكلام كلما أصبحت على مرمى السمع، ويراقبنك وأنت تمرّ أمامهن من دون أن ينبسن ببنت شفة، ورؤيتك الرجال يقفون هنا وهناك بعيون فارغة أو يوجهون أنظارهم إلى أسفل أغطية سياراتهم ويتفحصون محركاتها بكل إصرار وتفان إلى حدّ أنهم ذكّروك بالفلاسفة الساعين وراء حقيقة ما مطلقة عن وجود الإنسان. المرة الوحيدة التي أومأت فيها إليك النسوة برؤوسهن [علامة التحية] كانت عندما كنت تخطر في ذلك الشارع مع ابنك، ابنك الصغير الحجم بشعره الأشقر. وإلا [عندما سرت وحدك] كنت شبحاً، رجلاً لم يوجد لأنه متطفّل ولا شأن له بذلك المكان. لحسن الحظ أنّ مالكي مبناك،

---

(١) كما جرى مع أهل بروفانس الذين تقصدوا شطب حرف الـ«s» من الكلمة دلالة على أن كل غريب عنهم دخيل. (المترجمة)

«جون وجاكي كاراميللو» كانا مختلفين عن الآخرين في معاملتهما لك. كانا زوجين في مطلع الثلاثينيات يسكنان في الطابق الأرضي. عاملاك بلطف ودماثة وودّ ولم يبديا أدنى علامات الامتعاض، لكنهما كانا في مثل عمرك ولم يعُد يعيشُ أيّ منهما في جلباب أبيه. كانت خالة «جوي غالو» تسكن في المجمّع ذاته، وكانت هناك النوادي الاجتماعية القريبة، في شارع «هنري»، حيث اعتادت العجائز التسكّع في خلال النهار. وإذا كان «كارول غاردنز» أكثر الأحياء أماناً في المدينة فلأنه كان يهيمن عليه اتجاه خفيّ، من اتجاهات الرأي، عنفيّ السمة: العنف الثأري وأخلاقيات العصابات الإجرامية. تحاشى السود هذه المحصورة المحروسة جيداً مدركين أنهم إذا خطوا خطوة واحدة داخل حدودها فسوف يجازفون بأرواحهم. إنه قانون غير مكتوب، ربما لم تكن فهمته كفاية لو لم تره قيد التنفيذ بأم عينك. فبينما كنت تسير في شارع «كورت» ذات يوم في وهج عصر خريفي، شاهدت ثلاثة من بين أربعة مراهقين بيض يرعبون ولداً أسود يجول في الشارع ويحمل جهاز راديو قديماً في الجهة المقابلة من الشارع، فلكموه وأدموه وهشّموا الراديو برميه على الرصيف. وقبل أن تتمكن من التدخل رأيت الولد يبتعد مترنّحاً متعثّراً؛ من ثم أخذ يركض هارباً والأولاد البيض يصيحون «زنجي»، محذّرين إياه بعدم العودة ثانية. وفي مرة ثانية سنحت لك فرصة للتدخل: عصر يوم أحد في أواخر الربيع. كنت تسير في شارع «كارول» باتجاه محطة القطار الكهربائي النفقي في شارع «سميث» حين توقفت عدة ثوان لمشاهدة مباراة هوكي بمزالج معجّلة تقام على السطح الإسفلتي في «كارول بارك»، ورأيت راية كبيرة عليها شعار النازية الأحمر والأبيض والأسود معلقة على السياج المعدني السلسلي المحيط بالحديقة العامة. دخلت الحديقة وعثرت على الفتى،

ابن الستة عشر ربيعاً، واضع الشعار (مدير العدة الرياضية لفريق من اللاعبين) وطلبت منه إنزاله. ارتبك وهو لا يفهم مرادك، ثم استمع إليك وأنت تشرح له ما يمثله هذا الشعار، وعندما سمعك تتحدث عن أعمال «هتلر» الشنيعة والمذبحة التي راح ضحيتها ملايين الأبرياء بدا محرجاً «بحق». قال: «لم أكن أعرف. فكرت أنه شعار جميل فقط لا غير». بدلاً من أن تسأله عمّا إذا كان يعيش في هذا العالم أم لا، انتظرت حتى أزال الشعار ومن بعدها تابعت طريقك إلى محطة قطار الأنفاق. ومع كل هذا لم يخل حيّ «كارول غاردنز» من الحسنات وعلى وجه الخصوص المأكولات التي كانت تقدّم فيه وأفرانه ومحاله التي تبيع البرك وبائع البطيخ الجوال في الحي بعربته التي كان يجرّها حصان في الصيف، والبن الموضوع في المحمصة في «الداميكوز» وهبوب الروائح النفّاذة الرائعة التي انقضّت عليك كلما خطوت إلى داخل ذلك المحل. لكن هذا الحي كان أيضاً المكان الذي طرحت فيه أغبى سؤال في حياتك الراشدة. كنت فوق شقتك عصر ذات يوم ومنكباً على كتابة النصف الثاني من روايتك «اختراع العزلة» في غرفة مكتبك الخالية من النوافذ عندما علت أصوات وسمعت صراخاً وضجة قوية مصدرهما الشارع. فرأيت المجمّع برمته هناك ورجالاً ونساءً متجمعين واقفين أمام بيوتهم، وأحاديث تضج حماسة كانت تدور في الوتت نفسه، ربما بلغ عددها العشرين. وهناك كان صاحب شقتك، «جون كاراميللو» القوي البنية باركاً على درج مدخل المبنى الذي كنت تسكن فيه يعاين الفوضى العارمة بهدوء. سألته: «ما الخطب؟». أجابك بأن ثمة رجلاً لم يكد يخرج من السجن حتى أخذ يقتحم البيوت والشقق الخالية من أصحابها على امتداد الحي كله ويسرق أي شيء له قيمة يمكنه الاستيلاء عليه من جواهر وأوانٍ فضية وغيرها، ولكن قُبض

عليه قبل أن يتمكّن من الفرار. وهنا طرحت سؤالك ناطقاً الكلمات الشهيرة التي أثبتت أنك شخص مغفّل تماماً، شخص ظلّ إلى تلك اللحظة لا يفقه شيئاً عن العالم الصغير الذي اتفق أن يكون مقر سكنه: «هل اتصلتم بالشّرطة؟». ابتسم «جون» وأجاب: «لا بالطبع. فالشباب أوسعوه ضرباً وكسروا رجليه بمضارب البيسبول وألقوه في سيارة تاكسي. لن يعاود الرجوع إلى هذا الحي مرّة أخرى، لن يعود إذا أراد أن يظل حياً». يكفي الكلام عن أيامك الأولى في «بروكلين» حيث يقيم منذ إحدى وثلاثين سنة. في تلك الفترة الانتقالية من حياتك حدث الآتي: فسخ زواجك ورحيل والدك، ثم الأشهر التسعة في شارع «فاريك» وشهورك الأولى في «كارول غاردنز» وعددها أحد عشر شهراً. كان وقتاً تميّز بالكوابيس والصراع الداخلي تناوبت فيه مشاعر الرجاء واليأس، والتقلّب في فراش نساء عديدات، نساء سعيت أن تحبهنّ وكدت تنال مسعاك ولكن لم تتمكن من ذلك. كنت على يقين بأنك لن تتزوّج ثانيةً وانشغلت بتأليف كتابك وبترجمتك أعمال «جوبير» و«مالارميه» [مؤسس المدرسة الرمزية]، وبإعداد أنطولوجيا لمقتطفات من دواوين شعرية فرنسية في القرن العشرين، الضخمة جدا؛ هذا إلى جانب الاهتمام بابنك البالغ من العمر ثلاث سنوات المرتبك الذي يعاني صعوبة في الفهم، وأمور كثيرة وقعت لك دفعة واحدة ومنها السكتة القلبية التي كادت تقضي على زوج والدتك الثاني بعد جنازة والدك بعشرة أيام فقط، وسهر الليالي في المستشفى بعد ستة أشهر فيما كنت تشاهد جدّك وهو ينطفئ بسرعة ويموت. ربما كان أمراً مفروغاً منه أن يصاب جسدك بخلل ثانية، هذه المرة بقلب خافق بقوة، قلب دقاته غير منتظمة من شأنها أن تتسارع فجأة بطريقة يتعذّر تعليلها في صدرك؛ هي نوبات من الخفقان والإسراع في النبض لم تكن تنتابك

فجأة وتستحوذ عليك إلا في الليل كلما كنت مستغرقاً في النوم، أو كانت توقظك من نومك ما أن تستغرق في النوم. كنت حينئذ إما وحدك في الغرفة مع ابنك، وإما متمدّداً على السرير إلى جانب جسد فتاة - نائمة سواء «آن» أو «فرنسواز» أو «روبي» - وقلبك يخفق بقوة بحيث كانت تتردد دقاته داخل رأسك، وترنّ بإلحاح وبإصرار حتى خلت أن تلك الأصوات العالية والضجة القوية منبعثة من مكان ما في الغرفة. في النهاية علمت أنك تعاني اضطرابات في الغدة الدرقية، ما أرهق جسمك كلياً، ولهذا السبب اضطررت إلى تناول عقاقير مدة سنتين أو ثلاث سنوات. ثم، أي بعد عشرين يوماً على عيد ميلادك الرابع والثلاثين وبعد أربعة أيام فقط على عيد ميلادها السادس والعشرين، وبالتحديد في ٢٣ شباط/فبراير عام ١٩٨١، التقيت فتاة أحلامك: وجدت نفسك مصادفةً تتعرف إلى «المرأة التي اختارها قلبك من بين كل النساء»، المرأة التي لا تزال معك منذ تلك الليلة قبل ثلاثين سنة، زوجتك، الحب الكبير الذي كمن لك وقت لم تكن تنتظره؛ وفي أسابيعكما الأولى معاً، أي عندما أمضيتما غالبية الوقت في السرير، نمت لديكما عادة يومية تمثّلت بأن يقرأ كل منكما للآخر قصصا خرافية: عادة واظبتما على ممارستها حتى ولادة ابنتكما بعد ست سنوات. وليس بعد ذلك بوقت طويل اكتشفتما كم في ذلك الفعل المتكرر من متعة شخصية لكونه أنضج العلاقة بينكما. ألّفت زوجتك قصيدة نثرية طويلة عنوانها «أقرأ لك» (Reading to you) تسترجع فيها، وبالتحديد في جزئها الرابع عشر والأخير، ما حدث لك من اضطراب في دقات قلبك. ومكان الحدث هو غرفة النوم في شقتك الواقعة في الطبقة الثالثة من أحد مباني «١٥٣ كارول ستريت»: «يرسل الوالد المتحجّر القلب ابنه الغبي إلى الغابة لكي يُقتل، لكن القاتل لا يستطيع

القيام بالأمر ويتركه في سبيله ويجلب إلى الأب قلب غزال بدلاً منه. ويتحدّث هذا الولد إلى الكلاب والضفادع والعصافير، وفي الآخر تهمس الحمائم في أذنيه لغة جنسها، وتعيد الكلمات مرّة تلو الأخرى على مسمعه. وها أنا في مكان آخر أهمس في أذنيك رسائل، رسائل مني إليك تحكي عن ظاهر ركبتيك وباطن مرفقيك وانثره فوق شفتك العليا، مني إليك حتى وأنت بعيد الآن. أهمس كالعصافير في القصة التي أحكيها لك، ترديدات في الغرفة حيث امتلكتني. العناصر هي ذاتها لكنها تتغيّر، في حركة دائمة، تتبدّل بطريقة لا يمكن إدراكها، مثل التعابير على وجهك: فأراك تبتسم ليتحوّل الوجه الباسم إلى وجه جدّي ورصين منحنٍ فوقي في النور الباهت. لذا أتمنى لك قصة نتوارثها أيضاً، الأوضاع والوجوه والقلوب والمثانات ذاتها، مصابين بالوهن، بالعجز، بالبلاء. قلبه محاط بالماء. إنه يغرق، القلب المريض والمريض القلب، أي الجزء المصاب. الخفقة التي تقاس سرعتها في داخلك تتسارع جداً في بعض الأحيان ولهذا تتناول أقراص أدوية كي تبطئها، لتصبح سليمة ومنتظمة الإيقاع، وكي لا تكون خبط عشواء وتغيب كأشياء أخرى. أتمنى لك قصة في السرير حيث يعلّقون القمر بعد أن يموت الرجال الكبار كي يشعّ فوقك إلى الأبد ولا يكف عن تسليط نوره عليك، حتى وإن لم يمتلك نوره بل كان هذا الأخير مستعاراً ودورياً. سوف آخذ القمر، وبفعل الاستعارة والسرقة والتصغير سوف يغدو أصغر قمر: هلال رفيع وواهن خلف غيمة في الشتاء. هذا هو المشهد الذي أختار».

١٩- «تومبكينز بلايس ١٨؛ بروكلين». أعلى طبقتين في مبنى من أربع طبقات مشيّد بالحجر الأسمر[١] في شارع يحوي مجمعاً سكنياً

(١) حجر رملي بنّي محمرّ يستخدم في تشييد المباني. (المترجمة)

واحداً مؤلفاً من مجموعة من المنازل المتماثلة والمتلاصقة بجدران جانبية مشتركة في «كوبيل هيل» وهو الحي الواقع ما بين «كارول غاردنز» و«بروكلن هايتس». من عمر الرابعة والثلاثين حتى التاسعة والثلاثين. مكان يبعد أقل من نصف ميل عن «١٥٣ كارول ستريت» إلا أنه عالم مختلف تماماً عنه: فسكانه مختلطون ومتنوّعون أكثر من سكان المجمّع الإثني الذي سبق أن أقمت فيه عشرين شهراً وشهراً. لم تكن شقة مزدوجة مفصولة عن النصف السّفلي من المبنى بل طبقتين مستقلتين: في الأعلى الطبقة ذات السقف المنخفض، مع مطبخ حجمه حجم زاوية، وفسحة واسعة لتشكّل حجرة طعام، وغرفة معيشة غير مقسّمة خلفها، إضافة إلى غرفة مكتب صغيرة لزوجتك. أما الطبقة السفلية حيث السقف أعلى فتتألف من غرفة نوم رئيسة مصغرة وغرفة أكبر لابنك تستخدم غرفة للنوم واللعب في الوقت ذاته، ومكتب لك أيضاً مماثل في الحجم لمكتب زوجتك في الطبقة العلوية. تصميم البناء غير محكم في الإجمال، لكن تلك الشقة كانت أكبر من الشقق الأخرى التي استأجرتها من قبل، وواقعة في مجمّع جميل جداً في هندسته المعمارية: شيّدت المنازل كلها في ستينيات القرن التاسع عشر، وكانت قناديل الغاز تنار في المساء أمام كل بيت، وكلما غطى الثلج الأرض في الشتاء شعرت أنك سافرت زمنياً إلى القرن التاسع عشر حتى إذا أغمضت عينيك وأصخت السمع جيداً، كنت تسمع صهيل الأحصنة في الشارع. تزوجت في تلك الشقة ذات يوم شديد الحرارة والرطوبة في منتصف شهر حزيران/يونيو، أحد الأيام المعروفة بطقسها الحار والملبّد في مطلع الصيف المترافق مع السحب المطرية التي تتشكّل ببطء على حدّ الأفق البعيد، وبحلول الظلام تدريجاً مع تقدّم الساعات. بعد لحظة واحدة على إعلانكما زوجاً وزوجة، وفي اللحظة نفسها التي طوّقت فيها زوجتك بذراعيك وقبلتها، هبّت العاصفة أخيراً:

لمعة برق قوية شقّت السماء فوقكما مباشرة أخذت تهزّ نوافذ البيت وتقعقعها وترجّ الأرض تحت رجليك. شهق الناس في الغرفة وكأنما كانت السماء تعلن زواجكما للعالم. توقيت غريب دراماتيكي بعض الشيء من دون معنى ومع ذلك بدا وكأنه يعني كل شيء. وللمرّة الأولى في حياتك شعرت أنك تشارك في حدث كوني.

٢٠- «ثيرد ستريت ٤٥٨، الشقة ٣ ب، بروكلين». شقة طويلة وضيقة احتلت نصف مساحة الطبقة الثالثة لمبنى مؤلف من أربع طبقات في «بارك سلوب». غرفة المعيشة مطلة على الشارع أمامك، وغرفة الطعام ومطبخ صغير كمطبخ السفينة في الوسط محاط بممر صفّت فيه الكتب على رفوف في الجانبين، وهذا الممر يؤدي بدوره إلى ثلاث غرف نوم صغيرة من الخلف. من الأربعين حتى الخامسة والأربعين. حين انتقلت إلى شقتك السابقة في «تومبكينز بلايس» نبّهك مالك الشقة الذي تبيّن مصادفةً أنه جارك في الطبقة السفلية بأنك لن تستطيع الإقامة هناك إلى الأبد وبأنه سوف يشغل البيت كله هو وأسرته يوما ما. وجب عليك أن تعي وتفهم ما قاله حينئذٍ، ولكن بعد المكوث هناك خمس سنوات وشهراً، وهي أطول مدة لبثت فيها في مكان واحد منذ زمن الطفولة المتأخرة في «جادة أيرفينغ»، صرفت فكرة مغادرة الشقة طوعاً من بالك شيئاً فشيئاً، ولأن السنوات التي أمضيتها في «تومبكينز بلايس» كانت أجمل فترات في حياتك وأكثرها مجلبة للرضا والاكتفاء حتى ذلك الحين، رفضت مواجهة الواقع بكل ما في الكلمة من معنى. ثم، وبالتحديد في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٦، أي بعد أن اكتشفت زوجتك أنها حامل بأسبوع فقط، أنبأك صاحب الشقة بتهذيب أنّ الوقت المحدد [للإيجار] قد انتهى وأنه لن يجدّد عقد الإيجار معك. شكّل قوله هذا صدمة فجائية لك، ولأنك لم ترغب

إطلاقاً أن توضع في مثل هذا الموقف ثانية ولم تتحمّل فكرة طردك من مكان آخر مرة أخرى في يوم ما في المستقبل، رحت أنت وزوجتك تبحثان عن مسكن ما لشرائه، شقة تعاونية [شقة للبيع بالتجزئة] من شأنها أن تصير ملكك، وبحيث تستطيع بعدها حماية نفسك من نزوات المالكين المفاجئة، عدم البقاء تحت رحمتهم. جرى هذا الأمر قبل أحد عشر شهراً من الانهيار العام في البورصة، الذي شلّ حركة المصارف في «وول ستريت» عام ١٩٨٧، وكثر الإقبال على شراء العقارات في «نيويورك» بشكل جنوني إلى حدّ تعذّر فيه التحكم في الأسعار التي أخذت ترتفع كل أسبوع وكل يوم وكل دقيقة؛ ولأنك لم تملك إلا مبلغاً يسيراً يكفي ليشكّل الدفعة الأولى من سعر مسكنك الجديد فقط، وجب عليك قبول مكان لا يلبي حاجاتك تماماً. كانت الشقة في «ثيرد ستريت» مسرّة للنظر، ومن غير منازع أجمل الأماكن التي عاينتها وأنت تبحث عن مسكن مناسب لك ولعائلتك، لكنها كانت صغيرة جداً ولا تتسع لأربعة أشخاص، خصوصاً حين يكون اثنان منهم كاتبين، لأنه كان لا بد لهما من اتخاذ الشقة مكاناً للسكن وللعمل أيضاً. لم يكن ثمة حاجة للتفكير كثيراً كيف سيستفاد من غرف النوم الثلاث: واحدة لك ولزوجتك وأخرى لابنك (ظلّ يعيش معك نصف الوقت) والثالثة لطفلتك الصغيرة. حتى إن أكبر تلك الغرف مساحة، أي ما يدعى غرفة النوم الرئيسة، لم تكن تتسع لوضع مكتب فيها. اختارت زوجتك أن تتخذ ركناً في غرفة المعيشة مكاناً لعملها، أما أنت فوجدت مطلبك في الخارج: استوديو صغير جداً في أحد المباني الشقية في «الجادة الثامنة»، على بعد مجمّع ونصف مجمّع من «٤٥٨ ثيرد ستريت» (راجع المدخل ٢٠ أ)؛ شقة ضيقة جداً في ذلك الحين، وتسوية يمكن

وصفها بأقل من مثالية، لكن ظروفك كانت أبعد ما تكون عن اعتبارها تراجيدية: فضّلتما أنت وزوجتك الحركة الناشطة والحياة الدابة في «بارك سلوب» على شوارع «كوبيل هيل» الهادئة. وعندما بدأتما تمضية الصيف في جنوب «فيرمونت» (ثلاثة أشهر على مدى خمسة أعوام متتالية؛ راجع المدخل ٢٠ب)، لم يكن ثمة ما يدعو إلى التذمر، أو إن كان يوجد فبالكاد يذكر، ولا سيما كلما أمعنت التفكير في بعض الأماكن البائسة التي أقمت فيها في الماضي. العيش في شقة تعاونية أتاح لك بناء علاقات مباشرة وشخصية مع جيرانك أكثر من أي وقت مضى قبلاً أو منذ إقامتك في هذا المكان، وهو أمر ملت إلى التوجس منه خيفة في البداية، إلا أنك لم تصادف في مبناك أشكال السيدة «روبنشتاين» ولم تنشأ نزاعات متأزمة على أي جبهة، واجتماعات التعاونية التي استلزم منك حضورها كانت قصيرة نسبياً وأخذ الجميع الأمور ببساطة. كان عدد الأسر المشتركة ستة، أربع عائلات منها لديها أطفال صغار، وبوجود مهندس معماري ومقاول ومحام من بين أعضاء المجلس تفانى جيرانك في حفظ حال المبنى الشكلية والمالية. أما زوجتك فكانت وظيفتها أمينة سرّ السجلات طوال السنوات الخمس التي أقمتها هناك، بحيث اعتادت تسجيل محاضر الجلسات بعد كل اجتماع للمجلس: تقارير مسليّة، في ظاهرها الجد وباطنها الهزل، وقد نالت تقدير جميع المشاركين في الاجتماعات وامتنانهم؛ وهنا بعض المقتطفات:

١٩/١٠/٨٧. «البق»: تمت معالجة هذا الموضوع المزعج جداً من قبل الرفاق المجتمعين، بأكبر قدر من العناية والكياسة. تم استخدام الكلمة الملطفة «مشكلة» أقله من قبل عضو واحد. فقد ذهبت «مارغريت» إلى حد قولها «مئات الأطفال». أوصى «ديك» بمنتج

يدعى «كومبات» [معركة]، ووافقته «سيري» في الرأي. كما اقترح أيضاً على مستخدم المبيدات تبديل نوع مبيده. ثم وبتنهيدة ارتياح لهذا الإجراء، وجّه الأعضاء دفة الحديث إلى موضوع آخر.

٨٨/٣/٧. «السياج»: حدّد تلاميذ «ثيو» سعراً لوضع السياج بقيمة ٥٠٠ دولار. أعضاء معيّنون رأوا أن السعر مبالغ فيه، وآخرون خالفوهم في هذا الرأي. كانت الموافقة على هذه الكلفة فاترة، بمعنى أنها كانت موافقة مبهمة جداً، هذا إن وافق عليها أحد، وبالتالي لا يمكن تسميتها موافقة على الإطلاق: على أساس أنه بمقدور التلاميذ الحصول على مبلغ [٥٠٠ دولار] إذا وعدوا بأداء المهمة على أكمل وجه. ولكن هذا ليس مؤكداً...

٨٨/١٠/١٨. «المهمة السابقة». لحظة تردد سادت: هلا يستطيع الأعضاء العودة إلى الماضي وتذكّر ما كانت مهمتنا السابقة؟ أنقذ الرئيس الموقف بإحضاره نسخة من المحاضر السابقة.

٩٠/٢/٢٢. «السقف في الطبقة الثالثة»: يبلّغ «بول» الجماعة بأن السقف في الطبقة الثالثة على وشك السقوط. علامات الخوف بادية جداً على وجوه جيرانه. تحاول زوجته، التي تعرف أيضاً بصفتها أمينة السر، تهدئة الآخرين بلفت انتباههم إلى نزعة زوجها للمبالغة. فالرجل يرتزق من «فبركة» القصص الخيالية، وبين الفينة والأخرى يؤثر انغماسه في عالم الخيال في العالم الآخر، الذي لا يوجد تعبير أفضل لوصفه من «عالم الواقع». ليعمّم في المحضر أن السقف في الشقة المذكورة ليس على وشك السقوط وأن على ساكنيها الشروع في العمل الملائم للتيقن من عدم حدوث هذا الأمر. سوف يهتم واضعو الحصى و«الدهانون» بسقفنا المتداعي قليلاً.

٩٠/٣/٢٨. «السقف في الطبقة الثالثة»: كان ينهار فعلياً. لقد أثبت الدهانون الذين أعادوا ترميم الشقة وأصبح وضعها مقبولاً صحة نبوءة «بول» الباعثة على الإحباط: وقوعه على رؤوسنا كان مسألة وقت لا أكثر.

٩٢/٦/١٧. «الفيض»: الدور تحت الأرضي يفيض. أصابت ملاحظة «لويد» الدقيقة والذكية الهدف، إذ قال إنه علينا إما معالجة الفيض وإما خزن سمك التروتة في الدور تحت الأرضي. تقدر قيمة إصلاح الأعطال بين ١٠٠ دولار و٨٥٠ دولاراً، وهذا يعتمد على ما يجب فعله. اتفقنا على أنّ الكلفة القليلة أفضل من الباهظة وأنه يجدر بنا المباشرة بالاتصال بمندوب شركة لا تكلّفنا الكثير، أي «روتورووتر». فالسيد العامل في مصلحة تصريف المياه الأميركية «روتورووتر» هو أحد أصدقاء «لويد» أو معارفه، أو أقله هو أحد «يعرفه» «لويد» باسم «رايموند كلين» [أي نظيف]: اسم يوحي بالثقة أخذاً في الاعتبار طبيعة عمله، ومن يدري، ربما يكون هذا الاسم هو من ألهم صاحبه القيام بهذه المهمة السامية في الحياة.

٩٢/١٠/١٥. «النوافذ والجريمة»: اتهم مصلح النوافذ، «جو» (Joe) بالفرار سرّاً ومعه مبلغ المئة دولار الذي يخص أمينة السر، وبعدم الرّد على هاتفه. قد يكون غادر البلاد. اتهمه «ثيو» و«مارغريت» أيضاً من قبل «بعدم إصلاح» عقارب الساعة في الأساس بما أنها تعطّلت مرة ثانية بعد أسبوع واحد. ربما وجب علينا البحث عنه في «هوبوكين».

٩٢/١٢/٣. بعيداً عن جدران «الشارع الثالث ٤٥٨» «ثيرد ستريت» كان الطقس بارداً وكئيباً تلك الليلة والشتاء قد أطبق علينا.

اتسمت النبرة في نهاية الاجتماع بالحزن المشوب بالحنين والتوق. روت «مارغريت» حكايات عن «قبرص»، وبصوتها شجن ونبرة واضحة من الحنين إلى هذا البلد. ففي ذلك المكان الغريب والبعيد، الطقس دافئ والنور ساطع والثياب المنشورة في الشرفات تجف في غضون عشر دقائق... وعلى هذا النحو نبحر في اتجاه معين: هناك دائماً مكان آخر حيث الشمس تشرق، حيث الثياب تجف بسرعة، حيث لا يوجد رجال يصنعون نوافذ ولا أعمال صيانة ولا تعويضات للعمال ولا طبقات سفلية تفيض.

١٤/١/٩٣. «التعويض للعمال»: هذه القضية المتعلقة بوجوب أو عدم وجوب تغطية موظفي التعاونية المتضرّرين وهم يؤدون مهماتهم وصلت إلى النقطة الحاسمة بحيث وجب اتخاذ قرار ما بشأنها. لن نعوّض، وليكن ما يكون: حتى وإن انكسرت أصابع بسبب آلة كاتبة أو خنقت أعناق بسلك هاتف فيما أحد الموظفين يقوم بعمله أو تأذّت أرجل وأذرع ورؤوس بسبب الإكثار من الشرب في أحد الاجتماعات، يجب علينا التعايش مع هذا الوضع كما هو دأب الإنسان. سوف ندعوه القدر. سنوفّر قرابة خمسين دولاراً أميركياً، و«خمسين دولاراً بكل ما في الكلمة من معنى».

٢٠ أ - «الجادة الثامنة ٣٠٠، شقة ١-١ ؛ بروكلين». «استوديو» مكوّن من غرفة واحدة في الطبقة الأرضية في مبنى شققي مؤلف من ست طبقات، واقع في الجهة الخلفية ومطل على منور وحائط مسدود. أكبر من غرفة الخدم في شارع «اللوفر»، وأصغر من نصف حجم الكوخ في «فاريك ستريت» لكنه يحتوي على مرحاض ومغطس للاستحمام إضافة إلى أجهزة كهربائية متنوعة في المطبخ مركبة داخل أحد الجدران: مغسلة وفرن ومشرب منمنم [ثلاجة صغيرة جداً]، لكنك

لم تتكلف العناء باستخدامها إلا نادراً لكونه مكاناً للعمل وليس للعيش (أو الأكل). وفي الغرفة مكتب وكرسي وخزانة كتب حديدية وخزانتان للخزن، ومصباح كهربائي مكشوف متدلٍ من وسط السقف، ومكيّف مركّب في إحدى النوافذ اعتدت تشغيله لدى وصولك في الصباح لتنقية المكان من الضجيج كي تفيد منه في حرّ الصيف وبرد الشتاء. لا تنكر أنها بيئة محيطة متسمة بالبساطة وبالاقتصاد في الإنفاق، لكن لم تمثل لك البيئة المحيطة أي أهمية بقدر ما همّك عملك بما أنّ المساحة الوحيدة التي تشغلها حين تؤلف كتبك هي الصفحة قبالة وجهك والغرفة التي تجلس فيها، فالغرف العديدة والمتنوعة التي جلست فيها طوال الأربعين سنة الماضية ونيّف هي غير مرئية بالنسبة إليك ما أن ينطلق قلمك على دفتر ملاحظاتك أو تنقل ما كتبته على صفحة بيضاء بواسطة آلتك الكاتبة وهي الآلة ذاتها التي ما زلت تستخدمها منذ عودتك من فرنسا عام ١٩٧٤: هي آلة محمولة مستعملة من طراز «أوليمبيا» اشتريتها من صديق لك بأربعين دولاراً. لا تزال تحفة باقية صالحة صنعت في ألمانيا الغربية منذ أكثر من نصف قرن ولا شك بأنها سوف تبقى شغّالة بعد رحيلك بأمد طويل. أحببت رقم شقتك المكوّنة من «استديو» بسبب دلالته الرمزية: I-١، ويعني الذات الواحدة، الشخص الوحيد المعزول في تلك الغرفة المحصّنة تحت الأرض طوال سبعٍ أو ثماني ساعات في اليوم، رجل صامت معزول عن العالم بأسره: يوماً بعد يوم يجلس إلى مكتبه لا لسبب سوى لاستكشاف بواطن عقله.

٢٠ ب - «ويندام رود؛ وست تاونزند، فيرمونت». بيت جدرانه مكسوّة بألواح التبليس، أبيض ومكوّن من طبقتين (شيّد قرابة العام ١٨٠٠) على قمة طريق ترابي منحدر يبعد ثلاثة أميال عن قرية «وست تاونزند». من حزيران/يونيو حتى نهاية آب/أغسطس، ومن العام ١٩٨٩

حتى نهاية العام ١٩٩٣. من أجل الإيجار الشهري المتواضع البالغ ألف دولار هربت من طقس «نيويورك» الاستوائي الحار والنطاق الضيق لشقتك المنمنمة إلى هذا الملاذ على كتف تلال الناحية الجنوبية في «فيرمونت». ألحق بفناء أمامي معشوشب مساحته ربع فدّان، ومن وراء الفناء تماماً امتدت أشجار كثيفة تغطي عدة أميال من البرّية، إضافة إلى عدد أكبر من الأشجار على الجانب الآخر من الطريق الترابي. إلى ذلك كانت هناك بركة ماء صغيرة في الجوار ومبنى إضافي على طرف الفناء. لم يكن ثمة وسائل للراحة من أي نوع، فلا غسّالة كهربائية ولا جلّاية ولا تلفزيون ولا مغطس في الحمّام، لكن المطبخ زوّد مغسلة وفرن غاز عتيقاً رخيصاً. أما الاتصالات الهاتفية فكانت تتم عبر خط مشترك، والإرسال الإذاعي يعلق ثم ينقطع في أحسن الأحوال. الجدران الخارجية كانت مطلية حديثاً لكن من الداخل كان البيت يتهاوى: أرضيات متكسرة وسقوف منهارة، وفي الخزائن والمناضد[1] جحافل من الفئران، وورق الجدران في غرف النوم مبقّع بالماء ومنظره بشع جداً؛ وفي كل أنحاء البيت أثاث غير مريح من أسرّة هابطة غير مستوية وكراس متمايلة وأريكة من دون وسائد «خاسفة» في غرفة المعيشة. لم يعد أحد يسكنه، فالمالكة السابقة المتوفاة التي كانت عزباء طاعنة في السن من دون أسرة مباشرة تورثها وهبت في وصيتها البيت لأولاد أصدقاء وصديقات لها متعددي المشارب والبيئات: ثمانية أشخاص من رجال ونساء كانوا يقيمون في أنحاء مختلفة من البلاد، من «كاليفورنيا»، إلى «فلوريدا»، ولكن ما من أحد منهم في «فيرمونت» أو في أي مكان في «نيو إنغلاند». كانوا جدّ مبعثرين ومتفرّقين لا يجمعهم أي رابط سواء فيما بينهم أو مع البيت، ولهذا لم

(١) الخزائن الخفيفة ذات المرايا والأدراج. (المترجمة)

يبتّوا بأمره ولم يستطيعوا الاتفاق على بيعه أو على تحسينه أو هدمه، وتركوا مهمة الإشراف على البيت وملحقاته في عهدة أحد الوكلاء العقاريين المحليين. المستأجرة الأخيرة كانت شابة حوّلت البيت إلى مزرعة ماريغوانا وازدهر عملها بتوظيفها عصابة من الدرّاجين العنيفين المشاكسين بصفتهم قوة مبيعاتها، وكانت وقت معرفتك بالمكان في انتظار تحديد فترة بقاء طويلة في السجن. بعد اعتقالها بقي البيت خالياً مدة عامين، وعندما استأجرته أنت وزوجتك في ربيع العام ١٩٨٩ بناء على صورة وحيدة للبيت من الخارج (جميلة جداً)، لم تكن تملك أدنى فكرة عما تورّطتما فيه. نعم، أبلغت الوكيل أنك كنت تبحث عن مكان ناء؛ لم ترعبك تلك الكلمة «ريفي» أو تثير لديك أي توجسات، ولكن بالرغم من أنه قد نبّهك بالقول إنّ البيت لم يكن بأفضل حال، لم يتخيل أي منكما أنكما ستدخلان كوخاً متداعياً. تذكر جيداً ليلتك الأولى هناك متسائلاً بصوت عالٍ إن كان ممكناً تحمّل البقاء في مثل ذلك المكان صيفاً بأكمله، لكن زوجتك تلقّت الصدمة بهدوء، كما لم تفعل أنت. طلبت إليك التزام الصبر وإعطاء نفسك مهلة أسبوع أو أكثر قبل أن تتخذ القرار بمغادرة المكان على وجه السرعة، مضيفة أنه من الممكن أن يغدو مكاناً أفضل مما اعتقدت. في الصباح التالي استهلّت يومها بحملة مكثّفة وقوية من الفرك والتبييض والتعقيم وراحت تفتح النوافذ لتهوئة الغرف الفاسدة الهواء، وترمي الستائر الممزّقة والبطانيات المتهرئة وتنظف الفرن المسود وتزيل القمامة وتعيد ترتيب خزائن المطبخ وتكنّس وتنفض الغبار وتلمّع الزجاج والأرضيات، وقد ثارت دماؤها الإسكندنافية بما امتاز أجدادها الأوائل من استقامة وتفانٍ في العمل. في غضون ذلك كنت تخرج عابراً الفناء حاملاً دفاتر ملاحظاتك وآلتك الكاتبة متوجّهاً إلى المبنى الإضافي: بناء شبيه بمقصورة ألحق

بالمبنى الرئيس في فترة لاحقة، وقد بات المكان خَرِبةً على أيدي فتاة الماريغوانا وأصدقائها بحيث حوّلوه إلى مكبّ نفايات من مفروشات مكسورة ونوافذ مغطاة بستائر ممزّقة وجدران ملأى بالرسوم والشعارات: مكان لا أمل في إنقاذه. شيئاً فشيئاً قمت قدر استطاعتك بلملمة ومنع الفوضى والقذارة وبالتخلّص من الأشياء المكسورة وبتنظيف أرضيات اللينوليوم المتشققة. وما هي إلا أيام قليلة حتى وضعت طاولة خشبية خضراء في الغرفة الأمامية وعدت تعمل على روايتك من جديد. ما أن تعوّدت البيت الذي أنقذته زوجتك من القذارة والفوضى واللانظام، حتى لقيت نفسك تحب البقاء فيه واكتشفت أن ما بدا للوهلة الأولى بؤرة بؤس وقذارة دائمة لم يكن في الواقع غير انعكاس لحالة البيت التي يرثى لها. تمكّنت من تعوّد الأرضيات والسقوف المتشققة التي كانت تتساقط. أمكنك أن تتعلّم التعامي عن عيوب البيت لأنه لم يكن ملكك، وشيئاً فشيئاً بدأت تقدّر الإيجابيات الكثيرة التي قدّمها لك المكان: الصمت والهدوء وجو «فيرمونت» البارد (كنتم ترتدون السترات في الصباح حتى في الأيام الأكثر دفئاً)، ونزهات العصريات في الغابة الصغيرة، ومنظر ابنتك الصغيرة وهي تلهو بصخب عارية في الفناء والعزلة الهادئة التي أتاحت لك ولزوجتك متابعة عملكما من دون تدخلات خارجية. وهكذا داومت على الرجوع إليه صيفاً بعد آخر حيث احتفلت بعيد ميلاد ابنتك الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس؛ وفي آخر الأمر أخذت تفكّر جدّياً في شراء البيت الذي لم يكن ليكلفك مالاً كثيراً، إذ كان أرخص من البيوت الأخرى البعيدة عنه عدة أميال في النواحي المجاورة. ولكن عندما فكّرت مليّاً في كلفة ترميم خربتك الصيفية، وفي إنقاذها من السقوط والموت الوشيك أدركت أنك لن تتمكّن من توفير المال اللازم لتنفيذ مشروع كهذا وأنه

في حال توافر لك المال الكافي فالأفضل لك مغادرة شقتك التعاونية المنمنمة في «ثيرد ستريت» والعثور على مكان أوسع للعيش في «نيويورك».

٢١- في مكان من «بارك سلوب، بروكلين». مبنى مشيّد بالحجر الأسمر مؤلف من أربع طبقات ملحق بحديقة صغيرة في الخلف، شيّد في العام ١٨٩٢. العمر من سن السادسة والأربعين إلى الحاضر. غادرت زوجتك «مينيسوتا» خريف العام ١٩٧٨ لدراسة المواد المقرّرة في منهاج الدكتوراه في الأدب الإنكليزي في «كولومبيا» لأنها أرادت العيش في «نيويورك» وسبق أن رفضت أكثر من عرض هام للدراسة والتدريس في جامعات أخرى كثيرة، وتحديداً «كورنيل» و«ميتشيغان»، كي تكون في «نيويورك». وعندما التقيتها في شهر شباط/فبراير عام ١٩٨١، كانت بنت «مانهاتن» بكل معنى الكلمة، خبيرة بطرقاتها وملزمة نفسها بها، ولم تعد تتخيّل العيش في مكان آخر. ثم ربطت مصيرها بمصيرك واستقررتما في نهاية الأمر في الضواحي النائية من «بروكلين». ربما لم تأسف على هذا القرار، لكن «بروكلين» لم تكن واردة إطلاقاً في ذهنكما كمكان سكن لكما. والآن بما أنكما قررتما البحث عن مكان آخر للعيش قلت لها إنك كنت مستعداً للذهاب إلى أي مكان من اختيارها وإنك لم تكن متعلقاً لدرجة كبيرة «ببروكلين» وإن مغادرتها لن تكون مبعث ندم لك، وإنها إن أرادت العودة إلى «مانهاتن» فسوف يسعدك مشاركتها في البحث عن مكان سكن لكما هناك. قالت: «لا، لنبقَ في «بروكلين»». قالتها من دون التوقف لحظة للتفكير في الأمر أو من دون ضرورة للتفكير فيه. لم تشأ العودة إلى «مانهاتن» فقط، بل الاستمرار في العيش في الحي ذاته حيث كنت تقيم. لحسن الحظ إنّ السوق العقارية كانت قد

انهارت حينذاك، وبالرغم من اضطرارك إلى بيع شقتك، التي حُدّد لها ثمن فاحش في السابق، بسعر متدن وبخسارة، كان سعر البيت الذي اشتريته ملائماً لإمكاناتك أو قصّر عنها بقليل، ولكن ليس إلى حدّ التسبب لك بصعوبات دائمة. استغرقت عملية البحث المضني قبل العثور عليه سنة كاملة إضافة إلى ستة أشهر أخرى بعد إنهاء المعاملات قبل أن تتمكن من الانتقال إليه، ومن بعدها أصبح هذا البيت ملكك: مكان كبير كافٍ ليؤويكم كلّكم بجميع غرف النوم والمكاتب التي احتجتم إليها والمساحة الكافية للجدران اللازمة لوضع ألوف الكتب التي امتلكتها أنت وزوجتك على الرفوف ومطبخ واسع لإدخال الهواء إلى الرئتين ومراحيض واسعة لالتقاط الأنفاس، وغرفة للضيوف من أجل الزوّار من أصدقاء وأقارب، وأرضية غير مسقوفة خارج المطبخ لتناول المشروبات والوجبات في الأيام الدافئة؛ وهناك أيضاً الجنينة الصغيرة في الأسفل. شيئاً فشيئاً وعلى مدى الثماني عشرة سنة التي أقمت فيها هناك، وهي إلى الآن أطول فترة أقمت فيها في مكان واحد، إلى حد أنها بلغت ثلاثة أضعاف طول مدة مكثك في أي مكان آخر، داومت على إصلاح كل شبر في الغرف جميعها وعلى كل الأرضيات وتحسينه، محوّلاً بذلك بيتاً قديماً متداعياً وفي حالة يرثى لها إلى مكان مشع وجميل، مكان يشعرك بالمتعة والغبطة في كل مرة تطأه قدماك. وبعد ثماني عشرة سنة لم يعد يعنّ لك التفكير في بيوت سواه في أحياء أو مدن أو بلاد أخرى. هو مكان سكنك والمكان الذي ترغب في العيش فيه حتى تعجز عن تسلّق الدرج ونزوله؛ لا بل أكثر من ذلك: حتى تعجز عن صعود الدرج ونزوله زحفاً على ركبتيك ويديك، وإلى أن تحمل إلى القبر وتوضع فيه.

عشرون عنواناً دائماً وزد عليها واحداً منذ الولادة إلى الحاضر

بالرغم من صعوبة الكلمة الصائبة عندما تفكّر في عدد المرات التي تنقّلت فيها من مكان إلى آخر في مسيرة حياتك. عشرون محطة توقف، ثم عدد وفير من عناوين أفضت إلى العنوان الواحد الذي قد يتبين أو لا يتبين أنه دائم. بيد أنك بالرغم من «سكنك» في تلك البيوت والشقق المختلفة الإحدى والعشرين، ومن دفعك فواتير الغاز والكهرباء فيها، ومن تسجيل اسمك لإعطاء صوتك في الانتخابات فيها، بالرغم من ذلك كله لم يمكث جسدك وقتاً طويلاً أو قصيراً في أي منها إلا نادراً؛ وعندما تبسط خريطة بلادك وتبدأ بعدّ الأماكن التي زرتها، تجد أنك حللت في أربعين ولاية من أصل خمسين، مكتفياً بالمرور في بعض الأحيان (كما جرى في «نبراسكا» وأنت مسافر في القطار إلى «الساحل الغربي» عام ١٩٧٦)، لكنك أكثرت من الزيارات التي دامت عدة أيام أو أسابيع أو حتى شهور كما جرى على سبيل المثال في «فيرمونت» أو «كاليفورنيا» حيث لم تلبث سنة ونصف سنة فقط، بل عرّجت عليها من وقت إلى آخر بعد انتقال والدتك وزوجها إليها في مطلع السبعينيات، فضلاً عن رحلاتك الخمس والعشرين أو السبع والعشرين إلى «نانتوكيت» وزيارتك السنوية في الصيف لصديقك الذي يملك بيتاً في الجزيرة حيث اعتدت المكوث أقله أسبوعاً كل عام. وإذا حسبنا العدد الإجمالي لأمد هذه الزيارات فسيبلغ ستة شهور تقريباً؛ هذا عدا الشهور العديدة التي أمضيتها في «مينيسوتا» مع زوجتك، والصيفيتين الكاملتين اللتين قضيتهما هناك حين كان أهلها في «النروج»، والزيارات الربيعية والشتوية التي لا تحصى طوال الثمانينيات والتسعينيات والعقد الأول من الألفية الثانية، ربما كان عددها الإجمالي خمسين، أي سنة أكثر من عمرك، إضافة إلى زيارات متكررة إلى «بوسطن» بدأتها عندما كنت في العقد الثاني من عمرك، ونزهاتك الجوالة المطوّلة

في طول الولايات الغربية الجنوبية وعرضها في عامي ١٩٨٥ و١٩٩٩، والمرافئ المختلفة حيث رست ناقلة البترول التي كنت تعمل على متنها بصفتك تاجراً بحرياً في العام ١٩٧٠ على طول شواطئ «تكساس» و«فلوريدا»؛ كما لا تنسى السفرات التي قمت بها بصفتك كاتباً زائراً والتي أوصلتك إلى أماكن مثل «فيلاديلفيا» و«سنسناتي» و«آن آربور» و«باولنغ غرين») و«دورهام» و«نورمال» و«إيلينوا»؛ ورحلاتك القصيرة البرمائية[1] إلى «واشنطن دي.سي» حين كنت تعدّ «مشروع القصص الوطنية» لدى «الإذاعة العامة الوطنية» (NPR)؛ والأربعة شهور التي قضيتها في المخيم الصيفي في «نيو هامبشير» حين كنت في الثامنة والعاشرة؛ والإقامات الثلاث الطويلة والموقتة في «ماين» (١٩٦٧ و١٩٨٣ و١٩٩٩)، كما لا يمكن أن تغفل ذكر زياراتك الأسبوعية إلى «نيو جيرسي» منذ العام ١٩٨٦ حتى العام ١٩٩٠ عندما كنت تدرّس في «برينستون». كم يوماً أمضيته بعيداً عن المنزل، وكم ليلة قضيتها في سرير غير سريرك؟ ليس هنا في «أميركا» فقط بل في الخارج أيضاً، لأنك حين تفتح أطلسك على صفحة خريطة العالم، تجد أنك سافرت إلى جميع القارات ما عدا «إفريقيا» و«أنتاركتيكا»[2] حتى وإن لم تحسب الثلاث سنوات ونصف السنة التي قضيتها في فرنسا (حيث كانت لديك عدة عناوين ثابتة ولو موقتاً)، كانت زياراتك لبلدان أجنبية متكررة وفي بعض الأحيان طويلة نوعاً ما: سنة إضافية في «فرنسا» في

---

(١) على متن مركبات مسطحة القعر تستخدم لنقل الجند والمعدات من السواحل إلى اليابسة في خلال عملية اقتحام عسكرية برمائية. (المترجمة)

(٢) قارة غير آهلة بالسكان تحيط بالقطب الجنوبي ويكسوها الثلج على نحو يكاد يكون تاماً. (المترجمة)

رحلات متعددة أخرى قبل فترة إقامتك فيها وبعدها؛ وخمسة أشهر في «البرتغال» (معظمها في العام ٢٠٠٦ من أجل تصوير فيلمك الأخير)، وأربعة أشهر في المملكة المتحدة (إنكلترا وإسكتلندا وويلز)؛ وثلاثة أشهر في «كندا» وثلاثة أشهر في «إيطاليا» وشهران في «إسبانيا» وشهران في «إيرلندا» وشهر ونصف شهر في «ألمانيا» وشهر ونصف شهر في «مكسيكو» وشهر ونصف شهر في جزيرة «بيكيا» «في جزر غرينادين»؛ وشهر في «النروج» وشهر في «إسرائيل» وثلاثة أسابيع في «اليابان» وأسبوعان ونصف الأسبوع في «هولندا» وأسبوعان في «الدنمارك» وأسبوعان في «السويد» وأسبوعان في «أستراليا» وتسعة أيام في «البرازيل» وثمانية أيام في «الأرجنتين» وأسبوع واحد في جزيرة «غوادلوب»[1] وأسبوع واحد في «بلجيكا» وستة أيام في جمهورية «تشيكيا» وخمسة أيام في «إيسلندا» وأربعة أيام في «بولندا» ويومان في «النمسا». تود أن تحسب مجموع الساعات التي أمضيتها في السفر إلى هذه الأماكن (أي كم يوماً وأسبوعا وشهرا). لكنك لن تعرف كيف تبدأ، فلم تعد تتتبّع عدد رحلاتك في «أميركا» ولا تملك أدنى فكرة عن عدد المرات التي غادرت فيها «أميركا» وسافرت إلى الخارج. لذا لن تتمكن مطلقاً من أن تخرج برقم دقيق أو حتى تقريبي لتحديد عدد آلاف الساعات المحتسبة من عمرك التي أمضيتها بين مكان وآخر، ومن هنا إلى هناك وبالعكس، والأوقات التي لا تحصى التي كرّستها للجلوس في الطائرات والباصات والقطارات والسيارات، والأوقات التي أهدرتها وأنت تجاهد للتغلب على آثار

---

(١) مستعمرة فرنسية.. وجزء من جزائر الهند الغربية الفرنسية تقع في البحر الكاريبي. (المترجمة)

الإرهاق النفثي[1] السلبية، والتبرّم والملل وأنت تنتظر سماع صوت يعلن موعد إقلاع رحلاتك في المطارات، والضجر القاتل من جرّاء الوقوف قرب سير الحقائب الدوّار في المطار منتظراً تدحرج حقيبتك في المزلق؛ ولكن ما من شيء أكثر إرباكاً وإزعاجاً من ركوب الطائرة في حد ذاته والإحساس الغريب الغامر بأنك في العدم كلما دخلت جوف الطائرة، بالعجز عن التصرف حيال كونك مسيّراً في الفضاء بسرعة خمسمئة ميل في الساعة وكونك بعيداً جداً عن الأرض، بحيث تفقد الإحساس بواقعيتك وكأنما حقيقة وجودك أفلتت منك تدريجاً؛ ولكن هذه هي الكلفة الباهظة الواجبة عليك لقاء مغادرتك المنزل، وما دمت مسافراً فسيبقى اللامكان الكامن بين الهنا في المنزل والهناك في مكان ما آخر أحد أماكن إقامتك.

تودّ أن تعرف من تكون. وبما أنه ليس ثمة شيء تقريباً يدلك على الجواب تسلّم جدلاً بكونك نتاج هجرات جماعية أزلية هائلة العدد قائمة على الغزوات وأعمال الاغتصاب والخطف، وبكون تلك التقاطعات الملتوية والطويلة الأمد لجموع أسلافك اتسعت وامتدت وبسطت نفوذها على مناطق وممالك عديدة؛ وليكن في علمك أنك لست الشخص الوحيد الذي ارتحل أيضاً وصال وجال، فقد دأبت قبائل بشرية في الترحال في أنحاء الأرض على مدى عشرات ألوف السنين؛ ومن يعلم حقيقة سلالتك وهويتها قبل انتهاء والديك اللذين أنجباك عام ١٩٤٧؟ لا يسعك الرجوع إلى أبعد من جدّيك، إضافة إلى معلومات ضئيلة عن جديك الكبيرين لأمك، ما يعني أنّ الأجيال

---

(١) حالة تتميز بضروب من الآثار الفيسيولوجية والسيكولوجية، كالتعب وسرعة الاهتياج، مردّها إلى الإسراف في ركوب الطائرات النفاثة مسافات طويلة من غير ما توقف في أثناء الرحلة. (المترجمة)

التي سبقتهما ليست أكثر من بياض، فراغ غير ملآن، وشغور قائم على الحدس والتخمين «عالعميانة». جداك لوالدتك وجداك لوالدك كانوا من يهود أوروبا الشرقية. ولد جدّاك لوالدك في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر في مدينة «ستانيسلاف» الواقعة في مقاطعة «غاليسيا»[1] المنعزلة، التي كانت حينذاك جزءاً من الإمبراطورية النمساوية المجرية وأصبحت لاحقاً جزءاً من «بولندا» بعد الحرب العالمية الأولى، وفي ما بعد جزءاً من الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الباردة هي جزء من «أوكرانيا»؛ بينما ولد جدّاك لوالدتك في عامي ١٨٩٣ و١٨٩٥: جدتك في «منسك» وجدك في «تورونتو»، بعد مرور سنة على هجرة عائلته من «وارسو». الشعر الأحمر كان صبغة مشتركة بين جدّتيك، وثمة خليط من الملامح الظاهرية المتنافرة والمتضادة التي ورثها العديد من أفراد ذرّيتهما: من ذوي الشعر الأدكن إلى ذوي الشعر الأشقر ومن ذوي البشرة السمراء إلى ذوي البشرة البيضاء الباهتة والمنمّشة، ومن ذوي الشعر المتموّج والجعد إلى ذوي الشعر المنساب من دون تموجات ومن الأجسام البدينة التي يوصف بها أهل الأرياف والمتميّزة بالأرجل الثخينة والأصابع القصيرة والغليظة إلى أصحاب القامات الرشيقة الممشوقة. هذه هي مجموعة السمات الجينيّة المتحدرة من سلالتك الأوروبية الشرقية، ولكن من يعلم أين كانت تلك الأشباح، التي لا أسماء لها، تجول قبل قدومها إلى مدائن في روسيا وبولندا والإمبراطورية النمساوية المجرية؟ لأنه كيف يمكنك أن تعلل بغير هذه الطريقة سبب وجود هر سيامي أزرق [وحمة] على ظهر شقيقتك، وهذه صفة محصورة بالأطفال الآسيويين

(١) منطقة في الجزء الجنوبي الشرقي من بولندا والجزء الشمالي من أوكرانيا. (المترجمة)

فقط، وكيف يمكنك أن تعلّل بغير هذه الطريقة امتلاكك بشرة ضاربة إلى السُّمرة فضلاً عن شعرك المتموج وعينيك الزرقاوين الرماديتين، وكونك حيّرت الناس في تحديد هوية إثنية لك لأنك طوال حياتك أضفى عليك مواطنون من بلاد أجنبية مختلفة جنسيات شتى، جازمين أنك إيطالي ويوناني وإسباني ولبناني ومصري وحتى باكستاني؟ لأنك لا تعلم شيئاً عن المكان الذي جئت منه، قررت منذ عهد طويل أن تفترض أنك مركّب أو مؤلف من جميع الأجناس المنتمية إلى نصف الكرة الشرقي[1]: جزء منك إفريقي وآخر عربي وآخر صيني وآخر هندي وآخر قوقازي، أي خليط من حضارات متصارعة مختلفة ومتنوعة في جسد واحد. من إيجابيات هذا الافتراض أنه يمثّل موقفاً أخلاقياً، طريقة ما لشطب مسألة العرق التي هي مسألة مزيفة برأيك، مسألة لا تجلب إلا الخزي والعار على كل من يسأل عنها. بناء على هذا قررت عن وعي أن تمثّل الجميع وتشمل الجميع في داخلك لكي تكون في حالتك السويّة من غير قيود بما أنّ السؤال: من تكون؟ يحمل في طياته لغزاً كبيراً وأنت فاقد الأمل من إمكان إيجاد حلّ لهذا اللغز في يوم من الأيام.

عيد ميلادك أقبل وأدبر. أنت في الرابعة والستين الآن وبتّ أقرب زمنياً، أكثر من أي وقت مضى، إلى بلوغ سن التقاعد وإلى عهد الضمان الصحي وخدمات التأمين الاجتماعي؛ أنت أقرب، أكثر من أي وقت مضى، إلى زمن يزداد فيه عدد الأصدقاء الذين يرحلون عنك. رحل عدد كبير منهم إلى الآن، لكن ما عليك إلا انتظار الطوفان الآتي.

(١) الشطر من الأرض الواقع شرقي المحيط الأطلسي وهو يشمل أوروبا وإفريقيا وآسيا وأوستراليا. (المترجمة)

ما خفف عنك أنّ هذه المناسبة مرّت من دون صخب وادعاء بل بكل هدوء، وأنجزت الأمر من غير عناء: عشاء بسيط مع بعض الأصدقاء في «بروكلين» طارداً من رأسك أي أفكار لها صلة بتذكيرك بأنك بلغت هذه السن البغيضة. الثالث من شباط/فبراير، أي بعد يوم واحد فقط على عيد ميلاد والدتك التي جاءها المخاض في صباح اليوم الذي بلغت فيه سن الثانية والعشرين. جئت قبل اليوم المحدد بتسعة عشر يوماً، وعندما سحبك الطبيب من جسدها المخدّر بالملقط كان منتصف الليل قد انقضى قبل ثلث ساعة، أي بعد تاريخ ميلادها بأقل من نصف ساعة. لذلك داومتما على الاحتفال بعيد مولدكما معاً؛ وحتى الآن، أي بعد مرور تسعة أعوام على رحيلها، لا مناص من التفكير فيها كلما أعلنت الساعة انقضاء الثاني من شباط/فبراير وقدوم الثالث منه. يا لك من هدية غير مرتقبة قدّمت إليها تلك الليلة التي مرّ عليها أربعة وستون عاماً بالضبط: وليد ذكر بمناسبة عيد ميلادها، ولادة للاحتفال بولادتها.

أيار/مايو عام ٢٠٠٢. يوم سبت تتحدث فيه مطولا عبر الهاتف مع والدتك: المحادثة الطويلة التي تسودها المعنويات المرتفعة؛ بعد إغلاقك السماعة تلتفت إلى زوجتك وتقول: «لم تبد لي سعيدة بهذا القدر منذ سنوات خلت». يوم الأحد تسافر زوجتك إلى «مينيسوتا» ، لأنه تم الإعداد للاحتفال بعيد ميلاد والدها، الذي سيبلغ الثمانين، في عطلة الأسبوع المقبل، وسوف تذهب إلى «نورث فيلد» لمساعدة والدتها على القيام بالترتيبات اللازمة. تبقى في «نيويورك» مع ابنتك البالغة أربعة عشر عاماً التي يجب عليها الذهاب إلى المدرسة، لكنكما ومن دون شك ستسافران إلى «مينيسوتا» لحضور الحفلة أيضاً، وتم حجز تذكريتكما ليوم الجمعة. وللمناسبة نظمت قطعة شعرية هزلية على

شرف «حميك»، وهذا هو النوع الوحيد من الأشعار الذي ما زلت تنظمه: مقاطع شعرية تتميز بخفّة الأسلوب في أعياد الميلاد والأعراس وفي مناسبات عائلية أخرى. يطل يوم الاثنين وينصرم، وكل أحداث ذلك اليوم تمحى من ذاكرتك. يوم الثلاثاء ستلتقي الساعة الواحدة امرأة فرنسية في منتصف العشرينيات تسكن في «نيويورك» منذ عدة سنوات، وقد التزمت بموجب عقد عمل مع ناشر فرنسي كتابة دليل سياحي عن المدينة [نيويورك]. ولأن هذه الشابة تعجبك وتشعر أنها كاتبة واعدة، وافقت على التحدث إليها عن «نيويورك»، غير متيقن أنّ ما ستقوله لها سوف يخدم مشروعها كثيراً، لكنك برغم ذلك ترغب في المحاولة واختبار النتيجة. إنها الثانية عشرة ظهراً وأنت تقف قبالة مرآة الحمام ومعجون الحلاقة على وجهك موشكاً على تناول الموسى والبدء بما يلزم لكي يكون مظهرك لائقاً في المقابلة؛ ولكن قبل أن تهمّ بالانقضاض على شعرة واحدة نامية على وجهك يرنّ جرس الهاتف. تذهب إلى غرفة النوم لالتقاط السمّاعة، وترتبك وأنت تمسكها بيدك خشية تلويثها بمعجون الحلاقة؛ تسمع من الطرف الآخر نحيباً. الشخص الذي اتصل بك في حالة يرثى لها من الألم والكرب، وشيئاً فشيئاً يتبيّن لك أنها «ديبي»، الشابة التي تنظف شقة والدتك مرة في الأسبوع وتقضي حاجاتها بين الحين والآخر. ما تقوله لك «ديبي» الآن هو أنها دخلت تواً الشقة ورأت والدتك على السرير، جسد والدتك على السرير، جثة والدتك على السرير. تشعر بأن قلبك هوى من مكانه لدى تلقيك النبأ. الذهول يرخي بقبضته عليك، وتنضب الأحاسيس في داخلك. أنت غير قادر على التفكير؛ حتى وإن كنت لا تتوقع حدوث هذا الأمر الآن إطلاقاً (لم تبد سعيدة بهذا القدر منذ سنوات خلت) لا تفاجأ بما تبلغه إليك «ديبي»، لا تصدم، لا تذهل، حتى لا تفاجأ. «ما خطبك؟»

تسأل نفسك. والدتك توفيت تواً وأنت تحوّلت إلى لوح خشب. تطلب إلى «ديبي» انتظارك حيث هي وتقول لها إنك سوف تصل إلى هناك بأسرع ما يمكن [«فيرونا»، «نيو جيرسي» ومن ثم إلى «مونتكلير»]؛ وبعد ساعة ونصف ساعة أنت في شقة والدتك، تنظر إلى جثتها الممددة على السرير. سبق أن شاهدت جثثاً عديدة، كما ألفت رؤية الجثث الهامدة والخاملة وكذلك الجمود الذي يصيب الأجساد التي لم تعد حية. ولكن ولا واحدة من تلك الجثث كانت جثة والدتك، وما من جسد ميت آخر دبّت فيه حياتك؛ تستطيع أن تنظر إليه ولكن ليس أكثر من ثوان قليلة قبل أن تشيح بوجهك بعيداً. امتقاع بشرتها المزرقّة، وعيناها نصف المغمضتين المثبتتان على اللاشيء؛ هي ذات خامدة ممددة على غطاء السرير بثوب النوم وبرنس الحمّام، وجريدة يوم الأحد مبعثرة من حولها، رجل عارية متدلية على حافة السرير، رغوة بيضاء متجمدة على جانب فمها. لا تقدر أن تنظر إليها ولن تفعل ذلك؛ تلاقي النظر إليها أمراً يفوق قدرتك؛ ومع ذلك وحتى بعد أن نقلها المسعفون إلى خارج الشقة على لوح ذي عجلات، في حقيبة سوداء للجثث. تظل فاقد الشعور. لا دموع ولا صرخات ألم ولا حزن أو أسى: إحساس غامض بالذعر ينمو داخلك فقط. قريبتك «ريجينا» معك الآن: ابنة عم والدتك، ولقد أتت في السيارة من بيتها في «غلين ريدج» المجاورة لمؤازرتك. هي ابنة الأخ الوحيد لجدّك، تصغر والدتك بخمسة أو ستة أعوام، وقريبتك (ابنة عم أمّك) ومن الأشخاص القليلين في عائلتي والديك الذين تشعر بصلة قربى بينك وبينهم: فنانة وأرملة فنان، الشابة البوهيمية التي فرّت من «بروكلين» في مطلع الخمسينيات للعيش في المجتمع المندمج القروي؛ وهي تلازمك طول النهار. تساعدك هي وابنتها «آنا»، المكتملة النمو، على ترتيب مقتنيات والدتك وأوراقها،

وتتباحثان معك في الأمور العملية بعد أن تجهد في التوصل إلى قرار بشأن ما يجب القيام به من ترتيبات لازمة بعد وفاتها لأنها لم تترك وصية ولم تتحدث عن رغبات تريد تحقيقها بعد مماتها (دفن جثتها أو إحراقها، إقامة جنازة أو عدمها). أعدّتا معك قوائم تحوي جميع المهمات العملية التي ينبغي القيام بها والتي لا تتحمل التأجيل. في تلك الليلة وبعد تناول العشاء في أحد المطاعم، تصطحبانك إلى بيتهما وترافقانك إلى غرفة الضيوف حيث تقضي ليلتك. ابنتك تبقى في «بارك سلوب» مع بعض الأصدقاء وزوجتك موجودة مع أهلها في «مينيسوتا»، وبعد أن تتكلم معها مطوّلاً عبر الهاتف بعد العشاء يجافي النوم عينيك. سبق أن اشتريت زجاجة ويسكي إسكتلندي لمؤانستك، وهكذا تجلس في الغرفة السفلية حتى الثالثة أو الرابعة فجراً، وتأتي على نصف زجاجة فيما تحاول التفكير في والدتك، لكن ذهنك لا يزال متبلداً من هول الصدمة إلى حدّ عدم القدرة على التفكير في شيء. أفكار مبعثرة؛ أفكار غير هامة تأتي ببالك، وإلى الآن ما من حافز للبكاء، والانهيار والتفجّع على والدتك ولا تبدو عليك علامات الأسى والتحسّر. ربما تخاف مما سيحدث لك إن تركت نفسك على هواها، ومن عدم القدرة على كبح نفسك إذا ما أطلقت العنان لها بالبكاء؛ ربما تخشى أن يكون الألم موجعاً جداً وأن تنهار؛ ولأنك لا ترغب في مواجهة احتمال فقدان السيطرة على نفسك، تعضّ على جرحك وتكتم الألم وتبقيه داخلك. تفتقد زوجتك؛ تشتاق إلى رؤيتها كما لم تفعل منذ تزوجتها، لكونها الشخص الوحيد الذي يعرفك بما يكفي ليطرح الأسئلة الصائبة؛ هي الشخص الوحيد الذي يمتلك الثقة والإدراك الكافيين لتحفيزك على كشف بواطنك والبوح بمكنونات غالباً ما يستعصي عليك فهمها. آه لو كانت معك الآن مستلقية إلى جانبك في

السرير بدلاً من الجلوس وحدك في غرفة مظلمة في الثالثة فجراً بمعية زجاجة ويسكي. يظل الصباح وتستمر قريبتك وابنتها في مساندتك ومساعدتك على القيام بالواجبات التي تستلزمها المناسبة: زيارة مكان حفظ الجثث قبل حرقها وانتقاء قنينة لحفظ رمادها (بعد استشارة زوجتك وخالتك وابنة عم والدتك، تقرّر بالإجماع القيام بحرق الجثة وليس إقامة جنازة لها على أن يقام قداس لإحياء ذكراها في وقت ما بعد الصيف)، والزيارات القصيرة للمسؤول عن العقارات وسائق السيارة والمولج بالاهتمام بالأثاث والمسؤول عن مدّ الأسلاك التلفزيونية الأرضية والاتصال بجميع المعنيين ببيع وتفكيك أو فصل وطرح ما يلزم؛ ومن ثمّ، وبعد نهار طويل من الغوص في «توافه الأمور» في جو خانق كئيب، تعيدك مقتنياتها في السيارة إلى بيتك في «بروكلين». تتناولون مع ابنتك وجبة جاهزة محمولة. تشكر «ريجينا» لأنها أنقذت حياتك (هذا ما قلته حرفياً لأنك بالفعل لا تعلم ماذا كنت ستفعل لولاها)، وحالما تغادران المكان تبقى ساهراً لبعض الوقت وتتحدث مع ابنتك، لكنها في النهاية تندفع مسرعة إلى غرفتها في الطبقة العلوية للإخلاد إلى النوم. الآن بما أنك أصبحت وحدك مرة ثانية، تتمرّد على النوم من جديد. الليلة الثانية نسخة طبق الأصل عن سابقتها: الجلوس وحيداً في غرفة مظلمة برفقة زجاجة الويسكي ذاتها التي تشربها حتى آخر نقطة هذه المرة؛ حتى الآن ما من دموع أو أفكار مترابطة أو نية للتوقف عن السهر والذهاب إلى السرير. بعد ساعات عديدة تخور قواك أخيراً ويستبد بك الإرهاق والتعب، وعندما تتهاوى على السرير في الخامسة والنصف، يكون الفجر قد انبلج في الخارج والعصافير أخذت تغرّد. تفكر أن تنام أطول مدة ممكنة، أي عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة، إذا تيسَّر لك ذلك مدركاً أنّ تغييب الوعي

هو علاجك الوحيد الآن؛ ولكن بعد الساعة الثامنة مباشرة، أي بعد أن تكون قد نمت ساعتين ونصف ساعة تقريباً نوم السكارى: غارقاً في سبات عميق، يرنّ الهاتف. لو كان الهاتف في الجهة الأخرى من الغرفة لما كنت سمعته على الأغلب، لكنه موضوع هنا على طاولة الليل إلى جانب وسادتك، لا يبعد عن رأسك أكثر من اثني عشر إنشاً، وعن أذنك اليمنى أكثر من أحد عشر إنشاً. بعد اللّه يعلم كم رنّة (لن تعرف عدد الرنات) تنفتح عيناك لا إرادياً. في خلال هذه الثواني الخمس الأولى التي تتردد فيها بين الوعي واللاوعي، تدرك أن مشاعرك في الحضيض وأن جسدك لم يعد الجسد الذي اعتدت تسميته جسدك، أي إن هذه الذات الجسدية الجديدة والغريبة قد دقّت بمئة مطرقة خشبية، وجرّتها الجياد مسافة مئة ميل على أرض قاحلة ملأى بالصخور والصبار، غدت كومة تراب بمطرقة هائلة وزنها مئة طن. مجرى دمك مشبع بالكحول بحيث تبدو هذه المادة نافذة من مسام جلدك؛ وتفوح من الغرفة كلها رائحة الفم الكريهة والويسكي: نتنة وبغيضة ومقزّزة. ثمة أمنية واحدة تراودك الآن، حبذا لو تتحقق أمنية واحدة فقط ولو كلّفك ذلك التخلي عن عشر سنوات من عمرك: تتمنى فقط إغماض عينيك ومعاودة النوم مجددا. ومع ذلك ولأسباب لن تعرفها مطلقاً (سلطان العادة؟ إحساس بالواجب؟ الاعتقاد بأنّ المتصل هو زوجتك؟)، تتقلب وتمد ذراعك وتلتقط السماعة. المتصلة هي إحدى قريباتك، وبالتحديد إحدى بنات عمومتك، تكبرك بعشر سنوات، لا همّ لها إلا إثارة الخلافات؛ امرأة متطفلة نصّبت نفسها حاكمة أخلاقية. هي آخر شخص على الأرض تودّ التحدث إليه، ولكن بما أنك التقطت سماعة الهاتف فمن غير المقبول إقفال الخط في وجهها وهي تتكلم من دون توقف، بالكاد تتوقف بما فيه الكفاية كي تقول كلمة واحدة أو تعطيك فرصة لمقاطعتها واختصار

المحادثة. تتساءل كيف يمكن مطلق أي شخص أن يلفظ الكلمات مثلها من غير تفكير بهذه السرعة العجيبة؟ وكأنما مرّنت نفسها على حبس أنفاسها وهي تتكلم، وعلى لفظ فقرات كاملة مع زفرة طويلة واحدة، وعلى الاسترسال في سيل كلامي، من دون فاصلة أو نقطة لأخذ نفس بين حين وآخر. ترى باعتقادك أنّ رئتيها ضخمتان، أضخم رئتين في العالم؛ ويا لهذا القدر من الجلد ويا لهذا الدافع القوي الذي لا يرد والذي يحملها على أن تكون لها الكلمة الفصل في جميع الموضوعات. خضت مع قريبتك هذه مواجهات عديدة في الماضي أولها بسبب نشر «اختراع العزلة» في العام ١٩٨٢ الذي قامت بنيته برأيها على فضح أسرار عائلة «أوستر» (جدتك قتلت جدك في العام ١٩١٩)، ومنذ ذلك الحين نبذتك العائلة، تماماً كما جرى لوالدتك بعد طلاقها من والدك (ولهذا السبب قررت عدم إقامة جنازة لها: لا مفرّ عندئذٍ من دعوة بعض أفراد العائلة ممن ينتمون إلى ذلك الفريق إلى المأتم). إلا أن قريبتك هذه ليست غبيّة في الوقت ذاته، فهي من المتخرّجين الجامعيين المتفوقين وعالمة نفسية تمتلك خبرة كبيرة، ناجحة في مجال علم النفس؛ فضلاً عن كونها شخصاً صريحا وحيويا. تصرّ دوماً على التأكيد أنّ عدداً كبيراً من أصدقائها يقرأ رواياتك. لا تنكر أنها سعت غير مرة إلى حلحلة الأمور بينك وبينها على مر السنين وإلى إبطال مفعول الضرر الناجم عن حملتها الكلامية الشرسة التي شنّتها على كتابك منذ عقدين من الزمن. لكنها حتى وإن أظهرت لك مشاعر الودّ والإعجاب الآن، ففي باطنها حقد دفين أيضاً وعداء كامن في محاولتها التقرب إليك. لا يمكن الجزم بحقيقة مشاعرها، إذ يختلط فيها الودّ والحقد، والوضع السائد بينكما شائك ومعقد: حالتها الصحية ليست على ما يرام، فهي منذ مدة تتلقى أكثر من علاج للسرطان ولا

يسعك إلا أن تشعر بالأسى والشفقة على حالها. ولأنها كابدت عناء الاتصال بك، ترغب في أن تفسح لها في المجال لدحض شكوكك حيالها وأن تدعها تقول ما عندها في هذه المكالمة الروتينية القصيرة، ومن بعدها يمكنك التمدد على السرير والنوم من جديد. تستهل مكالمتها بكلام منمق لائق: «لا بد أن تكون قد أخذت على حين غرة، وأن يكون خبر موتها وقع عليك كالصاعقة. فكر في شقيقتك، يا لشقيقتك المسكينة المصابة بالفصام، كيف ستتدبر أمرها الآن وقد رحلت الوالدة؟». باعتقادك أن هذا يكفي، بل هو أكثر من كافٍ للتعبير عن حسن نيتها وتعاطفها؛ وتأمل أن تختصر قريبتك الكلام وتنتهي المكالمة بما أنّ عينيك تغمضان وقد أخذ منك التعب كلّ مأخذ؛ فلن تجد مشقّة في أن تغط في النوم مرة أخرى إذا ما توقفتْ عن الكلام في الثواني القليلة المقبلة. لكنها أخذت تشمّر عن ساعديها وتنفث سمومها، وتشركك في الدقائق الخمس التالية في ذكرياتها الأولى مع والدتك وكيف التقتها عندما كانت فتاة في التاسعة من عمرها فيما والدتك فتية جداً، أي في العشرين أو الحادية والعشرين لا أكثر، وكم كان أمراً مسرّا ومثيراً وجود مثل هذه القريبة الجميلة في العائلة، كائن مفعم بالمحبة والحياة.. وهكذا تظل ساكتاً وأنت تستمع إليها، فلا تقوى على مقاطعتها. وبعد وقت قصير قفزت إلى موضوع آخر مختلف تماماً، لا تعلم كيف تجاوزت الموضوع السابق واستهلّته، لكنك فجأة تسمع صوتها يفتح سيرة تدخينك ويناشدك التوقف النهائي عن هذه العادة قبل أن تُعلّك وتميتك «ميتة» مروّعة قبل الأوان؛ تضيف: «عندما تحتضر سوف ينخرك عذاب الضمير لأنك قتلت نفسك من دون التفكير في العواقب». تسترسل في هذا الموضوع تسع أو عشر دقائق وتشعر أنت بالقلق خوفاً من عدم قدرتك على معاودة النوم مجدداً، لأنها كلما

أطالت الحديث انجررت إلى الوعي واليقظة؛ وبعد أن يتم عبور الخط الفاصل بين الوعي واللاوعي فلا سبيل إلى «العودة». لا يمكنك أن تصمد وأنت لم تنم أكثر من ساعتين ونصف ساعة، لا يمكنك أن تظلّ واقفاً على قدميك في ظلّ الظرف المستجدّ وبهذا القدر من الكحول في دمك؛ وستهلك لا محالة هذا اليوم. ولكن بالرغم من ازدياد الرغبة في إغلاق السمّاعة في وجهها تخونك الإرادة. ثم تبدأ حملتها الهجومية القوية وتسدد طلقات مدفعية كلامية متتالية وجب عليك توقع سماعها لحظة التقاطك السماعة. كيف أمكنك أن تكون ساذجاً إلى درجة الاعتقاد أنها لن تتجاوز تلك الكلمات اللطيفة والتحذيرات شبه الهستيرية؟ بقي هناك الخوض في طباع والدتك. حتى ولو لم يمض على غيابها يومان فقط؛ حتى ولو تقرر حرق جثتها في مرمدة «نيو جيرسي» عصر هذا اليوم بالذات، فلا يمنع هذا كله قريبتك أن تقول ما عندها: «بعد ثمانية وثلاثين عاماً على هجر والدك، أعدّت العائلة قائمة طويلة بالشكاوى بحق والدتك، وقد غدت قوام تاريخ الأسلاف، وباتت الأقاويل والإشاعات المتناقلة والمتداولة حقائق راسخة؛ ولم لا نستعرض قائمة آثامها للمرة الأخيرة لتوديعها كما يجب قبل انطلاقها إلى المكان الذي تستحق؟». تتابع قريبتك أنها [والدتك] لم تقنع قط بما لديها بل كانت دائمة البحث عن أشياء أخرى. تستغلّ الغزل والمجون لمصلحتها الشخصية؛ امرأة كانت تعيش وتحيا للفت انتباه الرجال واهتمامهم: «يا لها من شبقة وداعرة؛ امرأة منغمسة في مضاجعة الرجال؛ امرأة خائنة. أمر مؤسف جداً أن تكون هذه المرأة التي تتمتّع بخصال حميدة أخرى مضطربة السلوك والتفكير على هذا النحو». لطالما دار في خلدك أن يخوض أهل زوجها السابق في مثل هذا الحديث، لكنك لم تسمعه بأذنيك حتى هذا الصباح. تتمتم كلمات غير

مفهومة عبر الهاتف وتقفل الخط. مقسماً على عدم التحدث إليها ثانية ولو بكلمة واحدة طوال عمرك المتبقي. لم تعد تقوى على النوم. على الرغم من الإنهاك الشديد فوق العادي الذي أصابك إلى درجة الهذيان تقريباً، يغلي داخلك كالبركان وتتقاذفك الأفكار من مختلف الجهات وتعلو نسبة الأدرينالين في كيانك كله مرة ثانية وعيناك عصيّتان على النوم؛ فلا مفر إذاً من النهوض من الفراش والبدء بنشاطات اليوم. تنزل إلى الطبقة السفلية وتعدّ ركوة قهوة: لم تعد منذ زمن طويل قهوة سوداء ومركّزة مثلها؛ تحسب أن استهلاكك مقادير هائلة من مادة الكافيين سوف يمدّك بشحنة من الطاقة تبقيك شبه واع، ما يتيح لك أن تسرنم [تسير وأنت نائم] في الجزء المتبقي من الصّباح حتى بعد الظهر. تحتسي الفنجان الأول على مهل. القهوة ساخنة جداً يجب أن تبتلع برشفات صغيرة، لكنها ما تلبث أن تبرد فتسرع بشرب الفنجان الثاني، ثم تسرع أكثر بشرب الفنجان الثالث؛ رشفة تلو الرشفة والقهوة ترشّ معدتك الخاوية مثل الأسيد. تشعر بتسارع دقات قلبك وباهتياج أعصابك وبالنشاط الزائد بسبب الكافيين. أنت مستيقظ الآن، مستيقظ تماماً ومع ذلك لا تزال مرهقاً، ومستنزف القوى ولكن متيقظاً أكثر من أي وقت مضى، وفي رأسك طنين لم تسمعه من قبل: صوت آلي منخفض الطبقة، همهمة، أزيز، وكأنه ذبذبات مذياع تصدر من مكان بعيد. وكلما أكثرت من شرب القهوة قوي إحساسك بتبدل جسدك وتبدّد إحساسك بأنك مصنوع من لحم ودم. ها أنت تغدو الآن مادة أخرى: معدن رنّان، أداة معقدة غريبة الشكل صدئة تحاكي الإنسان: شيء زوّد أسلاكاً وصهيرات ودوائر ضخمة من الأسلاك الكهربائية، تتحكم فيه نبضات كهربائية عشوائية. بما أنك انتهيت من شرب فنجان ثالث، تصب فنجاناً آخر يتبين أنه الأخير، المهلك. تبدأ النوبة بالتزامن

بين الداخل والخارج؛ تشعر فجأة بأن الهواء المحيط بك يضغط عليك، وكأنما قوة خفية تحاول دفعك من تحت الكرسي وطرحك على الأرض؛ ولكن في الوقت ذاته تشعر بدوار غير طبيعي في رأسك، خشخشة تشعرك بالدوار تنقر جدران جمجمتك، وطوال هذا الوقت لا يزال الهواء يشدّد الضغط عليك حتى عندما يصبح داخلك خاوياً، أكثر ظلمة وخواء من أي وقت مضى، وكأنما توشك على الوقوع مغشياً عليك. ثم يتسارع نبضك حتى تشعر بأنّ قلبك يحاول شقّ صدرك، وبعد دقيقة لا يبقى هواء في رئتيك ولم لا تقوى على التنفس. في هذه اللحظة ينتابك الذعر، أي عندما يتعطّل جسدك وتقع على الأرض. فيما أنت متمدّد على ظهرك تشعر بتوقّف مجرى الدم في شرايينك، وشيئاً فشيئاً تتيبّس يداك وقدماك؛ وهنا تبدأ بالصراخ. أنت مصنوع من حجر الآن؛ وفيما ترقد هناك على أرضية غرفة الطعام متيبّساً فاغر الفم، غير قادر على التحرّك أو التفكير، تصيح بذعر فيما تنتظر أن يغرق جسدك في لجة الموت السوداء العميقة.

لم تستطع البكاء. لم تستطع أن تحزن كما يفعل الناس عادة، ولهذا انهار جسدك وحزن نيابة عنك. لم تكن النوبة لتصيبك بالضرورة، لكن ما حتّم حدوثها بعض العوامل العرضية المتنوعة التي سبقتها (غياب زوجتك والكحول وقلة النوم و «تلفون» قريبتك والقهوة). لكن في النهاية لم تحتل تلك العناصر إلا المقام الثاني من حيث الأهمّية. السؤال هو: لم داومت على كبت مشاعرك في اللحظات والساعات التي أعقبت وفاة والدتك؟ لِمَ لمْ تقدر على ذرف دمعة واحدة من أجلها على مدى يومين كاملين؟ هل لأنك في سرّك ابتهجت بموتها؟ يا لها من خاطرة مخيفة ومقلقة جداً إلى درجة أن مجرّد قولها يثير فيك الرعب والذعر؛ ولكن حتى وإن دغدغت هذه الفكرة ذهنك، لن

تستطيع الجزم أن هذا هو سبب حبس دموعك. ولم تبك أيضاً بعد وفاة والدك، ولا بعد موت جدّيك أو قريبتك المقربة إليك التي رحلت عن سن الثمانية والثلاثين لإصابتها بسرطان الثدي، ولا بعد وفاة العديد من الأصدقاء الذين رحلوا عنك سنةً بعد أخرى. ولا حتى في الرابعة عشرة حينما كنت على مسافة قريبة جداً من فتى ضربته الصاعقة وقضت عليه، الصبي الذي قعدت إلى جانب جثته وراقبتها طوال الساعة التي أعقبت وفاته في مرج مغمور بالأمطار وأنت تحاول يائساً أن تدفئ جسده وتحييه لأنك لم تلاحظ أنه ميت؛ حتى تلك الميتة الشنيعة عجزت عن استدرار دمعة واحدة على خدك. تدمع عيناك عندما تشاهد أفلاماً معينة؛ كما انهمرت دموعك على صفحات كتب عديدة، وبكيت في أوقات حزينة جداً على صعيد شخصي. لكن الموت يجمّدك ويجرّدك من أي عاطفة أو انفعال أو شعور أو كل ما له صلة بقلبك. منذ بداياتك الأولى شلّت أحاسيسك في حضرة الموت، وهذا ما حدث لك أيضا عندما توفّيت والدتك، أقله في الفترة الأولى التي أعقبت وفاتها، أي في أول يومين، لكن الصاعقة ضربت مجدداً وأحرقتك.

انسَ ما قالته لك قريبتك عبر الهاتف. نعم، كنت غاضباً منها، وراعك انحدارها إلى درجة ذم الناس والتشنيع بهم في أوقات غير مناسبة كهذه. صحيح أنها استفزتك بكلماتها البذيئة والجارحة والمؤذية بحق والدتك وازدرائها، المبطن بالنفاق، إنساناً لم يمسسها بأي سوء أو أذى، لكن اتهاماتها لأمك بالخيانة الزوجية لم تكن خبراً جديداً بالنسبة إليك آنئذٍ؛ حتى وإن لم تملك أي دليل أو برهان لإثبات صحة الاتهامات أو دحضها، فلطالما خامرك شعور بأن تكون والدتك قد ضلّت الطريق وأثمت وهي متزوجة والدك. كنت في الخامسة والخمسين عندما جرت هذه المكالمة مع قريبتك، ولكونك أمعنت في التفكير وقتاً طويلاً في

تفاصيل زواج والديك التعس، فقد أملت في الواقع أن تكون والدتك قد عثرت على السعادة مع رجل آخر (أو رجال آخرين). ولكن لم تكن على بيّنة من هذا الأمر ولم تشك لحظة في أمرها إلا مرة واحدة فقط، عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وما جرى حيّرك تماماً حينذاك: ذات يوم رجعت إلى البيت من المدرسة وفي ظنّك أنه لا يوجد أحد سواك؛ فالتقطت سمّاعة الهاتف لإجراء اتصال وسمعت صوت رجل على الخط؛ لم يكن صوت والدك؛ لم يقل إلا «وداعاً». ربما هي كلمة عادية لا تثير الشبهات لكنها قيلت بإحساس كبير ورقّة لا متناهية؛ ومن ثم سمعت والدتك تجيبه قائلة: «وداعاً يا حبيبي». على هذا النحو انتهت المكالمة. لم يكن لديك أدنى فكرة عن سياق الكلام المتبادل بينهما ولم تستطع تحديد هوية الرجل، إذ لم تسمع شيئاً تقريباً، ومع ذلك أقلقتك هذه المكالمة وبتّ تفكّر فيها بضعة أيام؛ بلغ القلق مبلغاً منك إلى درجة استجماعك الشجاعة في النهاية لاستفسار والدتك عن الأمر: لطالما شعرت أنها كانت صادقة معك ولم توارب؛ كما أنها لم تمتنع مرة عن الإجابة عن أسئلتك. لكنها هذه المرة، هذه المرة الوحيدة فقط، بدت مرتبكة حينما أخبرتها ما سمعته وكأنما أخذت على حين غرّة، ثم وبعد هنيهة ضحكت قائلة إنها لم تستطع أن تتذكّر [تلك المكالمة] وادّعت عدم معرفتها بالموضوع. ربما من المحتمل تماماً أنها لم تتذكّر وأنه لم تكن ثمة أهمية تذكر لتلك المكالمة وأن كلمة التحبب لم تحمل المعنى الذي خطر ببالك؛ لكن في ذلك اليوم زرعت بذر الشك في رأسك، شك سرعان ما تلاشى في الأسابيع والشهور التي توالت بعد هذه الحادثة. ولكن بعد أربع أو خمس سنوات، أي حين أعلنت والدتك أنها ستهجر والدك، لم يسعك إلا التفكير مجدداً في الكلمات الأخيرة من تلك المكالمة التي سمعتها

مصادفة. هل كان لكل ذلك أهمّية؟ لا حسب تقديرك: كان انفصال والديك أمراً مقدّراً منذ اليوم الذي تزوجا فيه. لم تمثّل الخيانة دوراً فاعلاً في طلاق والديك بغض النظر عما إذا كانت والدتك على علاقة بالرجل الذي نادته حبيبي، أو برجل غيره أو بعدة رجال أو لم تكن على علاقة بأحد بالمطلق. فأعراض الخيانة شيء يختلف عن دواعيها، ومهما أضمرت قريبتك في نفسها أفكاراً تافهة شنيعة عن والدتك، فلم تكن تعلم حقيقة الأمر البتّة. مما لا يقبل الشك أن اتصالها بك كان عاملاً مسبباً إحداث نوبة الذعر التي أصابتك، من جهة توقيت الاتصال وملابساته، لكن ما قالته لك صباح ذلك اليوم مجرّد أخبار بالية.

من ناحية أخرى، وبرغم أنه صودف أن تكون أنت ابنها، فثمّة أمور كثيرة غابت عنك، وتجهلها: ثغر كثيرة جداً؛ اللجوء إلى الصمت والمراوغة مرات عديدة؛ خيوط كثيرة جداً ضاعت منك على مرّ السنين لازمة لحبك الحكاية على نحو مترابط. إذاً لا جدوى من التحدّث عن والدتك بطريقة ترى ظواهر الأمور فقط. كل ما يمكن قوله يجب أن ينبثق من الباطن، من ذاتك الجوّانية، وعبر ما تكدّس من ذكريات ومدارك حسية ما زلت تحملها في جسدك، وقد جعلتك استناداً إلى عين ولأسباب ستبقى مجهولة تماماً، تشهق بقوة لصعوبة التنفس على أرضية غرفة الطعام واثقاً كل الثقة أن أجلك قد دنا.

تمَّ الزواج بسرعة على نحو غير مدروس وباندفاع وتهوّر بين روحين متنافرين، ولهذا استنفد واستبدّ به العياء قبل انتهاء شهر العسل: صبية في الحادية والعشرين، من سكان «نيويورك» (ولدت في «بروكلين» ونشأت فيها ونقلت إلى «مانهاتن» وهي في سن السادسة عشرة) ورجل عزب في الرابعة والثلاثين من مواليد «نيوأرك» استهل حياته في «ويسكونسين»، وغادرها بعد أن حرم من والده في سن السابعة

حين أطلقت جدتك النار على جدك وأردته في مطبخ بيتهما. العروس الصغيرة كانت واحدة من ابنتين ثمرة زواج آخر غير مدروس قائم على المزاوجة السيئة (لو كان أبوك مختلفاً لكان رجلاً رائعاً)؛ لم تكمل دراستها الثانوية من أجل العمل (اشتغلت عدة مرات كاتبة في مكاتب ولاحقاً مساعدة مصور)، ولم تطلعك على الكثير من قصص عشقها وغرامياتها الأولى: قصة غريبة عن حبيب قضى في الحرب وحتى قصة أغرب عن حب عابث لم يعمّر طويلاً مع الممثل «ستيف كوشران»، ولكن لم تقل المزيد. أكملت دراستها الثانوية ونالت الشهادة المدرسية بارتياد إحدى المدارس المسائية (مدرسة ثانوية تجارية) إلا أنها لم تلتحق بالجامعة بعد ذلك. لم يدخل والدك الجامعة أيضاً، إذ كان لا يزال فتى صغيراً عندما دخل عالم الأعمال وبدأ بإعالة نفسه بعيد تخرجه في الثانوية وهو في سن الثامنة عشرة. تلك هي الحقائق المعروفة والمعلومات الصغيرة وغير الهامة التي انتقلت بالوراثة إليك. ثم تأتي السنوات المحجوبة التي لا تذكر منها شيئاً، أي السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياتك والفترة الهامدة السابقة لنشوء الذاكرة، وبالتالي ليس ثمّة ما تحكيه تذكرة منها سوى القصص المتنوعة التي أطلعتك والدتك عليها لاحقاً: إصابتك بالتهاب اللوزتين في سن السنة والأربعة أشهر حين شارفت الموت (بلوغ حرارتك ١٠٦ درجات، وقول الطبيب لها: «أصبح الأمر بيد اللَّه»)؛ وتقلبات معدتك المعطوبة العاصية، حالة شخصت بكونها نوعاً من التهاب اللوزتين أو الحساسية المفرطة لمادة ما (القمح؟ الغلوتين؟)، اضطرتك إلى التزام نظام غذائي محدد مدة سنتين ونصف سنة قائم حصراً على الموز (التهمت مقادير كبيرة جداً من الموز في زمن ما قبل الذاكرة إلى حدّ أنك ما زلت تنفر من منظر هذه الفاكهة ورائحتها ولم تأكل واحدة منها منذ ستين سنة)؛ والمسمار

الناتئ الذي مزّق وجنتك في المحل التجاري في «نيوأرك» في العام ١٩٥٠؛ وموهبتك الملحوظة في عمر الثالثة في تحديد منشأ جميع السيارات على الطريق وطراز كل واحدة منها (أمر لافت بالنسبة إلى والدتك التي فسّرت هذه الموهبة بكونها دليلاً منذ الطفولة على مسحة من العبقرية لديك)؛ لكن في المقام الأول هناك المتعة التي انتقلت منها إليك من خلال سرد هذه القصص، والجذل البادي على محياها والذي كان ضرباً من ضروب العزاء لها ولإضفاء مغزى وهدف على حياتها افتقدته في نواحٍ أخرى. كنت المستفيد من تعاستها والمحبوب الأثير لديها؛ ميّزتك بحُبها الشديد لك؛ وذلك أمر مسلّم به لا يقبل الجدل. ولكن قبل كل شيء، والأهمّ من ذلك كله هو القول: كانت أمّا غيورة عليك ومضحية من أجلك في طفولتك الأولى وصباك. ويردّ الخير الموجود فيك الآن وكل ما تمتلكه من مواطن قوة إلى تلك الفترة التي كانت الذاكرة فيها مغيبة، أي قبل أن يصبح في إمكانك تذكّر الإنسان الذي كنته.

بحر لانهائي من السواد ليس فيه سوى ومضات مبكرة للذاكرة، كانتظار وصول شقيقتك المولودة حديثاً من المستشفى إلى المنزل مع والديك (العمر: ثلاث سنوات وتسعة أشهر)، والنظر من خلال أضلاعِ الحاجبات الفينيسية في غرفة المعيشة مع جدتك لأمك والقفز صعوداً ونزولاً عندما توقفت السيارة أخيراً أمام البيت. حسب والدتك فقد كنت أخاً كبيراً مفعماً بالحماسة لا تغار من الطفلة الجديدة التي أقحمت نفسها في وسطكم. لكن يبدو أن والدتك تعاملت مع الأمر بمنتهى الذكاء بعدم إبعادك بل بتعيينك مساعدها، ما أوهمك بأنك كنت تساهم فعلياً في الاعتناء بشقيقتك. بعد بضعة شهور سألتك إن كنت تودّ تجريب مدرسة الحضانة. قلت نعم وأنت لا تعرف تماماً ما هي مدرسة الحضانة

لعدم شيوع رياض الأطفال في العام ١٩٥١ مقارنة بالحاضر، ولكن بعد القيام بالتجربة يوماً واحداً اكتفيت. تذكر أنه كان عليك الاصطفاف مع مجموعة أخرى من الأولاد والتظاهر بأنكم في محل بقالة؛ وعندما حان دورك أخيراً، أي بعد ما تراءى لك أنك انتظرت ساعات طويلة، ناولت أحداً ما واقفاً خلف آلة تسجيل مدفوعات نقدية وهمية مالاً وهمياً وسلّمك بدوره كيس أطعمة وهمياً. قلت لوالدتك إنّ ارتياد مدرسة الحضانة طريقة غبية وسخيفة لتضييع الوقت، ولم تحاول [هي] إقناعك بالرجوع إليها مجدداً. من بعدها انتقلت العائلة إلى البيت في «جادة إيرفينغ»، وفي أول سنة دراسية لك في صف الروضة في شهر أيلول/ سبتمبر التالي، كنت مستعداً للمدرسة ولم تقلقك البتة الفكرة المحتملة بقضاء الوقت بعيداً عن والدتك. تذكر البداية الفوضوية جداً للنهار الأول: الأطفال الذين كانوا يصيحون بغضب ويصرخون ما أن قالت لهم أمهاتهم: «وداعاً»، والبكاء المكروب للأطفال المتروكين تردد صداه الجدران فيما كنت تلوّح بيدك بهدوء لوالدتك وأنت لا تفهم سبب تلك الضجة والجلبة لأنك شعرت بالسعادة لوجودك هناك وبأنك أصبحت شخصاً كبيراً ناضجاً. كنت في الخامسة، أي إنك في تلك السن الصغيرة بدأت تفلت من قبضة أمك ولم تعد تعيش حصرياً ضمن دائرة نفوذها. تحسنت صحتك وأصبح لديك أصدقاء جدد ونعمت باللعب بحرية في الفناء خلف البيت وفي بدايات الحياة المستقلة. من دون أي شك ظللت تبلّل فراشك، وبكيت عندما وقعت وجرحت ركبتك، لكن الحوار الباطني قد بدأ وعبرت إلى عالم وعي الذات. لكن والدك اعتاد التغيّب عن المنزل أوقاتاً طويلة بداعي العمل وسها عن الانخراط في الشؤون المنزلية بسبب شغفه بأخذ قيلولة طويلة كلما كان في المنزل، فلهذا ظلّت والدتك تمثّل مركز الثقل الرئيس للسلطة تدير الأمور بحنكة

وحكمة فيما يتعلق بجميع المسائل المستوجبة للاهتمام. فكانت هي من آواك في السرير ومن علمك ركوب الدرّاجة ومن ساعدك على دروس البيانو ومن أفضيت بهمومك وكوامن نفسك لها ومن كان الصخرة التي تشبثت بها كلما حاصرتك أمواج البحر المتلاطمة. بيد أنك كنت تنمّي أفكارك الخاصة بك، ولم تعد عبدها الذي ينفّذ أوامرها فحسب: لم تحب التمرّن على عزف البيانو بل رغبت في البقاء خارجاً واللعب مع أصدقائك. وعندما قلت لها إنك تفضل التوقف عن دراسة الموسيقا وأن لعب البيسبول أهم بكثير من الموسيقا بالنسبة إليك، تخلت عن موقفها من دون إثارة نقاش. ثم كانت هناك مسألة الثياب. في أوقات اللعب كنت ترتدي غالباً «تي شيرت» (T-shirt) وبنطال «جينز» (كان من الملابس المسماة «دنغريات»)[١]، ولكن في المناسبات الرسمية، كالعطل وحفلات أعياد الميلاد وزيارات جدّيك في «نيويورك»، فكانت تصرّ على أن ترتدي بذلات أنيقة مخيطة عند الخياط، ملابس بدأت تشعر بالحرج كلما ارتديتها عند بلوغك السادسة، ولاسيما القميص الأبيض والسروال القصير الموصول بالجوارب التي كانت تصل إلى الركبة، والصندل. وحين رفعت الصوت عالياً معترضاً على هذه الملابس قائلاً إن منظرك يبدو مضحكاً لدى ارتدائها وإن كل ما رغبت فيه هو أن تبدو مثل الفتيان الأميركيين الآخرين، أذعنت لطلبك في آخر الأمر وسمحت لك بإبداء الرأي بشأن ما ترتديه. لكنها كانت تنصرف هي أيضاً بعيداً بحلول ذلك الوقت، فليس بعد بلوغك السادسة بوقت طويل انطلقت إلى ميدان العمل وصرت تراها أقلّ وأقلّ من السابق. لا تذكر أنك حزنت للأمر، ولكن تتساءل مجدداً: هل تعرف حقاً ما كان شعورك حينئذ؟ الأمر الهام الذي عليك أن تبقيه في ذهنك

(١) حينها، وهي عبارة عن ملابس مخيطة من دنيم أزرق. (المترجمة)

هو أنك لا تعلم شيئاً تقريباً، ولا تعلم شيئاً بالمطلق عن حقيقة زواجها وعن مدى تعاستها مع والدك. بعد سنين طويلة، أخبرتك أنها حاولت إقناعه بالانتقال إلى «كاليفورنيا»، وأنها شعرت بأن لا أمل من إتمام حياتهما معاً إلا إذا ابتعد عن عائلته، وتحرر من وجود والدته وأشقائه الكبار الخانق؛ وعندما رفض التفكير في الموضوع أذعنت لزواج لا أمل منه. فطفلاها كانا صغيرين جداً وهذا ما منعها من التفكير في الطلاق (كان من المحظورات في ذلك الزمن وفي ذلك المكان وبين أفراد الطبقة المتوسطة في أميركا في مطلع الخمسينيات)؛ وهكذا عثرت على حل آخر. كانت في الثامنة والعشرين فقط عندما شرّع العمل بابه لها وأخرجها من البيت ومنحها فرصة لبناء حياة خاصة بها.

لا تقصد بكلامك هذا الإيحاء أنها اختفت عن ناظريك تماماً، بل اكتفت بالحضور على نحو أقل من السابق، بل أقل بكثير من السابق. وإذا اقتصرت غالبية ذكرياتك عن هذه الفترة الزمنية من حياتك على العالم الصغير لهواياتك في عهد الصبا [مرافقة الأصدقاء وركوب دراجتك والذهاب إلى المدرسة ومزاولة الألعاب الرياضية وجمع الطوابع وبطاقات عضوية البيسبول وقراءة الهزليات](1)، فإنّ والدتك تحضر بشدة من خلال شواهد عديدة ولا سيّما عندما كنت في الثامنة والتحقت بالجراميز(2) إلى جانب عدد من أصدقائك. لم تعد تذكر عدد الاجتماعات الكشفية المعقدة لكنك تظن أنها كانت تلتئم مرة في الشهر على أن لا تتعدى المرة الواحدة في بيت أحد الأعضاء المنتسبين، بإدارة فريق دوري مكوّن من أربع إلى خمس نساء أو ما

(١) مجلات تشتمل على مجموعة من المصورات أو المسلسلات الهزلية. (المترجمة)

(٢) كشاف صغير يراوح عمره ما بين الثامنة والعاشرة. (المترجمة)

يدعى «أمهات الزمر»[1] ومن بينهن والدتك، ما يثبت أن عملها بصفتها سمسارة عقارات لم يكن يمثل ضغطاً قوياً عليها إلى درجة عدم قدرتها على التغيب عن العمل عصر أحد الأيام أحياناً. لا تنسى كم استمتعت برؤيتها في بزّة أمهات الزمر بلونها الأزرق الغامق (وبلا معقولية هذا الواقع وبكونه أمراً جديداً غير مألوف بالنسبة إليك). كما لا تنسى أنها كانت العضو الأحب إلى قلوب الصبيان لصغر سنّها وجمالها واهتمامها بالضيف وعدم تكلّفها مقارنة بأمهات الزمر الأخريات؛ ولم تجد مشكلة أو صعوبة في الاستحواذ على انتباههم تماماً. ثمة اجتماعان أدارتهما ترسّخا في ذاكرتك: العمل على تركيب صناديق خشبية للخزن (لم يعد بإمكانك تحديد سبب تركيبها لكن الجميع انكبّ على القيام بالمهمة باجتهاد واهتمام بالغ). ومن بعد ذلك، أي عندما اقتربت السنة الدراسية من نهايتها وكان الطقس دافئاً وقد ضاقت الفرقة بأكملها ذرعاً بأحكام الكشفية وقوانينها، انعقد اجتماع أخير أو ما قبله في بيتك الواقع في «جادة إيرفينغ»؛ ولأنه لم يكن لدى الجميع رغبة بالمطلق في التظاهر بتمثيل دور جنود منمنمين، سألت والدتك الفِتْية عما يودون القيام به عصر ذلك اليوم، وعندما أجابوا بالإجماع «لعب البيسبول» خرجتم جميعاً إلى الفناء الخلفي وكوّنتم فريقين للعب مباراة. ولأن عددكم كان ناقصاً لا يكفي لتشكيل فريقين متكاملين، أي لم يبلغ عددكم عشرة أو اثني عشر فرداً، قررت والدتك المشاركة في اللعب أيضاً. لكم سررت لقرارها هذا، ولكن بما أنك لم تشاهدها مرة ترجّح مضرباً، لم تنتظر منها الكثير، بل توقّعت خروجها من المباراة. بيد أنك ذهلت تماماً وكنت أكثر من مسرور حين انطلقت في الجولة الثانية ورمت الكرة بكل قوتها فوق لاعب الدفاع الأيسر. ما زال في إمكانك رؤية والدتك وهي تجري

---

(١) سيدات ترأسن زمراً من أشبال الكشافة. (المترجمة)

بين القواعد الأربع للملعب في بزتها الكشفية وانخراطها في المباراة والتوفيق في ضربتها الطويلة المدى: لاهثة، مبتسمة وسط هتافات الفتية الهادرة. من بين ذكرياتك كلها التي احتفظت فيها من عمر الطفولة، هذه هي الذكرى الوحيدة التي تعاودك في غالبية الأحيان.

ربما لم تكن جميلة، أي بمعنى الكلمة التقليدي، لكنها كانت حلوة بما فيه الكفاية وتملك من الجاذبية ما يكفي لحمل الرجال على التحديق إليها كلما دخلت غرفة ما. ما افتقرت إليه من جهة امتلاكها صفات الجمال الكامل أو جمال نساء معينات سواء كنّ نجمات سينمائيات أم لا، عوضته بإشراقتها البهية وألقها المتوهج الساطع في كل مجالسها وعلى الخصوص في شبابها، أي من أواخر عشريناتها إلى أوائل عقدها الرابع: فقد جمعت بطريقة غامضة بين الأسلوب اللافت في الوقوف والمشي والجلوس، والرشاقة والهدوء والأناقة؛ كما تميّزت بثيابها التي دلّت من دون مبالغة على الطبيعة الحسية والغريزية للشخص الذي يرتديها، إضافة إلى عطرها و «ماكياجها» والجواهر التي كانت تتزيّن بها وشعرها الأنيق المصفف حسب التسريحات الحديثة؛ وفضلاً عن ذلك كله النظرة اللعوب والضاجة بالحيوية في عينيها والصريحة والرزينة في الوقت ذاته: «نظرة ملؤها الثقة». حتى وإن لم تكن أجمل نساء الدنيا، فقد تصرّفت بصفتها الأجمل، ومن المحتّم أن تدير امرأة مثلها بكل هذه الصفات الرؤوس، ما أثار حفيظة العقيلات[1] المتجهّمات والعابسات في عائلة والدك بعد أن هجرت الحظيرة، ودعاهن إلى ازدرائها. تلك السنوات كانت عصيبة بالطبع، أي طوال الفترة الزمنية المتصلة قبل الانفصال، الحتمي وإن أرجئ طويلاً، عن والدك: زمن «وداعاً يا حبيبي»، والسيارة التي حطّمتْها

(١) امرأة كهلة متزوجة ذات مقام رفيع. (المترجمة)

تماماً ذات ليلة عندما كنت في العاشرة. إلى الآن لا تزال ترى وجهها المدمّى و«المخبوط» عندما دخلت البيت في وقت مبكر في صباح اليوم التالي؛ وبالرغم من أنها لم تقل لك الكثير عن الحادث ومرّت عليه مرور الكرام من دون تفاصيل أو إثارة، فلا بدّ أنّ وصفها هذا لم يمت إلى الحقيقة بأي صلة، وتشتبه في أن تكون الكحول وراء الحادث وفي كونها أدمنت هذه المادة فترة وجيزة تزامناً مع وقوع الحادث، لأنها لمّحت لاحقاً إلى أنها كانت «في قائمة المدمنين المجهولين» (A.A)، والواقع أنها لم تقرب الكحول في خلال ما تبقى من عمرها: لم تتناول حتى كأس كوكتيل واحدة أو كأس شامبانيا أو حتى رشفة بيرة واحدة.

كانت ثلاث نساء في امرأة واحدة ، ثلاث نساء منفصلات بدت كل منهن غير مرتبطة بالأخرى. وعندما كبرت وبدأت تنظر إليها على نحو مختلف وتراها امرأة أخرى وليست والدتك فقط، لم تعرف بتاتاً أي قناع كانت تنوي وضعه مسبقاً. ففي أحد الطرفين النقيضين كانت هناك النجمة الساطعة، الفاتنة بكل زينتها الفاخرة التي أسرت النفوس في الأماكن العامة: الشابة اليافعة، بمعية الزوج الكليل الشارد، التي تاقت لأن تسلّط العيون عليها والتي لم تعد تسمح لنفسها، بأن ينحصر دورها بربّة منزل تقليدية فقط. وفي المنطقة الوسطى التي كانت تحتل المساحة الكبرى التي شغلتها من دون منازع، كانت الكائن الموثوق به والمسؤول، المتمتّع بقدرٍ من الذكاء والتعاطف، المرأة التي اعتنت واهتمت بك في صغرك، المرأة التي خرجت إلى ميدان العمل وأدارت أعمالاً صغيرة عديدة في خلال سنين طويلة؛ والتي لم يبارِها أحد في رواية الطرائف والنوادر، والمتفوّقة في حلّ أحاجي الكلمات المتقاطعة: إنسانة تعرف جيداً ما تقوم به وتتصرف بطريقة عملية، تملك الجدارة

ويدها ممدودة دائماً، وشديدة المراعاة لمن حولها؛ في السياسة كانت ليبرالية ملتزمة، ومن أهل المشورة الحكماء. في الطرف النقيض الآخر لماهيتها كانت هناك مريضة الأعصاب المنهكة والخائفة، المخلوقة العاجزة الواقعة ضحية هجمات الحصر النفسي(١) الشرسة؛ المصابة بالرهاب، التي تفاقم عياؤها وعجزها مع تقدّم العمر: من خوف مبكر من الأماكن العالية إلى تشعّب هذه العلّة إلى أشكال أخرى كثيرة جداً من الرهاب شلّت حياتها: الخوف من السلالم الكهربائية ومن الطائرات ومن المصاعد ومن قيادة السيارة ومن الاقتراب من النوافذ في الطبقات العليا ومن الوحدة ومن الأماكن المفتوحة ومن السير في أي مكان كان (شعرت بأنها سوف تفقد توازنها أو تغيب عن الوعي) ووسواس مرضي بلغ شيئاً فشيئاً أعلى درجات الخوف، بكلمة أخرى: الخوف من الموت، الذي لا يختلف عن القول: الخوف من العيش. في صغرك لم تكن دارياً بهذا كله. بدت لك كاملة؛ وحتى في أثناء إصابتها بأول دوار، حدث أن شهدته عندما كنت في السادسة (كنتما تصعدان الدرج الداخلي «لتمثال الحرية»)؛ لم تخف [أنت] لأنها كانت أمّا صالحة ومتفانية، وتمكنت من إخفاء خوفها أمامك وذلك بتحويل عملية النزول إلى لعبة: الجلوس على الدرج معاً والنزول دفعة واحدة في الوقت نفسه، والردفان على درجات السلم النقالة، والضحكات تتعالى على طول الطريق إلى الأسفل. كفّت عن الضحك في كبرها. حلّ مكانه الفراغ المدوّم في رأسها والعقدة في معدتها وهبّات العرق الباردة ويدان غير مرئيتين تضيّقان الخناق على رقبتها.

وفّقت في زواجها الثاني كثيراً؛ هو الزواج الذي يتوق إليه الجميع،

---

(١) انفعالات ناشئة عن الخوف مما يحتمل أن يحدث أو مما يتوهم أنه سيحدث. (المترجمة)

حتى كان مصيره العدم. كم سررت برؤيتها سعيدة جداً وعلامات الحب ظاهرة بوضوح على محياها. تكيّفت مع عريسها من دون تردّد لا لأنه أحبّ والدتك وعرف كيف يحبها بجميع الطرائق التي شعرت أنها بحاجة إليها في مجال الحب فحسب، بل لأنه كان رجلاً يثير الإعجاب لذاته فقط، ومحامياً يعمل بدافع الهواية لا من أجل المال، يتمتع بذهن ثاقب وشخصية سمحة؛ كان شخصاً مقتحماً الحياة أنعش على مائدة الطعام قيماً قديمة وروى حكايات مرحة صاخبة عن ماضيه؛ رجلاً استمالك تواً ليس بصفتك ربيباً له بل أخاً صغيراً. ما صيّركما صديقين مخلصين حميمين. بالإجمال اعتقدت أن هذا الزواج هو أفضل حدث في حياة أمك وأن أمورها ستصلح أخيراً بفضل هذا الزوج. كانت لا تزال شابة لما تبلغ عامها الأربعين، وأكبر منه بسنتين، ولهذا كان توقّعك بأنهما سوف يعيشان حياة مديدة معاً ويموتان متعانقين مبرّراً وفي محلّه تماماً. لكنّ صحة زوج أمك لم تكن بخير. إنه بدا مفعماً بالنشاط والقوة الجسدية، إلا أنه قد ابتلي بقلب مريض، وبعد إصابته بأول جلطة دموية في الشريان التاجي في بداية عقده الثالث، عاجلته نوبة قلبية ثانية ولم يكن مضى على زواجهما عام واحد، ومنذ ذلك الوقت خيّمت غيمة سوداء على حياتهما وزادت سواداً عندما انتابته نوبة قلبية ثالثة بعد سنتين. عاشت والدتك في خوف دائم خشية خسارته، وشاهدت بأم عينك كيف شوّشت هذه المخاوف ذهنها تدريجاً مفاقمة بذلك شيئاً فشيئاً عللها التي جاهدت طويلاً لإبقائها مستترة: الذات المرهوبة التي ظهرت مجدداً وبقوة في السنوات الثلاث الأخيرة من حياتهما الزوجية. وعندما تُوفّي في سن الرابعة والخمسين، لم تعد هي الإنسانة ذاتها التي تزوجها. تذكر موقفها المقاوم البطولي الأخير الذي اتخذته تلك الليلة في «بالو آلتو»، «كاليفورنيا»: روت لك ولزوجتك النوادر

من دون توقف فيما كان زوجها في قسم العناية الفائقة في «مركز ستانفورد الطبي» (Stanford Medical Center) يخضع لعلاجات تجريبية للقلب. كانت الخطوة اليائسة الأخيرة لحالة مرضية اعتبرها الأطباء ميؤوساً منها، وقد بدا منظر زوج أمك المصاب بمرض قاتل مخيفاً، ممدّداً على ذلك السرير ومثبتاً بأسلاك وآلات عديدة جداً بحيث بدت الغرفة شبيهة بأحد مشاهد أفلام الخيال العلمي. وعندما دخلت الغرفة ورأيته على ذلك النحو صعقت وانتابك شعور بالكآبة والتعاسة بحيث حاولت جاهداً ردّ دموعك. حدث هذا في صيف العام ١٩٨١، ولم يكن مضى على لقاء زوجتك الأول إلا ستة أشهر تقريباً. كنتما تعيشان معاً ولم تصبحا زوجاً وزوجة بعد؛ وفيما وقفتما أنتما الاثنان قرب سرير زوج أمك، مدّ يده وأمسك بيديكما وقال: «لا تفوّتا عليكما دقيقة واحدة. تزوجا في الحال، تزوجا وليعتنِ كل منكما بالآخر وأنجبا دزينة من الأولاد». كنت وزوجتك تقيمان مع والدتك في بيت في إحدى نواحي «بالو آلتو»: بيت شاغر أجّرها إياه أحد أصدقائها المجهولين. في تلك الليلة، وبعد تناول العشاء في أحد المطاعم حيث كدت تفقد السيطرة على عواطفك وتنخرط في البكاء مجدداً، عادت النادلة لتقول لك إن الطبق الذي طلبته لم يعد في المطبخ لأنه نفد (هذا هو الكرب المنزاح[1] في أوضح أشكاله إلى حدّ أنه يمكن تفسير وجود الدموع الخالية من المعنى التي شعرت بتجمعها في عينيك بكونها تجسّد في ذاتها العواطف والانفعالات المكبوتة التي لم يعد في مقدورك ردّها). فور رجوعكم أنتم الثلاثة إلى كآبة وغمّ بيت يظلّله الموت، وجميعكم مقتنع بأنّ تلك الأيام كانت الأخيرة في حياة زوج أمك، جلستم إلى مائدة الطعام لتناول

(١) ابتعاد الانفعال عن هدفه الحقيقي وتركّزه حول شيء لم يكن هو سببه. (المترجمة)

المشروب؛ اعتقدت في لحظة ما أنه يستحيل على أحدكم التفوّه بكلمة واحدة لأنه بدا أنّ الحزن الذي أثقل قلوبكم قد خنق الكلمات كلها وأخرسكم، ولكن في تلك اللحظة بالذات بدأت والدتك بسرد النوادر والنكات: نكتة أولى وثانية وثالثة.. نكات متتالية مضحكة جداً إلى حدّ أنك وزوجتك ضحكتما حتى لم يعد في استطاعتكما التنفس: ساعة من النوادر والنكات المرويّة، بل ساعتان، وكل واحدة منها تستوفي الشروط المطلوبة للنكتة الناجحة، أي التوقيت الممتاز واللغة الموجزة السليمة، حتى خلت في لحظة ما أنّ مرارتك ستنفجر. نكات يهودية في الغالب، سيل لا ينتهي من المكرورات التقليدية عن النسوة المتطفلات الثرثارات المترافقة مع جميع الأصوات واللهجات الملائمة: عن اليهوديات المسنّات الجالسات حول طاولة الشدّة اللواتي يتنهدن، كل واحدة منهن تتنهد بدورها وصوت كل تنهيدة أعلى من صوت التنهيدة الأخيرة إلى أن تقول إحداهن من السيدات: «اعتقدت أننا اتفقنا على عدم التحدث عن الأطفال». جميعكم خرج عن طوره وكان على غير عادته تلك الليلة، لكن الظروف كانت كئيبة جداً ولا يمكن تحمّلها، ولهذا كنتم بحاجة إلى نوبة الجنون تلك، وتجرّأت والدتك، إلى حدّ ما، على تحقيق هذا الأمر. أحسست أن شجاعة والدتك تجلّت في تلك اللحظة: لحظة استثنائية، إحدى اللحظات الرائعة التي كشفت فيها عن حقيقتها في أفضل أحوالها. لأنك كنت تعلم أنّ هذا القدر الكبير من الحزن والتعاسة الذي ألمّ بك تلك الليلة لم يكن يذكر مقارنة ببئر الحزن والأسى الكامن فيها.

نجا من الموت في «مركز ستانفورد الطبي»، لكنه توفّي بعد أقل من سنة. تعتقد أنه حين مات ماتت هي أيضاً. استمرّ قلبها في الخفقان عشرين سنة أخرى، لكن موت زوجها قضى عليها ولم تستعد

توازنها بعد ذلك. شيئاً فشيئاً تحوّل حزنها الشديد إلى نوع من الاستياء والغضب (كيف يجرؤ على أن يموت قبلي ويتركني وحيدة؟). وبينما آلمك كثيراً سماعها تتكلم على هذا النحو، فطنت إلى أنها كانت خائفة ومذعورة، تبحث عن طريق تتخذه هدى وتمضي عليه رويداً رويداً باتجاه المستقبل. كرهت العيش وحدها ولم تكن حسب مزاجها مهيّأة للبقاء حيّة في خواء نسبي من العزلة؛ ولم يمض وقت طويل حتى عادت إلى التنقل من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر وقد ثقل وزنها وزاد كثيراً عن حدّه الطبيعي، لكنها مع ذلك ظلّت جذابة كفاية لتدير رؤوس العديد من الرجال المسنين. أقامت في تلك المرحلة من عمرها في جنوب «كاليفورنيا» أكثر من عشر سنوات، ولم تلتقيا معاً بصورة متكررة، أي ليس غير مرة واحدة كل ستة أشهر أو أقل من ذلك بقليل أو أكثر. كانت أخبارها تردك غالباً عبر المكالمات الهاتفية، التي شكّلت وسيلة اتصال نافعة في حدّ ذاتها، لكن نادراً ما أتيحت لك فرصة متابعة تفاصيل حياتها، لذا فوجئت عندما أبلغتك نيتها الزواج مجددا بعد ثمانية عشر شهراً على ترمّلها، ولم تفاجأ في الوقت ذاته. برأيك كانت خطوة حمقاء: زواج آخر متهوّر غير مدروس لا يختلف عن الزواج الذي أقدمت عليه مع والدك عام ١٩٤٦؛ لكنها لم تكن تسعى هذه المرة إلى حب كبير بقدر ما كانت تبحث عن ملاذ أو حماية، عن شخص يعتني بها فيما كانت تعمل على ترميم ذاتها الهشّة سريعة العطب. بطريقته الهادئة والقائمة على التجربة والخطأ كان الزوج الثالث مخلصاً لها، وهذه نقطة لمصلحته بالتأكيد، ولكن مع كل جهوده المبذولة ونياته السليمة لم يستطع الاهتمام بها على نحو كاف. كان رجلاً فاتر الهمة مضجراً، سبق أن عمل بحاراً ومهندساً سابقاً في «الناسا» أي «الإدارة الوطنية للطيران والفضاء»، رجلاً محافظاً في السياسة وفي أسلوب

حياته؛ والأفضل وصفه بالوديع وبضعيف الشخصية (ربما كان الاثنين معاً)، لذا اختلف عن زوج أمك السابق فيّاض المشاعر والمتمتع بالكاريزما والشخصية الآسرة واليساري الليبرالي مئة وثمانين درجة. لم يكن سيئاً أو شريراً أو قاسياً بل كل ما في الأمر أن عينيه خلتا من البريق وأنه كان مملّ العشرة. عندما تزوج أمك كان مخترعاً يعمل بصفة شخصية (اختراعاته ذات النوعية التي تتطلب جهداً كبيراً لإقناع الغير بها) ويكسب دخله مباشرة من هذه المهنة لا من وظيفة منتظمة يشغلها في إحدى المؤسسات؛ لكن والدتك عقدت آمالاً كبيرة على أحدث اختراعاته: آلة طبية وريدية [مدخل من طريق الأوردة]، من دون أنابيب يمكن حملها؛ من شأنها منافسة المحقنة الوريدية التقليدية والحلول محلها. ولأن الأمر بدا مؤكداً، تزوجته مفترضة أنّ الأموال سوف تتدفّق قريباً. لا شك أنه كان اختراعاً ينم عن ذكاء وربما حتى عن نبوغ مبتكره، لكن المخترع لم يملك عقلاً تجارياً، فوقع ضحية لمستثمري الأموال لآجال طويلة في المشاريع المستحدثة غير مضمونة النتائج من جهة، وشركات توريد التجهيزات الطبية المراوغة من جهة أخرى؛ وفي آخر الأمر لم يعد صاحب القرار بشأن اختراعه. صحيح أنه استحصل على بعض المال في النهاية لكنه لم يكن وفيراً بل مبلغ ضئيل جداً إلى حدّ أن معظمه صُرف في غضون سنة. وهكذا اضطرت والدتك، التي كانت في عقدها السادس حينذاك، إلى العمل مجدداً، فأعادت افتتاح مكتب التصميم الداخلي الذي أغلقته قبل بضع سنوات، واشتغل زوجها المخترع مساعد مكتبها وماسكاً لحساباتها. باتت هي معيلة نفسها وزوجها أو الأحرى حاولت أن تكون هي المعيل؛ وكلما قارب حسابهما المصرفي الانحدار إلى الصفر اعتادت اللجوء إليك وطلب المساعدة: دائماً باكية، ومعتذرة. ولأنك كنت في موقع يخوّلك

مساعدتها، رحت ترسل إليهما شيكات بين الحين والآخر. بعض تلك المبالغ المالية كان ضخماً وبعضها الآخر ضئيلاً. أرسلت إليهما حوالى اثني عشر شيكاً وتحويلات مالية إلكترونياً على مدى السنتين التاليتين. لم تمانع في إرسال المال إليهما، لكن ما دعاك إلى الاستغراب وأوهن عزيمتك بعض الشيء تسليم بحارها السابق بعجزه تماماً بحيث لم يعد قادراً على الوقوف على رجليه، لأنه كان من المؤمّل منه إعالتها وضمان عيشة رغيدة لها في كبرها، لم يستطع حتى استجماع الشجاعة ليقول لك: «شكراً للمساعدة». أصبحت والدتك هي الرئيسة، وتبدّل دوره شيئاً فشيئاً ليصير في النهاية رئيس خدم يؤدي مهماته بكل أمانة (الفطور في السرير وتسوّق مواد البقالة)، لكنهما مع ذلك دبّرا أمورهما وظلّا معاً.لم تكن علاقتهما سيئة جداً، وإن كانت ثمة إمكانية أن تزداد سوءاً. فحتى وإن خاب أملها بالنتيجة التي آلت إليها الأمور إلا أنها كانت تعرف أيضاً أن زوجاً من دون قيمة أفضل من عدم وجود زوج بالمطلق. ثم، وذات صباح في ربيع العام ١٩٩٤ استيقظت والدتك من نومها، وفور دخولها الحمّام وجدت زوجها متمدّداً على الأرضية، ميتاً. من المحال معرفة السبب بالتحديد: ربما سكتة دماغية أو نوبة قلبية أو نزف دماغي، لأن الجثة لم تخضع للتشريح؛ هذا ما جرى حسب علمك. عندما اتصلت بك وأنت في بيتك في «بروكلين»، في وقت لاحق صباح ذلك اليوم، قالت لك بصوت متهدّج من الذعر والهلع: «دم... دم يخرج من فمه..دماء في كل مكان». لأول مرة منذ معرفتك بها بدت والدتك مشوشة الذهن، مخبولة.

قرّرت والدتك الانتقال مجدداً إلى شرق البلاد. قبل عشرين عاماً خالت «كاليفورنيا» أرضاً موعودة، لكنها لم تعد، إذ باتت بالنسبة إليها، مكاناً فيه الأمراض والموت، عاصمة الحظ العاثر والذكريات

الأليمة؛ ولهذا انطلقت بسرعة عابرة أميركا من أقصاها إلى أقصاها كي تكون قرب عائلتها: بداية أنت وزوجتك ولكن أيضاً ابنتها المعاقة عقلياً الموجودة في «كونيكتيكات» وشقيقتها وحفيداها. بالطبع كانت مفلسة تماماً، أي وجب عليك إعالتها؛ ولكن لم تر في الأمر مشكلة حينئذٍ وكنت أكثر من راغب في القيام بذلك. اشتريت لها شقة مؤلفة من غرفة نوم واحدة في «فيرونا» واستأجرت لها سيارة وخصصت لها ما اعتبرتماه أنتما الاثنان مقداراً كافياً من المال كل شهر لإعالتها. من دون شك لم تكن أول ابن في العالم يجد نفسه في هذا الموقع، إلا أن هذا لم يجعل الأمر أقل غرابة أو مريحاً نفسياً بقدر أكبر: الاعتناء بشخص كان هو من يعتني بك في السابق، وبلوغ تلك المرحلة من حياتك، مرحلة قلب الأدوار بحيث أصبحت أنت تؤدي دور الأهل فيما باتت هي تؤدي دور الطفل العاجز. أثارت هذه التسوية المالية بعض الخلافات بين الحين والآخر، لأنه صعب على والدتك أن تدبّر أمرها وفق الراتب الشهري الذي حدّدته لها، وبالرغم من أنك زدت القيمة المخصصة لها عدة مرات، راوح الأمر مكانه. كنت في موقف حرج لأنك اضطررت إلى تأنيبها بين الفينة والأخرى، وفي إحدى المرات ربما قسوت عليها أكثر من اللازم، فانهارت وبكت في خلال مكالمتكما الهاتفية قائلة لك إنها عجوز لا نفع لها وربما ينبغي لها قتل نفسها كي لا تكون عالة عليك لاحقاً. وجدت أن في هذا الاسترسال في رثاء الذات ما يضحك (لم يخف عليك أن أمك كانت تستغل بهذا عواطفك) لكنه في الوقت ذاته أتعسك، وفي النهاية استسلمت وتركتها تحصل على ما تريد. ما أزعجك أكثر من هذا كله عجزها عن القيام بأي شيء والخروج من شقتها وانخراطها في العالم الخارجي. اقترحت عليها التطوع لتعليم القراءة للأطفال الذين يلاقون صعوبة في

هذه المهارة أو الأميين من الكبار أو عقد صلات بالحزب الديمقراطي أو أي منظمة سياسية أخرى. اقترحت عليها أيضاً الالتحاق بدورات دراسية أو السفر أو الانضمام إلى أحد النوادي الاجتماعية، لكنها لم تشأ في قرارة نفسها محاولة القيام بأي من تلك النشاطات. حتى ذلك الحين لم يشكل افتقارها إلى المؤهلات المنهجية الرسمية عائقاً بالنسبة إليها، فذكاؤها الفطري وسرعة البديهة لديها عوّضا نواقصها. لكنها بما أنها أصبحت من دون زوج ومن دون عمل ومن دون هدف لإبقائها مشغولة كل يوم بيومه، قلت في نفسك ليتها نمّت لديها من قبل رغبة قوية في الموسيقا أو الفنون الأخرى أو قراءة الكتب، رغبة جدية بكل معنى الكلمة، إلى هواية متواصلة تمارسها بشغف وتمثل قوة داعمة لها دوماً، لكنها لم تعوّد نفسها إنماء هوايات روحية أو عقلية من هذا النوع، لذا ظلت تتخبط من دون غاية أو هدف. لم تكن واثقة تماماً بما تفعل بنفسها عندما تنهض في الصباح. هي لم تقرأ من الروايات سوى البوليسية وقصص الإثارة والتشويق. اعتدت أن تقدّم لها كل كتاب تؤلفه بعد صدوره مباشرة بشكل تلقائي، وكذلك كانت تفعل زوجتك؛ حتى هذه الكتب لم تكن من النوع الذي تفضل قراءته وإن خصّصت لها رفاً كاملاً في غرفة المعيشة لعرضها بفخر واعتزاز. داومت على مشاهدة التلفزيون. كان جهاز التلفزيون دائراً على الدوام في شقتها، الأصوات العالية الصادرة عنه تدوي منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة في الليل. لكنه لم يشغَل لمشاهدة البرامج بقدر سماع تلك الأصوات التي روّحت عنها وكانت في الواقع ضرورية وهامة بالنسبة إليها؛ كما ساعدتها على تخطي خوفها من العيش وحدها: ربما كان هذا إنجازها الأكبر الوحيد في تلك السنوات. لا، لم تكن أجمل وأفضل سنوات حياتها، لكنك لا ترغب في الإيحاء بأنه كان زمن الانقباض النفسي والسويداء

والتشوش. قامت بزيارات منتظمة إلى «كونيكتيكات» لرؤية شقيقتها وأمضت عطل نهايات أسابيع لا تحصى معك في منزلك في «بروكلين» وشاهدت حفيدتها تمثّل مسرحيات في المدرسة وتؤدي غناءها المنفرد ضمن جوقة المدرسة، وتابعت من كثب اهتمام حفيدها الزائد بالتصوير الفوتوغرافي. وبعد كل تلك السنين في «كاليفورنيا» البعيدة، أصبحت جزءاً من حياتك ثانية، دائماً حاضرة في أعياد الميلاد والعطل العامة والمناسبات الخاصة وفي الظهور العلني لك ولزوجتك وفي افتتاحيّات أفلامك (تولّعت كثيراً بالأفلام السينمائية)، وفي المآدب مع أصدقائك في المناسبات. ظلت تسحر الناس في المناسبات العامة حتى وهي في منتصف العقد السابع، لوجود بقعة صغيرة في ذاكرتها وذهنها ظلت تدعوها لاعتبار نفسها نجمة ولكونها أجمل نساء العالم؛ وكلما كسرت روتين حياتها القائمة على العزلة التامة، والمنكمشة، بدت محافظة على غرورها وزهوها وخيلائها. صحيح أنَ تبدّل حالها إلى هذا القدر أحزنك كثيراً إلا أنه لم يسعك إلا أن تعجب بصفة الزهو والغرور لديها وبكونها ظلت قادرة على سرد طرائف مضحكة عندما كان الناس يتابعونها بآذانهم باهتمام.

نثرْتَ رمادها في الغابة الصغيرة الكائنة في «بروسبيكت بارك». بلغ عددكم، أي الحاضرون في ذلك اليوم، خمسة: زوجتك وابنتك وخالتك وقريبتك «ريجينا» وأنت. اخترت هذا المكان في «بروكلين» لنثر ردماها لأن والدتك اعتادت اللعب فيه في صغرها. تناوبتم جميعاً على قراءة أشعار بصوت عال، وما أن فتحت المزهرية المعدنية المستطيلة بعد ذلك وألقيت الرماد على الأوراق المتساقطة والشجيرات الدنيا، حتى استرسلت خالتك (في العادة لم تعبّر عن عواطفها فهي من أكثر الأشخاص المتحفظين الذين عرفتهم) في نوبة من البكاء وهي تكرر

اسم أختها الصغيرة مرة تلو الأخرى. بعد أسبوع أو أسبوعين، وذات عصر رائع في أواخر أيار/مايو أخذت الكلب في نزهة في الحديقة العامة بمعية زوجتك. اقترحت الرجوع إلى المكان الذي نثرت فيه رماد والدتك، ولكن عندما كنت لا تزال خارجاً تمشي في ممر مفتوح على مسافة بعيدة نسبياً، أي مئتي ياردة من طرف الغابة، بدأت تشعر بالدوار، وبالرغم من أنك كنت تتناول حبوباً لإبقاء حالتك المرضية المستجدّة تحت السيطرة، شعرت بأنك ستصاب بنوبة ذعر أخرى. أمسكت بذراع زوجتك واستدرتما عائدين إلى المنزل. جرى هذا الأمر منذ تسعة أعوام تقريباً، ومن حينها لم تحاول معاودة الذهاب إلى تلك الغابة.

صيف عام ٢٠١٠. طقس حار جداً نتيجة موجة حرارية شديدة، وأسطع نجوم السماء على الإطلاق [الشعرى اليمانية] يلهب الدنيا منذ طلوع الشمس وحتى المغيب وطوال الليل؛ سلسلة أيام درجاتها[١] تسعينية، والآن ارتفعت فجأة إلى المئة وست درجات. يشير عقربا الساعة إلى الدقيقة أو الدقيقتين قبل منتصف الليل. أوت زوجتك إلى السرير قبل الآن لكنك مفعم بالأرق ولا تستطيع أن تنام ولهذا صعدت إلى غرفة الجلوس في الطبقة العلوية، الغرفة التي تدعوها أنت وزوجتك المكتبة: مكان فسيح ورفوف كتب تحتل ثلاثة من جدران الغرفة؛ ولأن تلك الرفوف ملأى تماماً الآن ومكتظّة بآلاف الكتب المجلدة والورقية التي كدستماها على مر السنين، توجد كذلك الأمر أكوام من الكتب والأقراص الرقمية المتعددة الاستعمالات (DVDs) على الأرضية؛ وهكذا لا بدّ من الفيض الذي يستمر في الازدياد فيما تنقضي شهور وسنوات عمرك سريعاً، ما يضفي على المكتبة جواً من الوفرة والسعادة

(١) وحدة قياس انحراف متوسط درجة الحرارة اليومية عن حرارة قياسية معيّنة. (المترجمة)

الفوضوية. هو نوع من الغرف يصفه جميع الزوار بـ«المكنكن» [الدافئ والمريح]. نعم، من دون شك إنها غرفتك المفضلة بأريكتها المريحة المصنوعة من الجلد الطري وجهاز التلفزيون المزود شاشة مسطحة واضحة؛ وهو مكان مثالي لقراءة الكتب ومشاهدة الأفلام. المكيف «مشغّل» والنوافذ مغلقة بسبب الطقس شديد الحرارة في الخارج، ما يحجب عن السمع جميع الأصوات الصادرة من الشارع: اللحن الخليط الليلي الذي يجمع بين نباح الكلاب وأصوات البشر والأنغام الاستعراضية التي يؤديها الرجل الممتلئ الجسم غريب الأطوار الذي يجول في الحي كله، بصوته العالي الطبقة بتكلّف، وقعقعة الشاحنات والسيارات والدراجات الآلية المارة في الشارع. تشغّل جهاز التلفزيون. انتهت مباراة فريق ميتس منذ ساعتين، ولعدم توافر برامج تروّح عن بالك من عالم الرياضة، تحوّل إلى قناتك المفضلة «تي سي أم» أو «محطة تيرنر للأفلام الكلاسيكية» التي تعرض أفلاماً أميركية قديمة على مدى الساعة؛ وبعد مرور دقائق معدودة على متابعتك قصة أحد هذه الأفلام، أمر هام يحدث لك يبدأ عندما تشاهد الرجل يمر في شوارع «سان فرانسيسكو»، رجل مخبول يهبط على الدرجات الحجرية للمركز الطبي وينطلق بسرعة في الشوارع؛ رجل ليس له وجهة معينة، يمر على طول أرصفة الشوارع ويندفع مسرعاً بين السيارات و«يخبط» بالناس وهو يتجاوزهم بالعدو بسرعة؛ إنه قذيفة مدفعية في فورة من الجنون والغضب والإنكار قيل له تواً إنه سيموت في غضون أيام إن لم يكن ساعات وإن جسده أصيب بالتسمم من طريق مادة سامة مضيئة متفسفرة، ولأنه فات الأوان لطرد السم من جسده فحياته ميؤوس منها. حتى وإن يبدو في الظاهر أنه حي فهو في الواقع بحكم الميت. ففي الواقع لقد قتل.

«كنت أنت ذلك الرجل بعينه»، تقول في سرّك. ما تشاهده على شاشة التلفزيون يمثل بالضبط ما حدث لك بعد وفاة والدتك بيومين في العام ٢٠٠٢: المطرقة النازلة من دون إنذار ومن ثم عدم القدرة على التنفس والقلب الخافق بقوة والدوار وهبّات العرق والجسد الذي يقع على الأرض والذراعان والرجلان اللتان تتيبّسان والصيحات القوية الصادرة عن رئتين مهتاجتين لا يصلهما الهواء والثقة التامة بأنّه رمقك الأخير وأنه بعد ثانية من الآن لن يعود العالم كائناً لأنك لن تكون.

عنوان الفيلم «دي.أو.إيه» من إخراج «رودلف ماتي» عام ١٩٥٠؛ واسم الفيلم كلمة مختصرة في قاموس الشرطة تعني «ميت عند الوصول» (Dead on Arrival)، والبطل - الضحية هو «فرانك بيغلو»: رجل دونما براعة فائقة أو تميّز ولا يثير الاهتمام؛ إنه نكرة، أي شخص غير محدّد الهوية، في الخامسة والثلاثين تقريباً، يعمل محاسباً، يراجع الحسابات ويدققها وكاتب عدل يعيش في «بانينغ»، «كاليفورنيا» وهي بلدة مقفرة بالقرب من «بالم سبرينغز». رجل ضخم الجثة. له وجه لحيم وشفتان ممتلئتان. جلّ تفكيره مركّز على النساء؛ ولأنه يشعر بالاختناق من جرّاء سكرتيرته، «بولا»، المفتونة به، متقلّبة الأهواء والمتعلقة إلى حدّ الهوس به والمرأة التي قد يكون يخطط لأن يتزوجها أو لا يكون، يقرّر فجأة من دون نية مبيتة أخذ استراحة من العمل مدة أسبوع والذهاب إلى «سان فرانسيسكو» في عطلة وحده. عندما يقيّد اسمه في فندق «سانت فرانسيس» تكون قاعة الانتظار غاصة بزائرين مرحين صاخبين. يتزامن وصوله وبدء «أسبوع التسوق»، هكذا يقول له موظف الاستقبال في الفندق؛ ويضيف: «هو اجتماع سنوي يضم

الوكلاء الجوالين»[1]؛ وكلما مرّت به امرأة جذابة تسير بتؤدة (جميع النساء في الفندق جذابات) رمقها «بيغلو» بنظرات رجل شبق يبحث عن طريدته ورنا إليها بعينين فاغرتين وانشداه. ولإيصال الفكرة إلى المشاهد تترافق كلّ من هذه النظرات الخاطفة مع صوت يحاكي عواء الذئب المزدوج النغمات عندما يرغب في اجتذاب فريسته، وكأنما للإيحاء بأن «بيغلو» لا يمكنه أن يصدّق كم هو محظوظ: أي بنزوله في هذا الفندق بالذات وفي هذا اليوم بالذات ثمة فرصة متاحة له بإقامة علاقة عابرة وسهلة. وعندما يصعد إلى غرفته في الطبقة السادسة، يضج الرواق بصخب أناس شبه مخمورين (المزيد من الأصوات التي تحاكي عواء الذئاب)، ويكون باب الغرفة في الجهة المقابلة مباشرة مفتوحاً، ما يسنح له رؤية واضحة لحفلة أنس صاخبة دائرة. وهكذا تبدأ العطلة.

سبق أن هاتفته «بولا» من «بانينغ»، وقبل أن يفرغ «بيغلو» محتويات حقيبته ويركن إلى الراحة يردّ على اتصالها. يبدو أنّ هناك رسالة ملحّة من شخص يدعى «يوجين فيليبس» من «لوس أنجلوس» قال لها إنّ على «بيغلو» الاتصال به على الفور وإنهما يجب أن يتحدثا قبل أن يفوت الأوان. ليس لدى «بيغلو» أي فكرة عمّن يكون «فيليبس» هذا. يسأل «بولا»: «هل تعاملنا معه قبلاً؟» لكنها لا تذكر أنها تعرف شخصاً بهذا الاسم أيضاً. طوال هذه المكالمة الهاتفية يضيع تركيز «بيغلو» بسبب ما يجري في الرواق. نساء يتوقفن عند بابه المفتوح ويلوحن له بأيديهن ويبتسمن له وهو بدوره يلوّح بيده لهن ويبتسم بالمقابل حتى وهو ماض في التحدّث إلى «بولا». يقول لها أن تنسى أمر «فيليبس» وأنه [أي بيغلو] في إجازة في الوقت الحاضر

(١) وكلاء بيع يجوبون البلاد بغية عقد الصفقات لمصلحة مؤسسات تجارية. (المترجمة)

ولا يريد أن ينغّص أحد عطلته عليه وأنه سوف يعالج الموضوع لدى عودته إلى «بانينغ».

بعد أن يقفلا الخط يشعل «بيغلو» سيجارة ويظهر نادل يحمل مشروباً، ومن ثم أحد اللاهين العابثين في الرواق يعرّف عن نفسه باسم «هاسكل»؛ يدخل الغرفة ويسأل إن كان في إمكانه استعمال الهاتف. يطلب إرسال ثلاث زجاجات أخرى من البوربون[1] وزجاجتين أخريين من الويسكي الإسكتلندي إلى المجموعة في الغرفة ٦١٧. وعندما يعرف «هاسكل» أنّ «بيغلو» زائر غريب في المدينة، يدعوه للانضمام إلى أجواء المرح (بعض المشروبات وبعض الضحكات)؛ وما هي إلا دقيقتان حتى يشاهد «بيغلو» يرقص الرومبا مع زوجة «هاسكل» في الغرفة الملأى بالضجيج والصخب في الجهة المقابلة لغرفته. «سو» امرأة متهورة، من وجهة النظر الجنسية، غير متحفظة تسرف في الشراب ومصابة بالإحباط من جرّاء الحب؛ تبحث عن الأوقات الطيبة والزاخرة بالمسرّات؛ ولأن «بيغلو» يكشف عن براعة في الرقص يصبح هدفها الرقم واحد: ربما خطوة غير ذكية وفي غير محلها حيث إن زوجها موجود في هذا المكان وهو يشاهد بأم عينه سلوكها الغريب الشاذ؛ لكن «سو» متهورة ومعاندة في الوقت ذاته. بعد بضع لحظات، تقرّر الجماعة في الغرفة ٦١٧ مغادرة الفندق والاسترسال في القصف والمرح الصاخب في المدينة، ويشاهد «بيغلو» وهو يرافقهم على مضض؛ فجأة هم في أحد نوادي الجاز الليلية واسمه «فيشرمان» أي «الصياد»، وهو مكان صاخب حيث توجد مجموعة تامة من الموسيقيين السود يعزفون بكل طاقتهم مقطوعة موسيقية مبهجة، سريعة الإيقاع؛ وكلمة «دجايف»

(١) نوع من الويسكي الأميركي. (المترجمة)

مكتوبة على الحائط وراءهم. لقطات متتالية مأخوذة عن قرب تظهر عازف السكسوفون وعازف البيانو وعازف البوق وعازف غيتار البيس[١] وعازف الطبلة. يعزفون موسيقا صاخبة، وقد تداخلت أصوات الحاضرين مع النغمات الموسيقية، من فرط الانفعال. ها هو «بيغلو» يجلس إلى الطاولة مع أصدقائه الجدد و«سو» المتهورة ملتصقة به. يبدو مكتئباً؛ هو ضجر، كيله طافح ولا يريد التعاطي مع «سو» أو سماع هذه الهجمة الموسيقية متنافرة النغمات؛ ولا يقل «هاسكل» عنه حزناً وكآبة فيما يتابع بصمت تحركات زوجته لحظة بلحظة وهي تبذل غاية جهدها للفوز بحظوة الغريب الآتي من الغرفة المقابلة في الفندق. وفي ما يجري كل هذا يسلّط ضوء الكاميرا على رجل يدخل إلى الملهى من الخلف: رجل طويل يضع قبعة على رأسه ويرتدي معطفاً قبته مرفوعة إلى الأعلى؛ هي قبّة غريبة وتدعو للعجب جداً ووجهها الثاني مميز بمربعات بيضاء وسوداء. يقترب الرجل من البار. وبعد ذلك بدقيقة أو دقيقتين يتمكن «بيغلو» أخيراً من تخليص نفسه من «سو» وأصحابها ويذهب إلى البار أيضاً ويطلب كأس بوربون، غير دار بنيّة الرجل ذي القبعة الغريبة دسّ السمّ في شرابه، وبكونه هو، أي «بيغلو»، سيلقى حتفه في خلال أربع وعشرين ساعة.

ثمة امرأة أنيقة جداً تجلس في الجهة الأخرى للبار، وفيما «بيغلو» ينتظر كأسه يسأل الساقي إذا كانت الشقراء بمفردها. يتبين أنّ الشقراء اسمها «جيني»: فتاة ثرية تعشق موسيقا الجاز الصاخبة ورقصة «دجايف»، وتتسكع في الملاهي الليلية وتستعمل كلمات مثل «أعجبني» و«استرح» (بكلمة أخرى هي ممتازة ورائعة ولا تشكّل

---

(١) آلة موسيقية جهيرة الصوت. (المترجمة)

مشكلة). ينسلّ «بيغلو» صوبها، وفي تلك الثواني المعدودة التي يبتعد في أثنائها عن كأسه، التي فيها المشروب وباتت في انتظاره في مكانها السابق الواقع في الطرف الآخر من البار، ينفذ الرجل ذو القبّة الغريبة مهمته القاتلة وبكل خفّة ومهارة يصب مقداراً من جرعة سم في الكأس ثم يختفي عن الأنظار. فيما يدردش «بيغلو» مع «جيني» الأنيقة، الهادئة والودودة في الوقت ذاته، التي تتصرف كالملكة من حيث تمالك النفس، وتبدو شخصية مطلعة على أحدث الاتجاهات والأذواق تكيّف مسالكها وفقها، يناوله الساقي مشروبه المغشوش الذي أصبح مشروبه المميت. ما أن يرشف «بيغلو» المشروب حتى تبدو على وجهه علامات الدهشة والاشمئزاز، ثم يرشف الشراب ثانية ويتكرر ردّ فعله. يدفع كأسه بعيداً ويقول للساقي: «هذه ليست لي. طلبت البوربون. ناولني كأساً أخرى».

في غضون ذلك تنهض «سو» من مطرحها وتتفحّص الوجوه في الغرفة بسرعة بحثاً عن «بيغلو» وتبدو قلقة متوترة، واقعة في حيرة وارتباك، متسائلة: لِمَ لم يرجعْ بعد؟ يلمحها «بيغلو» فيدور على عقبيه بسرعة ويدعو «جيني» للذهاب برفقته إلى مكان آخر. يقول لها ثمة أشخاص في الغرفة يرغب في تحاشيهم وبالطبع لا بد من وجود أماكن لهو أخرى تثير الاهتمام في سان فرانسيسكو. لا تنكر «جيني» هذا الأمر لكنها تقول إنها لم تنل كفايتها بعد من هذا المكان، وتقترح عليه الالتقاء لاحقاً حين تصل إلى الملهى الآخر محطتها الثانية هذا المساء. ثم تدون رقم هاتف على ورقة وتطلب إليه الاتصال بها بعد ساعة.

يعود «بيغلو» إلى غرفته في الفندق ويخرج قصاصة الورق التي دونت «جيني» عليها رقم هاتفها ويرفع السمّاعة، ولكن قبل أن يتمكن

من إجراء الاتصال يرفع نظره ويرى باقة زهور تمّ إرسالها إلى الغرفة. ثمة بطاقة من «بولا» أرفقت بورقة التغليف الملوّنة وكتب عليها: سأبقي نوراً مضاءً ظاهراً من النافذة. أحلاماً سعيدة. وكأن في ذلك تقريعاً عنيفاً موجهاً إليه؛ فيكبح «بيغلو» جماحه. بدلاً من الخروج ثانية وقضاء الليلة في ملاحقة الفتيات، يمزّق الورقة المحتوية رقم هاتف «جيني» ويلقيها بقوة في سلة المهملات؛ وما هي إلا دقيقة حتى يتغير منحى القصة تماماً وتبدأ القصة الفعلية.

بدأ السم يحدث أثره. يشعر «بيغلو» بصداع لكنه يحسب أنه نتيجة إفراطه في الشرب وأنه سوف يشعر بتحسّن بعد أن ينام. يصعد إلى السرير، وفيما يقوم بذلك يمتلئ الجو بأصوات غريبة متنافرة، يردد الصدى صوت مغنّية بعيدة (في الزمان والمكان): ترسبات ذهنية من ملهى الجاز، إشارات متلاحقة تدل على كرب جسدي. عندما يستيقظ في الصباح لا يطرأ أي تحسن على صحته. لا يزال مقتنعاً بأنه أفرط في الشرب ويعاني آثار السكر، فيتصل بقسم خدمة الغرف ويطلب شراباً منعشاً منشطاً: أحد الأدوية العامة الحريفة المذاق المفتحة للعيون مطعمة بفجل الخيل وصلصة «ورسيسترشير»[١]، المفترض أن تزيل آثار السكر تماماً وتعيد إلى السكران وعيه. لكن ما أن يظهر النادل وبيده هذا الخليط المركّب، حتى يدير «بيغلو» وجهه عنه، فمنظر الشراب بذاته يشعره بالغثيان ويثير جيشاناً في معدته ورغبة في التقيؤ، ويطلب من النادل أخذه بعيداً. ثمة خطب كبير. يمسك «بيغلو» بمعدته ويبدو دائخاً ومشوّش الذهن؛ وعندما يسأله النادل إذا كان على ما يرام يقول البطل - الضحية المعلول على نحو ميت والذي لا يزال يجهل ما حدث

(١) صلصة حرّيفة تشتمل على خلّ وتوابل... منسوبة إلى «ووستر» بإنكلترا. (المترجمة)

له إنه لا بد أن يكون قد أفرط في الشرب والسهر ويحتاج إلى هواء نقي كي ينتعش قليلاً.

يخرج «بيغلو» من الفندق، وهو يترنح قليلاً باستمرار، ويمسح جبينه بمنديل ويركب عربة كبلية مارة في الشارع. يقفز منها في «نوب هيل»، ثم يمشي؛ يمشي في شوارع خالية في وضح النهار، يمشي هادفاً إلى الوصول إلى مكان معيّن؛ هو في طريقه إلى مكان ما، لكن ما هو هذا المكان ولماذا؟ إلى أن يعثر على العنوان الذي يبحث عنه: مبنى أبيض ضخم حفر في واجهته الحجرية «المبنى الطبي» (Medical Building). ما باح به «بيغلو» للنادل لم يعكس حجم القلق الذي كان يساوره. فهو يعرف تمام المعرفة أنّ صحته في خطر.

في البداية جاءت نتائج الفحوص الطبية مشجعة. يقول الطبيب وهو يتفحّص صورة «بيغلو» الإشعاعية: «الرئتان في حالة جيدة وضغط الدم طبيعي والقلب على ما يرام. الحمد لله أن الجميع ليسوا مثلك وإلّا لكنا نحن الأطباء من دون عمل». يطلب إلى «بيغلو» ارتداء ثيابه ريثما تظهر نتائج فحوص الدم التي أجراها زميله. الدكتور «شايفر». في صدر الصورة يظهر «بيغلو» وهو يعقد ربطة عنقه، وجهه باتجاه الكاميرا، خال من التعابير. تدخل إحدى الممرضات إلى الغرفة وتقف خلفه، عقلها مشوّش إلى حدّ أنها غير قادرة على التفوّه بكلمة واحدة. تحملق فيه بنظرة تجمع بين الذعر والشفقة، وفي تلك اللحظة يتيقن المشاهد أن مصير «بيغلو» محتوم. يدخل الدكتور «شايفر» الغرفة محاولاً إخفاء قلقه الكبير وانزعاجه. يتثبّت هو والطبيب الأول أنّ «بيغلو» عازب وأن لا أقارب له في سان فرانسيسكو وأنه جاء إلى المدينة بمفرده. يسأل «بيغلو»: «لم كل هذه الأسئلة؟». يقول الطبيب: «أنت رجل مريض جداً. تماسَكْ واستعدّ لسماع خبر صادم».

ثم يطلعانه على المادة السامة الفوسفورية التي دخلت جسمه والتي سوف تصيب أعضاءه الحيوية قريباً جداً. يقولان إنّ ما بيدهما حيلة ويتمنيان إنقاذه ولكن لا يوجد ترياق لهذا النوع من السموم بالذات. أجله قريب وأيامه معدودة.

«بيغلو» مرتاب، غير مصدق، تثور ثائرته، ويصيح: «مستحيل! لا شك أنكم مخطئون؛ لا بد أن يكون هناك خطأ ما». لكن الطبيبين يدافعان عن تشخيصهما بهدوء ويؤكدان له أنه لا يوجد خطأ ، ما يستثير غضبه أكثر فأكثر. يزمجر قائلاً: «تقولان إنني من عداد الموتى! أنا حتى لا أعرفكما! لم ينتظر مني أن أصدقكما؟». ينعتهما بالمجنونين. يدفعهما جانباً ويندفع ثائراً من المكتب.

تنتقل الكاميرا إلى مبنى آخر أضخم حتى من المبنى السابق: أهو مستشفى؟ مركز طبي آخر؟ ولقطة تظهر «بيغلو» يصعد الدرجات الأمامية وثباً. يقتحم غرفة كتب عليها كلمة «طوارئ» (Emergency): هو رجلٌ هائج كالثور وعلى وشك التفجر مائة شظية، يشق طريقه بالقوة متجاوزاً ممرّضتين مذعورتين مرتبكتين، ويصرّ على مقابلة طبيب في الحال طالباً إخضاعه لاختبار طبي خاص بالسمّ المحتوي على مواد متفسفرة.

يخلص الطبيب الثالث إلى النتيجة ذاتها التي توصّل إليها الطبيبان الآخران. يقول له: «تجرّعت هذه المادة السامة، نعم. ولقد امتصها جسمك». ولإثبات هذه الحقيقة بالدليل، يطفئ النور الفوقي ويري «بيغلو» أنبوب الاختبار المحتوي على نتائج الفحص. مظهر مروّع: الأنبوب يلمع في الظلام: كأنما الطبيب يمسك زجاجة حليب متوهّجة. مصباحاً كهربائياً متوهّج الضياء، مبرغلاً، ملآن بالراديوم، أو ما هو أسوأ من ذلك: السقط أو الغبار النووي المسيّل المتساقط من قنبلة نووية.

يخمد غضب «بيغلو»؛ فبعد مجابهته بمثل هذا الدليل الدامغ، يتخدّر إحساسه موقتاً فيقول بهدوء: «لكنني لا أشعر أني مريض، وجع في المعدة لا غير».

ينبهه الطبيب إلى وجوب عدم الانخداع بعدم وجود أعراض ظاهرة للمرض وأنه لن يعيش أكثر من يوم أو يومين، أسبوع على أبعد تقدير: «ليس في الإمكان القيام بأي شيء الآن». ثم يكتشف الطبيب أن «بيغلو» يجهل تماماً الطريقة التي تجرّع بها السمّ ومتى تجرّعه أو أين، ما يعني أنّ طرفاً ثانياً قد دسّ له السمّ، طرفاً غير معروف، ما يعني أيضاً أن ثمة شخصاً اعتزم قتله عن قصد.

يقول الطبيب مادّاً يده لتناول سمّاعة الهاتف: «هذه حادثة قتل».

«جريمة قتل؟»

«أعتقد أنك لا تستوعب ما أقول يا «بيغلو». أحد ما قتلك».

وهنا ينتفض «بيغلو»، أي عندما يتحوّل الأمر الرهيب الذي حدث له إلى نوبة ذعر حادة، خارجة على السيطرة، عندما تبدأ صرخة العذاب المضني وسكرة الموت. يندفع خارجاً بقوة من غرفة الطبيب ومن المبنى، ويركض في الشوارع. وفيما تشاهد هذا الجانب من قصة الفيلم، هذه السلسلة من اللقطات المتتالية التي تتعقّب فرارية أو الأحرى «فوغية»[1] بيغلو الخارجة من عقالها في أرجاء المدينة، تفطن إلى أنك تشهد التجلي الظاهري لحالة باطنية وأن هذا الجري غير

(١) حالة مرضية يسيطر فيها جانب مكبوت من الشخصية، على الشخصية كلها. والمصاب بالفوغية يبدو، حين تهيمن عليه هذه الحالة، وكأنه يعي تصرفاته وأعماله، حتى إذا عاد إلى وضعه السوي نسي كل ما أقدم عليه. ومن المرجّح أن تكون الكلمة مأخوذة عن لفظة لاتينية معناها «الفرار». (المترجمة)

[illegible] وغير المتواني واللاواعي واللاهادف ليس إلا تمثيلاً وصفياً [illegible] ملكه الرعب وأنك تشاهد رقصة الخوف والفزع. تمّت ترجمة نوبة ذعر إلى عدو سريع جداً في شوارع إحدى المدن؛ فالذعر ليس إلا تعبيراً عن فرار ذهني، القوة التلقائية التي تنمو داخلك عندما تقع في الفخ وتنزلق في مأزق لا خروج منه، عندما لا تستطيع احتمال الحقيقة لقساوتها، عندما لا يعود في الإمكان التصدي لظلامة هذه الحقيقة المحتومة؛ فالردّ الممكن الوحيد يكمن في الفرار وتعليق عمل عقلك بتحويل نفسك إلى جسد يهذي، ينتفض، يلهث، ينازع. وهل هناك حقيقة أفظع من هذه؟ محكوم عليك بالموت في غضون ساعات أو أيام، بترت حياتك في أوجها لأسباب يفوتك استيعابها تماماً. حياتك قزّمت فجأة بحيث باتت ملء «كشتبان» من الدقائق والثواني وخفقات القلب.

الأحداث الباقية لا تهمّك. تشاهد القسم الثاني من الفيلم باهتمام، لكنك تعلم أنّ القصة انتهت، حتى وإن تتابعت أحداث القصة، فلم يبقَ شيء يقال. سوف يمضي «بيغلو» ساعاته الأخيرة في هذه الدنيا وهو يحاول حلّ لغز جريمة قتله. سوف يكتشف أن «فيليبس»، الرجل الذي اتصل بمكتبه من «لوس أنجلوس» قد لقي حتفه. سوف يذهب إلى «لوس أنجلوس» ويحقق في نشاطات أناس شتى من اللصوص والسيكوباتيين[1] وامرأتين ثنائيتي الوجه. سوف يطلق عليه الرصاص وتوجّه إلى جسده اللكمات والضربات. سوف يكتشف أن اشتراكه في القضية هو محض مصادفة وأنّ الأشرار يريدونه ميتاً لأنه اتفق أن

(١) المضطربين عقلياً. (المترجمة)

وثّق فاتورة بيع تتعلق بشحنة مسروقة من الإريديوم[1]، وهو الشخص الوحيد الحي الذي بإمكانه كشف هوية المجرمين. سوف يتعقّب قاتله، الرجل صاحب القبّة الغريبة الذي هو من قتل «فيليبس» أيضاً، ويقضي عليه في معركة حاسمة بالمسدسات جارية على منبسط[2] درجات سلّم مظلم. ومن ثم، أي بعد ذلك بوقت قصير، يموت «بيغلو»، تماماً كما قال الأطباء، وقبل أن يتمّ قصته التي يرويها للشرطة.

برأيك ليس ثمة خطأ في تنفيذ الفيلم على هذا النحو، فهذه هي الطريقة المعتادة لمعالجة مثل هذا الموضوع: الخيار البطولي الرجولي، أي المجاز الذي يناسب جميع قصص التشويق والمغامرة؛ لكنك تتساءل لم لا يفشي «بيغلو» خبر مصيره المحتوم الوشيك لأحد، حتى لـ «بولا» التي أضناها الحب، والمشغوفة به؟ لعلّ السبب يكمن في وجوب بقاء الأبطال أشدّاء حتى النهاية المرّة. حتى عندما ينفد الوقت، ليس في إمكانهم السماح لأنفسهم بالغوص في وحول المشاعر الرقيقة التي لا طائل فيها.

إلا أنك لم تعد قوياً، أليس كذلك؟ منذ أن انتابتك نوبة الذعر في العام ٢٠٠٢ لم تعد صُلباً؛ وعلى الرغم من أنك تسعى جاهدا لأن تكون شخصاً جديراً بالاحترام، لم تعتقد أنك بطل خارق منذ زمن بعيد. ثق بأنك لن تتصرّف مثل بيغلو لو كنت مكانه. نعم لكنت عدوت مثله في الشوارع؛ لكنت عدوت حتى لا يعود في إمكانك أن تخطو خطوة أخرى أو تتنفس أو تقف؛ ثم ماذا؟ لكنت اتصلت بـ «بولا»

(١) عنصر فلزي نادر، فضي البياض، ثقيل جداً، يكون في خامات البلاتين ويستخدم في صناعة الحلى. اكتشف عام ١٨٠٤. (المترجمة)

(٢) سطح مستو تنتهي عنده مجموعة من درجات الدرج أو السلم وتبدأ أخرى. (المترجمة)

في اللحظة التي توقفت فيها عن الجري. ولكن ماذا لو صودف وكان خط هاتفها مشغولاً لدى اتصالك بها، ما العمل حينئذ؟ تخرّ على الأرض مقهوراً منهكاً وتبكي بحرقة، لاعناً الدنيا التي أَبصرت النور من خلالها. وإلا وبكل بساطة لكنت زحفت إلى داخل حفرة في مكان ما وترقبت موتك.

لا تقدر أن ترى نفسك. تعلم كيف هي هيئتك من طريق المرايا والصور الفوتوغرافية، لكن في الخارج، ووسط المجتمع البشري وفيما تتنقّل بين إخوانك البشر، أكانوا أصدقاء أم غرباء أم أعزّ الأحباء، يختبئ وجهك عنك. يمكنك رؤية أجزاء أخرى من جسدك: الذراعان والرجلان، اليدان والقدمان، الكتفان والجذع، لكن من الأمام فقط. لا ترى شيئا من الظهر ما عدا قفا رجليك إذا لويتهما وغيّرت موقعهما كما ينبغي بحيث تقدر على رؤيتهما؛ ولكن ليس وجهك، ليس وجهك بالمطلق. وفي النهاية، أقله فيما يتعلق بالآخرين، وجهك يدل عليك ويقول من تكون، وهو الحقيقة الجوهرية لهويتك. جواز السفر لا يحتوي على صور لليدين والقدمين. حتى أنت، من سكنت داخل جسدك منذ كان وإلى الآن، أي على مدى أربعة وستين عاماً، قد لا تقدر على التعرّف إلى قدمك في صورة فوتوغرافية لهذه القدم فقط، ناهيك بأذنك أو مرفقك أو إحدى عينيك في صورة فوتوغرافية أخذت عن قرب. جميع هذه الأعضاء مألوفة جداً بالنسبة إليك في سياق المجموع، لكنها تغدو مجهولة إذا كانت أجزاء متفرقة. جميعنا غرباء بالنسبة إلى ذواتنا، وإذا امتلكنا حساً يشير إلى ماهيتنا ويعرّف بنا، يمكن حصول ذلك لسبب واحد فقط ألا وهو كوننا نعيش في عيون الآخرين. فكّر ملياً في ما جرى لك عندما كنت في الرابعة عشرة: توظّفت عند والدك واشتغلت أسبوعين في نهاية الصيف في «مدينة

جيرسي»، وانضممت إلى إحدى الفرق الصغيرة المسؤولة عن إصلاح وصون المباني الشققية التي امتلكها وأدارها والدك مع أشقائه: طلي الجدران والسقوف وإصلاح الأسطح ودق مسامير في اثنين بأربعة[1]، ونزع ألواح من اللينوئيوم المنفلع. الرجلان اللذان كنت تعمل وإياهما كانا أسودين، كما لم تكن ثمة شقة من تلك الشقق إلا سكنها شخص أسود، وجميع من في الحي كانوا سوداً. بعد أسبوعين قضيتهما وأنت لا ترى إلا وجوهاً سوداء، نسيت أن وجهك أنت لم يكن أسود بما أنك لم تستطع رؤيته: رأيت نفسك في وجوه الناس المحيطين بك؛ وشيئاً فشيئاً توقفت عن التفكير في أنك مختلف. في النتيجة لم تعد تفكر في نفسك بالمرة.

تتطلّع إلى يدك اليمنى وهي تمسك بقلم الحبر الذي تستخدمه في كتابة هذه اليوميات، يخطر «كيتس» ببالك وتفكر فيه وهو ينظر إلى يمناه في ظل ظروف مشابهة، ويقوم بكتابة إحدى قصائده الأخيرة، وفجأة يتوقف ليخطَّ على عجل ثمانية أبيات في حاشية القصيدة التي لم تكن قد طبعت بعد: صيحة عالية يطلقها شاب يافع كان على معرفة بأنه متجه إلى القبر في وقت قريب، يؤكدها على نحو خفي باستخدام كلمة «الآن» في الشطر الأول، لأن كل لحظة حاضرة أو آن تستلزم تضمين كلمة «لاحقاً». وهل هناك من «لاحق» يتطلع «كيتس» إليه إلا المقرون بإمكانية وفاته؟

لو أن هذه اليد الحية الدافئة الآن
التي تقوى على الإمساك بقوة، تبقى هكذا وهي باردة
قابعة في سكون القبر الجليدي،

---

(١) قطعة خشبية سماكتها إنشان وعرضها أربعة إنشات. (المترجمة)

عندما يلاحق الموت أيامك ويجمد لياليك الحالمة
حينئذٍ تتمنى أن يجمد الدم في قلبك
لعله يتدفّق من جديد في عروقي،
وتكون أنت مرتاح الضمير - انظر ها هي ذي يدي
أمدّها إليك.

بدايةٍ مع «كيتس»، ولكن ما أن تفكّر في «هذه اليد الحيّة» حتى تذكّرك بنادرة عن «جيمس جويس» رواها لك أحدهم ذات مرة: عندما كان «جويس» في باريس في عشرينيات القرن الماضي، واقفا مكتوف اليدين في إحدى الحفلات منذ خمسة وثمانين عاماً، اقتربت امرأة منه وسألته إن كان في إمكانها الشد على اليد التي كتبت «عوليس» (Ulysses)، وبدلاً من أن يمدّ لها يده اليمنى، رفعها وهو يرجّحها، وتأمّلها قليلاً وقال: «دعيني أذكّرك يا سيدتي أن هذه اليد سبق لها أن قامت بأمور أخرى عديدة أيضاً». لم يقدّم تفاصيل، ولكن يا له من رأي ظريف جمع بين الطرافة والإلماع، ومؤثر إلى حد بعيد لأنه أطلق العنان لخيال المرأة (لتفسيره). ما الأعمال التي أحب أن تتصوّرها المرأة؟ ربما تنظيف عجزه أو تنظيف أنفه بإصبعه أو الاستمناء في السرير ليلاً أو غرز أصابعه في فرج «نورا» ورجرجة ثقبها أو «فقء» البثور، أو كشط الطعام من أسنانه أو نتف شعيرات المنخرين أو تفريغ الصمغ من أذنيه أو، دعها تملأ الفراغات الملائمة، فالنقطة المحورية هي: وجوب ملئها بأكثر الأشياء الكريهة بالنسبة إليها. بالطبع قامت يداك بخدمتك بطرائق مشابهة، كما تفعل يدا كل إنسان، لكنها في غالبية الأوقات تنشغل في تأدية المهمات التي لا تتطلب من صاحبها تشغيل فكره، أو إن كانت فبقدر ضئيل: فتح الأبواب وإغلاقها؛ تثبيت

بصيلات مصابيح الإضاءة داخل المقبس؛ الضغط على أزرار الهاتف للاتصال برقم معين؛ غسل الصحون؛ تقليب صفحات الكتب؛ الإمساك بقلمك؛ تنظيف أسنانك بالفرشاة والمعجون؛ تجفيف شعرك؛ طي المناشف؛ سحب المال من محفظتك؛ حمل أكياس البقالة؛ استخدام بطاقة المترو لفتح الأبواب الدوارة داخل القطارات الكهربائية النفقية؛ كبس الأزرار على الآلات؛ التقاط الجريدة عن السلّم الأمامي في الصباح؛ ردّ أغطية السرير؛ إبراز تذكرتك لقاطع التذاكر في القطار؛ سحب السيفون؛ إشعال سيجارك الصغير؛ إطفاء عقب سيجارك الصغير في المنفضة؛ ارتداء البنطال وخلعه، ربط سير حذائك؛ بخّ معجون الحلاقة على أطراف أصابعك؛ التصفيق لدى حضورك المسرحيات والحفلات الموسيقية؛ إدخال المفتاح في القفل؛ حك وجهك وذراعك وعجزك؛ نقل حقائب السفر بالعربات ذات العجلات في المطارات؛ إفراغ حقائب السفر؛ تعليق قمصانك؛ إغلاق الزمام المنزلق[1] للسان البنطال؛ تثبيت مشبك حزامك؛ «تبكيل» أزرار سترتك؛ عقد ربطة عنقك؛ النقر بأصابعك على الطاولات؛ تحميل آلة الفاكس بالورق؛ تمزيق شيكات من دفتر شيكاتك؛ فتح علب الشاي؛ إشعال الأنوار وإطفاؤها؛ تسوية وسادتك قبل الإخلاد إلى النوم. هاتان اليدان ذاتهما وجّهتا لكمات وضربات إلى بعض الأشخاص (كما ذكر سابقاً)، كما ضربتا الجدران أيضاً في أوقات الإحباط الشديد، وقد حدث هذا الأمر ثلاث أو أربع مرات. هاتان اليدان رمتا وأوقعتا صحوناً على الأرض، والتقطتا صحوناً عن الأرض. الأيادي التي صافحتها يمناك لا يسعك تذكر عددها لكثرتها، كما «مخّطت» أنفك ونظّفت عجزك، والمرات التي لوّحت فيها بيدك هذه في لحظات الوداع تفوق الكلمات في

(١) طية في فتحة من فتحات البنطال تغطى بها أزراره. (المترجمة)

أضخم القواميس عدداً. حملت يداك طفليك وقامتا بتنظيف مؤخرتيهما وتمخيط أنفيهما وتحميمهما وفرك ظهريهما وكفكفة دموعهما ومداعبة وجهيهما. يداك هاتان ربتتا أكتاف الأصدقاء وزملاء العمل والأقرباء. وفي المقابل دفعتا أشخاصاً بالقوة، كما رفعتا أشخاصاً عن الأرض وأمسكتا بأذرع أشخاص على وشك الوقوع، كراس ذات عجلات أصحابها أناس عاجزون لا يقوون على المشي. يداك لمستا أجساد نساء كاسيات وعاريات، وتنقّلتا على جسد زوجتك العاري كله واهتدتا إلى كل «جزء» منه. تشعر أنهما في أسعد حال هناك، ولطالما كانتا كذلك منذ اليوم الذي التقيتها فيه أول مرة، وتأييداً لقولك هذا تستشهد بشطر في إحدى قصائد «جورج أوبن» أعدت صوغه: «بعض أجمل الأماكن في العالم توجد على جسد زوجتك».

بعد حادث تحطّم سيارتك بيوم واحد عام ٢٠٠٢، توجهت إلى الساحة التي احتفظ فيها بالسيارات والآلات القديمة التي كانت قد قطرت السيارة إليها، لاسترداد مقتنيات ابنتك. كان صباح يوم أحد في شهر آب/أغسطس والجو دافئ كالمعتاد، مع وجود غشاوة ضبابية مطرية تنقّط على الشوارع حين أوصلك أحد الأصدقاء في سيارته إلى منطقة مجاورة قفرة في «بروكلين»: أرض مشاع[1] تحتوي على مخازن كبيرة للبضائع وأماكن خالية ومبان مكسوة بألواح خشبية، مؤجرة أسبوعيا أو شهرياً لقاء الطعام والمبيت. أما ساحة الآليات المحطمة فكانت تحت إشراف وإدارة رجل أسود في منتصف الستينيات، شخص ضئيل البنية بعض الشيء، ذو ضفائر مروّعة[2] وله عينان صافيتان ثابتتان

(١) غير آهلة ولا يملكها امرؤ بعينه. (المترجمة)

(٢) ضفائر طويلة تميّز جماعة من زنوج جامايكا. (المترجمة)

غير مرتعشتين. استفارياني[1] لطيف، أشرف على ما يملك من آليات محطمة مثلما يسوق الراعي قطيعاً متكاسلاً من الماشية. أعلمته سبب مجيئك، وعندما اصطحبك إلى حيث وقفت سيارة «التويوتا» الجديدة الزاهية التي كنت تقودها قبل يوم، صدمت لدى مشاهدتك إياها محطمة تماماً، غير مصدّق كيف نجوت أنت وأسرتك من تلك الكارثة. بعد الحادث مباشرة لاحظت الضرر الجسيم الذي أصاب السيارة، ولكن بسبب اضطرابك الشديد من جرّاء الاصطدام لم تستطع استيعاب ما جرى لك تماماً، بيد أنك بعد الحادث بيوم واحد رأيت هيكل السيارة المعدني محطماً تماماً بسبب الاصطدام، وبدا كورقة «مجعلكة». قلت للاستفارياني: «بربك انظر، كان ينبغي أن نكون كلنا أمواتاً الآن». تفحّص السيارة بضع ثوان ثم حدّق إليك، ومن بعدها رفع رأسه فيما الرذاذ يتساقط على وجهه وشعره الكثيف. قال بصوت هادئ: «كنتم بحراسة ملاك وقاكم من الخطر. كان من المفترض أن تموتوا بالأمس لكنْ ثمة ملاك نجّاكم من قبضة الموت ومدّ يده وجذبكم إلى الأرض ثانية». وجّه إلي تلك الكلمات بهدوء كلي وبصوت المقتنع تماما بصحتها حتى كدت تصدقه.

عندما تنام يكون نومك عميقاً ولا تتحرك في نومك إلا نادرا، وتبقى في الوضعية ذاتها حتى يحين وقت استيقاظك في الصباح. مع ذلك ثمة مشكلة تصادفها بين الحين والآخر تتمثل في المقام الأول في عزوفك عن الخلود إلى السرير؛ تدهمك موجة من الطاقة في آخر الليل

(١) مؤمن بالاستفاريانية وهي عقيدة دينية زنجية جامايكية الأصل تذهب إلى القول بأن إفريقيا هي أرض الميعاد التي سيعود إليها جميع الزنوج ذات يوم، وتجعل من تعاطي الماريجوانا طقساً دينياً وتحرّم قص الشعر وتعتبر هيلاسيلاسي، إمبراطور إثيوبيا السابق مسيحاً أو إلهاً. (المترجمة)

تمنعك من ردّها إلا بعد الانتهاء من قراءة فصل آخر من الكتاب الذي تقرأه، أو من مشاهدة فيلم على التلفزيون، أو إذا حلّ موسم المباريات النهائية للبيسبول وكان فريق «ميتس» أو «يانكيز» يلعب في «الساحل الغربي»، تضبط جهاز التلفزيون على المحطة التي تبث المباراة من «سان فرانسيسكو» أو «أوكلاند» أو «لوس أنجلوس». بعدئذ تتسلل إلى السرير وترقد إلى جانب زوجتك، وما هي إلا عشر دقائق حتى تستغرق في النوم حتى الصباح. ومع ذلك، وبين حين وآخر، لا بد أن يعيق أمر ما سباتك العميق عادة. فعلى سبيل المثال، إذا صودف أن تقلّبت ونمت على ظهرك قد تبدأ بالشخير، بل في معظم الاحتمالات لا بد أن تبدأ بالشخير، وإذا كان شخيرك عالياً بما فيه الكفاية لإيقاظ زوجتك فسوف تستحثّك بلطف ورويّة على أن تنقلب على جانبك؛ وفي حال لم يفلح معك هذا الأسلوب الناعم، تلجأ حينئذٍ إلى «التدفيش» أو هزّ كتفك أو قرص أذنك؛ وغالباً ما تأتمر بأمرها من دون وعي، وتعاود هي النوم سريعاً. أما في المرات القليلة التي تستفيق فيها وتكون واعياً تماماً من جراء «دفشتها»، ولأنك لا تكون راغباً في تعكير صفو نومها مرة أخرى، تنزل إلى غرفة المكتبة عبر الردهة وتتمدد على الكنبة الطويلة بما فيه الكفاية لتسع جسدك بطوله. وفي معظم الأحوال تتمكن من الاستغراق في النوم مجدداً على الكنبة، ولكن في بعض الأحيان لا يسعك ذلك. وعلى مدى السنين اعتكر صفو نومك أيضاً بسبب الذباب و«البرغش» الذي يئز في الغرفة (فظائع الصيف) بسبب اللكمات غير المقصودة التي تتلقاها في وجهك من زوجتك المتعودة إلقاء ذراعيها بعنف حين تتقلب في السرير؛ وذات مرة، مرة واحدة فقط، انتشلت من أحلامك عندما أخذت زوجتك تغني وهي غارقة في النوم، تعيش أحد أحلامها؛ أخذت تغني بصوتٍ

عالٍ أشعاراً غنائية من فيلم شاهدته في طفولتها. تصوّر زوجتك اللامعة الذكاء والواسعة الاطلاع والرفيعة الثقافة تعود إلى طفولتها في إحدى مناطق الغرب الأوسط الأميركية وتؤدي على نحو رائع وبصوت جهوري (Supercalifragilisticexpialidocious): الأغنية التي أدتها «جولي أندروز» في فيلم «ماري بوبينز». هي إحدى الحالات النادرة التي يبدو لك الفرق فيها بين عمرك وعمرها ظاهراً (ثماني سنوات) لأن الفيلم موجه إلى الصغار وكنت أنت راشداً وقت عرضه في السينما لذا (ولحسن الحظ) لم تشاهده قط.

لكن ما العمل عندما تكون في «عزّ الليل» وقد استيقظت بين الثانية والرابعة فجراً وتمدّدت على الكنبة في غرفة المكتبة ولا تستطيع النوم مجدّداً؟ الوقت فات على القراءة وعلى تشغيل التلفزيون وعلى مشاهدة أحد الأفلام السينمائية؛ وهكذا تقبع مستلقياً في الظلام وتمعن في التفكير، مطلقاً لأفكارك العنان، تاركاً إياها تشرد كيفما شاءت. في بعض الأحيان تكون محظوظاً وتستطيع تركيز اهتمامك كله على كلمة أو شخصية أو مشهد من الكتاب الذي تعمل عليه، ولكنك في معظم الأوقات تجد نفسك تفكّر في الماضي وفي تجاربك الحياتية. كلما اتجهت أفكارك إلى الماضي في الساعة الثالثة فجراً كانت بطبيعتها سوداوية. ذكرى واحدة تسكنك أكثر من سواها، وفي الليالي التي يصيبك فيها الأرق ولا تقدر أن تنام يصعب عليك أن تردّها عنك، وهكذا تجتر أحداث ذلك النهار ذاتها وتختبر من جديد مشاعر الخجل والخزي التي انتابتك من بعدها ولا تزال تنتابك إلى الآن. حدث هذا منذ اثنتين وثلاثين سنة، صباح اليوم الذي أقيمت فيه جنازة والدك؛ حيث صودف أن كنت واقفاً بقرب أحد أعمامك (والد قريبتك التي اتصلت بك في الصباح الذي أصبت فيه بنوبة الذعر). كنتما تصافحان طابور المشيّعين

الذين كانوا يمرّون أمامكما لتقديم التعازي: الشكليات المعتادة من مصافحة اليد والكلمات الفارغة التي تطبع الطقوس المتبعة في كل المآتم. غالبية الموجودين كانت من الأقارب وأصدقاء والدك، رجال ونساء ووجوه تعرفها ولا تعرفها. ثم كنت تصافح «توم»، أحد الوجوه التي لم تذكرها، والذي أخبرك أنه عمل لدى والدك سنوات عديدة بصفته رئيس العمال الكهربائيين، وأنه لطالما أحسن والدك معاملته. قال إن والدك كان رجلاً صالحاً. هذا الإيرلندي الصغير البنية جاء يقول لك بلهجته التي يتميز بها سكان «مدينة جيرسي»؛ إنّ والدك كان رجلاً صالحاً. شكرته على قوله هذا وصافحته من جديد تعبيراً عن امتنانك، ومن بعدها انصرف عنك ليصافح عمك الذي ما أن لمحه حتى طلب منه مغادرة المكان، «لأنها مناسبة عائلية مقصورة على الأهل والأقارب ولا مكان فيها للغرباء»، هكذا قال. وعندما تمتم «توم» قائلاً: «أردت القيام بواجب العزاء فقط»، أجابه عمك أنه متأسف وأنّ عليه (أي توم) مغادرة المكان. وهكذا غيّر «توم» وجهته وغادر المكان. لم تدم محادثتهما أكثر من خمس عشرة أو عشرين ثانية، وقبل أن يتسنّى لك فهم ما جرى كان «توم» قد مضى في سبيله، ولكن عندما استوعبت أخيراً ما قام بك عمك، غمرك شعور بالقرف والاشمئزاز، وقد روّعتك معاملته الفظة لمطلق أي شخص، فما بالك بهذا الشخص، لأنه ما من سبب لمجيئه سوى لكونه شعر أن من واجبه المجيء. وما يثير سخطك إلى الآن ويُشعرك بالخجل الشديد هو سكوتك وعدم توجيه كلمة عتاب واحدة إلى عمك. يعني لو كان عمك رجلاً معروفاً بحدّة الطباع وبتهوّره وباحتدام مشاعره وبانقياده لنوبات الغضب والصراخ الهادرة الهائجة، ولو كان أمراً محققاً صبّ جام غضبه عليك في مأتم والدك إذا أنت واجهته. وما في ذلك؟ وجب عليك مواجهته؛ وجب عليك

امتلاك الجرأة للرّد على شتائمه وصراخه بالمثل إن هو أقدم على ذلك، أو أقله الذهاب في إثر «توم» ومناشدته البقاء. لا تملك أدنى فكرة عن سبب إحجامك عن اتخاذ موقف في تلك اللحظة؛ ولا تحتج بالقول إنّ موت والدك وقع كالصاعقة عليك وإنّ الصدمة من جرّاء وفاته هي وراء انعقاد لسانك. وجب عليك التصرّف ولم تتحرك. دافعت طوال عمرك عن المهانين والواقعين ضحية المتسلطين والنافذين، فمن بين المبادئ الأخرى كان هذا أكثر ما آمنت به، لكنك في ذلك اليوم بالذات حدْتَ عنه وخرست ولم تحرّك ساكناً. عندما تعاود النظر في ما جرى حينذاك تدرك أنّ تخلّفك عن القيام بالمطلوب والتحرّك هو السبب الذي دعاك إلى التوقّف عن اعتبار نفسك رجلاً مقداماً: لأنك لم تكن معذوراً.

قبل ذلك بتسع سنوات (عام ١٩٧٠) وبينما كنت في عداد الطاقم العامل في الناقلة «إس. إس. إسّو فلورنسا»، هدّدت أحد العاملين معك بلكمه وحتى بقتله لاستهزائه بك وقذفك بإهانات معادية للسامية. أمسكت بقميصه وألقيته بعنف على أحد الجدران ورفعت قبضتك اليمنى إلى وجهه طالباً منه التوقّف عن إهانتك وشتمك وإلاّ.. تراجع «مارتينيز» فوراً واعتذر، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحتما صديقين مخلصين (ما جرى بينكما شبيه بما حدث بينك وبين السيدة «روبنشتاين» مع فروق بسيطة). بعد تسعة أعوام، أي تسعة أعوام بعد جنازة والدك (عام ١٩٨٨)، كدت تلكم أحدهم ثانية وكانت المرة الأخيرة التي أوشكت فيها على الدخول في معركة شبيهة بتلك التي اعتدت خوضها في صباك. مكان الحدث باريس، وما زلت تذكر التاريخ جيداً: الأول من أيلول/سبتمبر، وهو أحد الأيام المميّزة في الروزنامة الفرنسية: يصادف النهاية الرسمية للعطلة الموسمية الصيفية ومن ثم يوم التجمعات والتزاحم والفوضى العارمة. قبله بستة أسابيع

كنت في جنوب فرنسا تقيم في بيت ناشرك الفرنسي مع زوجتك وطفليك، مكان يبعد خمسة عشر كيلومتراً عن شرق «آرل». كان وقتاً للراحة والاسترخاء بالنسبة إليكم جميعاً، شهر ونصف شهر من الهدوء والعمل ، من المشاوير الطويلة والنزهات الجماعية وغير المنتظمة عبر تلال «ألبيل» البيضاء، والعشوات الخارجية تحت شجرة الدلب في فناء البيت. ربما هو الصيف الأمتع في حياتك مع المتعة الإضافية المتمثلة برؤية ابنتك البالغة عاماً واحداً من عمرها تخطو خطواتها الأولى المتقلقلة من دون التشبُّث بيدي والديها. لا بد أنك لم تفكر بجلاء عندما وقّت رجوعك إلى باريس في الأول من أيلول/سبتمبر، أو ربما وبكل بساطة لم تعرف ما سينتظرك لدى وصولك إلى هناك. كنت قد دبّرت سفر ابنك البالغ أحد عشر عاماً على متن طائرة للرجوع إلى «نيويورك» (رحلة مباشرة من «نيس»)؛ وهكذا كنتم أنتم الثلاثة فقط في القطار المتجه إلى الشمال في ذلك اليوم: أنت وزوجتك وابنتك الصغيرة، إضافة إلى أمتعة يستلزم استخدامها طوال فصل الصيف، ونصف طن من حوائج الطفلة. على أي حال، كنت تتطلّع قدماً للوصول إلى باريس بما أنّ ناشر كتبك سبق أن أبلغ إليك صدور مقال طويل ومعمّق يتناول أعمالك في «لوموند» عصر ذلك اليوم، ورغبت في شراء نسخة من الصحيفة فور ترجّلك من القطار. (لم تعد تقرأ الآن مقالات تكتب عنك ولم تعد تقرأ دراسات نقدية لكتبك، لكنك كنت راغباً في ذلك حينذاك ولم تكن قد تعلّمت أنّ تجاهل ما يقوله عنك الآخرون هو أمر مفيد لصحتك الذهنية بصفتك كاتباً). الرحلة على متن القطار الفرنسي السريع من «آفينيون» كانت مرهقة للأعصاب بعض الشيء بسبب ابنتك، في المقام الأول، التي باتت مأخوذة بالقطار السريع إلى حد أنها لم تجلس ساكنة ولم تنم، ما يعني أنك أمضيت

معظم الرحلة، التي استغرقت ثلاث ساعات، وأنت تذرع معها ممائ
عربات القطار جيئة وذهاباً؛ وعندما حان الوقت للتوقّف عند «محط
ليون» (Gare de Lyon) شعرت بالرغبة في «أخذ غطّة». كانت المحط
مكتظّة بالناس: أعداد غفيرة من المسافرين تتدفق من جميع الجهات
ووجب عليك أنت وزوجتك اتباع أسلوب «التدفيش» والتدافع حتى
وصلتما إلى المخرج بجهد جهيد. كانت هي تحمل الطفلة بين ذراعيه
وأنت تبذل أقصى جهدك لدفع حقائب العائلة الثلاث الكبيرة وجرّها
عمل لا يستهان به أبداً لأنه ليس لك سوى يدين اثنتين، إضافة إلى
كيس خيش معلّق بكتفك وهو يحوي الصفحات الخمس والسبعين
الأولى من روايتك غير المنجزة؛ وعندما توقفت لشراء نسخة من
«لوموند»، أسقطتها في الكيس أيضاً. لا ريب أنك رغبت في قراءة
المقالة، ولكن بعد التحقق من كونها طبعت في العدد الصادر عصر
ذلك اليوم، وضعت الجريدة في الكيس مفترضاً أنك ستتمكن من قراءة
المقالة من كثب لدى انتظارك بالصف للحصول على سيارة أجرة. لكن
حالما تمكّنتم أنتم الثلاثة من اجتياز بوابة الخروج، تبين لك أنه لا
وجود لأي صف من منتظري التاكسي. كانت هناك سيارات أجرة أمام
المحطة وكان هناك أناس ينتظرون سيارات الأجرة تلك ولكن لم يكن
ثمة صف منتظم. كان الحشد هائلاً؛ وخلافاً للإنكليز، المعتادين
الاصطفاف كلما ازداد عدد الموجودين منهم على الثلاثة، والوقوف
كل واحد منهم من دون تبرّم حتى يحين دوره، أو حتى الأميركيين
الذين لا يحسنون القيام بهذا الأمر تماماً كالإنكليز، والذين نجد عندهم
دائماً حساً فطرياً بالغدالة ولا يخرجون على الأصول المعروفة. يصبح
الفرنسيون أطفالاً مشاكسين ونكدين كلما كثر عددهم واحتشدوا في
مساحة ضيقة، وبدلاً من أن يحاولوا بصفتهم الجماعية فرض النظام في

موقف كهذا، يصير كل شخص منهم شفيع نفسه. حالة الهرج والمرج أمام «محطة ليون» في ذلك اليوم ذكّرتك بقصاصات إخبارية معيّنة سبق أن شاهدتها عن بورصة نيويورك: «يوم الثلاثاء الأسود» و«يوم الجمعة الأسود»، والأسواق العالمية في حالة إفلاس، والعالم مدمّر؛ وهناك في حلبة البورصة يقف رجال كثر ثائرون مهتاجون، ربما ناهز عددهم الألف، يصرخون بأعلى صوت، كل واحد منهم على وشك الوقوع ميتاً من جرّاء نوبة قلبية. على هذا النحو كان الحشد الذي كنت من عداده في ذلك اليوم الموافق الأول من أيلول/سبتمبر منذ اثنين وعشرين عاماً ونصف العام: غوغائيون انفلتوا بلا ضابط، وليس ثمّة مسؤول عنهم، وهم أشبه بالرعاع والغوغائيين المتمرّدين اقتحموا منذ قرنين الباستيل الذي كان قائماً على رمية حجر من حيث كنت تقف معهم في ذلك الأول من أيلول. لكنكم لم تكونوا في أجواء ثورة، فما كان يطالب به الناس هو سيارات أجرة وليس الخبز أو الحرية، وبما أنّ سيارات الأجرة المعروضة لم تكن كافية، أي كان عددها يساوي أقل من جزء من خمسين بالنسبة إلى العدد المطلوب، كان الناس يرغون ويزبدون ويصرخون، مستعدين لتقطيع بعضهم بعضاً إرباً إرباً. تذكر أنّ زوجتك التزمت الهدوء، يسلّيها المشهد غير المألوف الذي كان يتكشف من حولها تدريجاً؛ حتى ابنتك الصغيرة بقيت هادئة وأمارات التعجّب والاستغراب بادية في عينيها الكبيرتين المفعمتين بالفضول وحب الاستكشاف. لكنّ أمرك ازداد سوءاً وبدأت تشعر بالضيق. لطالما كنت في أسوأ حالاتك وأنت مسافر: متوتر الأعصاب وسريع الغضب والانفعال ولست على طبيعتك، وأكثر ما تمقته هو الوقوع رهينة فوضى الحشود العارمة؛ وفيما قدّرت حجم المأزق الذي تورطت فيه خلصت إلى اضطراركم أنتم الثلاثة إلى الانتظار في ذلك المكان وسط تلك

الحشود ساعة بطولها أو ساعتين كاملتين قبل العثور على سيارة أجرة، لا ليس ساعة أو ساعتين بل ربما ست ساعات، وربما مئة ساعة. ولهذا قلت لزوجتك ربما كان من الأفضل البحث عن سيارة أجرة في مكان آخر. أشرت إلى سيارة أجرة أخرى واقفة أسفل التلة، أي على بعد بضع مئات من الياردات. قالت زوجتك: «ولكن ماذا عن الحقائب؟ لن يكون بمقدورك حمل ثلاث حقائب ثقيلة إلى هناك». وأجبتها: «لا تقلقي، بإمكاني تدبّر الأمر». بالطبع لم تستطع أو أنك بالكاد تدبّرته. وبعد جرّ تلك الأمتعة الهائلة الحجم التي تهدّ الحيل مسافة عشرين أو ثلاثين ياردة فقط، أدركت أنك غاليت في تقدير قوتك الجسدية إلى حد بعيد ولكن كان الرجوع ضرباً من الحماقة والجنون لبلوغكم نقطة اللاعودة، ولهذا تابعت سيرك متوقفاً كل عشر ثوان لإعادة ترتيب الحمل بتبديل الحقيبتين ونقل الكيس من ذراعك اليسرى إلى اليمنى وبالعكس، وفي بعض الأحيان بوضع إحدى الحقائب على ظهرك وحمل الأخرى بيدك. لقد غيّرت باستمرار وضعية أحمالك التي لا بد أن بلغ مجموع وزنها مئة باوند تقريباً. كان أمراً بديهيا أن تعرق وأن يتصبّب العرق من مسامك تحت شمس بعيد الظهر الحارة. وما أن تمكنتم من بلوغ موقف سيارات الأجرة التالي، حتى أخذ منك التعب والإرهاق كل مأخذ. قلت لزوجتك: «أرأيت؟ قلت لك بمقدوري القيام بهذا الأمر». ابتسمت لك كما تبتسم لطفل ساذج عمره عشر سنوات، لأنه في الواقع لم تكن هناك سيارات أجرة متوقفة على الرغم من نجاحك في الوصول إلى موقف سيارات الأجرة الآخر، والسبب هو توجه جميع السائقين في المدينة إلى «محطة ليون». لم يكن ثمة ما تقوم به حينذاك سوى أن ترابط مكانك وتأمل أن ترى سيارة أجرة قادمة في اتجاهك في نهاية الأمر. مرّت الدقائق وأخذ جسدك يبرد

ودرجة حرارتك تتدنى حتى أصبحت طبيعية تقريباً. ثم، وفيما لاحت للنظر سيارة أجرة، رأيت أنت وزوجتك امرأة تسير باتجاهكما: امرأة إفريقية شابة، طويلة جداً، مرتدية زياً إفريقياً مزركشاً. تسير بقامة منتصبة وحول صدرها تلتف حمالة يرقد فيها طفل صغير، ومن يدها اليمنى يتدلى كيس بقالة ثقيل، ومن يسراها يتدلّى كيس بقالة ثقيل آخر، وقد استقرّ كيس ثالث على رأسها، وكأنما هي طيف يجسّد ذروة الجمال البشري: تمشي متمايلة برشاقة وبتؤدة؛ امرأة عاقلة وحكيمة لقدرتها على توزيع أحمالها بالتساوي. ولهذا حافظت على ثبات وضعية رأسها ورقبتها وذراعيها ، وطفلها نائم على صدرها. وبعد قيامك بذلك العرض المحرج الذي إن دلّ على شيء فعلى غباوتك وحماقتك وأنت تسحب بشدة حقائب عائلتك إلى هذا المكان، شعرت كم كنت سخيفا ومضحكاً في حضرتها، وقد راعك إتقان كائن بشري مثلها عملا أخفقت أنت في القيام به. كانت لا تزال تسير باتجاهك عندما توقفت سيارة الأجرة. أحسست بالارتياح والغبطة وأخذت تعبئ صندوق السيارة بحقائب السفر ومن بعدها «صعدت» إلى المقعد الخلفي إلى جانب زوجتك وابنتك. «إلى أين؟»؛ سألك السائق، وعندما أفصحت له عن وجهتك هزّ رأسه وطلب منكم الترجّل من السيارة. لم تفقه كلامه في البداية، فسألته: «عمّ تتحدث؟» وأجاب: «أتحدث عن «التوصيلة»؛ المسافة قصيرة جداً ولن أضيع وقتي على أجرة ركوب تافهة كهذه». قلت: «لا تقلق، سأطيّب خاطرك وأناولك حلوانا «حرزاناً»». فقال: «لا يهمني حلوانك. كل ما أريده هو خروجكم من السيارة، الآن». قلت: «أنت أعمى؟ معنا طفلة صغيرة ومئة باوند من الأمتعة. ماذا تنتظر منا فعله؟ نمشي؟». ردّ قائلاً: «هذه مشكلتك لا مشكلتي. هيا ترجّلوا». لم يعد ثمة ما يقال له. إذا كان الوغد الحقير

الجالس في المقعد الأمامي لن يقلك إلى الوجهة التي حددتها له، فهل كان من خيار آخر سوى الترجّل أنت وزوجتك من سيارة الأجرة وإنزال حقائبك من الصندوق وانتظار أخرى؟ فار دمك ولم تشعر بمثل هذا الغضب والإحباط منذ زمن بعيد، لا بل لم تذكر أنك كنت غاضباً وساخطاً بهذا القدر من قبل، وعندما رفعت الحقائب من صندوق السيارة وانصرف سائق سيارة الأجرة بعيداً، تناولت كيس الخيش المعلّق بكتفك، أي الكيس الذي احتوى النسخة الوحيدة للمؤلف غير المطبوع الذي لم تكن قد أنجزته بعد، ناهيك بالمقالة في صحيفة الموند التي كنت متشوقاً لأن تقرأها، وألقيته باتجاه سيارة الأجرة المدبرة. استقرّ على صندوق السيارة محدثاً وقوعه صوت ارتطام شديداً، صوتاً مدوياً «يفشّ» الخلق لقوّته الهائلة الشبيهة بإقحام علامة تعجب في حرف طباعي يتجاوز حجمه الحد المعقول. أوقف السائق السيارة فجأة وترجّل منها وأتى ناحيتك بقبضتيه المضمومتين وهو يصرخ في وجهك بسبب تهجمك على سيارته الغالية على قلبه، ويتشوق إلى مبارزتك. ضممت قبضتيك بدورك، وصرخت أنت أيضا في وجهه محذّراً إياه من التقدّم خطوة أخرى نحوك، مضيفاً بأنه إذا لم يذهب في حال سبيله فسوف تقطّعه إرباً إرباً وترمي عجزه الباعث على الشفقة في البالوعة. عندما نطقت بهذه الكلمات الهادرة لم يكن لديك أدنى شك بأنك كنت على أهبة الاستعداد للاشتباك معه، وبأنه ما من شيء سيمنعك منِ تنفيذ وعدك بالقضاء على هذا الرجل. ما أن نظر إلى عينيك ورأى أنك كنت جاداً في ما قلت، حتى أدار ظهره واستقلّ سيارته وانطلق بعيداً. ذهبت إلى الشارع لجلب كيسك، وفي تلك اللحظة بالذات، وفيما انحنيت لالتقاطه، رأيت الإفريقية الشابة تسير على الرصيف وهي تحمل طفلها والصُّرر الثلاث الثقيلة. تجاوزتك

وأصبحت بعيدة عنك، ربما على بعد عشر أقدام أو عشرين قدماً عنك؛ وفيما رأيتها تبعد أكثر فأكثر، رحت تراقب خطواتها الواثقة والمتوازنة، وقد أدهشك سكون جسدها، مدركاً أنه عدا تمايل وركها الرقيق كان كل عضو منها ساكناً إلا رجليها.

عظمة مكسورة واحدة: عندما تفكر ملياً في ألوف المباريات التي شاركت فيها وأنت فتى يافع، تفاجأ لعدم إصابتك بكسور أخرى حينذاك، أقله عدة كسور. فقد أصبت بالتواء في الكاحلين ورضوض في الفخذين والتواء في مفصلي اليدين ووهن في الركبتين وقروح في المرفقين وتمزّق في عظم الساق الأكبر وخبطات على الرأس ولكن ما من عظام كسرت سوى واحد فقط: كتفك اليسرى. تعرّضت لهذه الإصابة في أثناء اشتراكك في مباراة كرة القدم عندما كنت في الرابعة عشرة، ما حال دون التمكّن من رفع ذراعك طوال الخمسين سنة الماضية. ولكن لم يكن لهذا الكسر أي أثر كبير ولعلك لم تكن لتأتي على ذكره الآن لولا الدور الذي أدته والدتك في هذه الحادثة، ولهذا السبب هي القصة كلها وليست كيفية وقوع إصابتك: كنت تلعب بصفتك ظهير توجيه الهجوم[1] في فريق الصف التاسع. اندفعت بكل قوّتك لالتقاط كرة قذفت وحطّت بالخطأ في أحد المواقع الخلفية من الملعب وانتهى بك الأمر بكسر كتفك. كنت وحيداً ولم يهب لنجدتك أي من اللاعبين في الفريق الآخر. من فرط اندفاعك وحماستك لاستعادة الكرة قطعت المسافة بوثبة عالية جداً بحيث نزلت في الموضع الخاطئ، وعلى البقعة غير المناسبة، وبهذا كسرت عظم كتفك فور وقوعك بقوة على الأرض الصلبة. حدث هذا ذات عصر يوم من أيام تشرين الثاني/نوفمبر المتميزة ببردها القارس. كانت مباراة من دون حكم أو إشراف من قبل

(١) اللاعب الذي يوجه الهجوم في كرة القدم الأميركية. (المترجمة)

الراشدين. وبعدما آذيت نفسك وقفت على الخط الفاصل وتفرّجت على ما تبقّى من المباراة وقد خاب أملك لأنه لم يعد بمقدورك اللعب، غير دار بأن كتفك كانت مكسورة ولكنك أدركت أن الإصابة لم تكن طفيفة لأنك كلما حرّكت ذراعك انتابك ألم شديد. بعد ذلك، رجعت إلى البيت بمعية أحد أصدقائك بعد إيقاف إحدى السيارات لإيصالكما مجاناً، وكنتما ما زلتما في زي الرياضة. تذكر كم وجدت صعوبة في نزع قميصك وحشوتي الكتف، في الواقع لاقيت صعوبة بالغة إلى حد أنك لم تستطع القيام بذلك من دون الاستعانة بصديقك. كان يوم سبت ولا أحد في البيت: خرجت شقيقتك إلى مكان ما برفقة بعض الأصدقاء ووالدك في مكان العمل ووالدتك أيضاً، بما أنه لطالما شهد يوم السبت زحمة في العمل المرتبط بتعريف الشارين المحتملين بالبيوت المعروضة للبيع أو الإيجار. بعد معاونة صديقك لك في نزع حشوتي القميص، رن جرس الهاتف وانصرف صديقك للرّد على الاتصال لأنك بتّ غير قادر على التحرّك لاشتداد الألم. كانت أمك على الخط الآخر، ومن دون مقدمات استفهمت صديقك عن صحتك سائلة: «هل «بول» على ما يرام؟» أجابها: «حسناً، في الحقيقة لا يشعر بخير. يبدو أنه آذى ذراعه». ثم قالت له أمك: «كنت متيقنة من حدوث خطب ما ولهذا اتصلت، لانشغال بالي». أخبرت صديقك أنها ستأتي إلى البيت في الحال وأقفلت الخط. في وقت لاحق، أي عندما كانت تقلك بالسيارة إلى عيادة الطبيب لإجراء صور شعاعية لك قالت لك إن حدساً ما تملّكها وقت العصر: راودها شعور غريب بأنه أصابك خطب ما، وعندما سألتها متى أحست بذلك الشعور تبيّن من خلال إجابتها أنها بدأت تقلق حيالك في اللحظة ذاتها التي وثبت على الأرض وكسرت كتفك.

لا ينفعك التحسّر على الزمن السعيد الغابر. كلما وجدت نفسك تمرّ في حالة نفسية ملؤها التوق والحنين إلى ماض يتعذّر استرداده وتأسى على أشياء فقدتها خلت أنه بسببها كان ماضيك أفضل من حاضرك، طلبت من نفسك التوقف عن التيه في الماضي والتفكير بتأنّ والنظر إلى «هاتيك اللحظة» بإمعان وبالطريقة ذاتها التي تنظر بها إلى «هذه اللحظة»؛ وبعد برهة وجيزة تخلص إلى وجود فرق ضئيل جداً بينهما وإلى أنّ «الآن» و«حينها» هما ذاتهما في الأساس. بالطبع لديك شكاوى متنوعة وعديدة إزاء العيشة الأميركية المعاصرة بشرورها وحماقاتها: لا يمرّ يوم إلا ويهدر صوتك متظلماً من نمو نفوذ اليمين وانتقاص حقوق المواطنين الاقتصادية وإهمال القضايا البيئية وانهيار البنية الأساسية والحروب التي إن دلّت على شيء فعلى حمق الإنسان وتفاهته، وهمجية أساليب التعذيب المشرعنة والتخلّف بدرجة لم يعتدها الإنسان قبلاً؛ وانحلال مدن معدمة مثل «بوفالو» و«ديترويت»، وتفتّت الحركة العمالية والتمنّن الذي نثقل كاهل أطفالنا به لقاء ارتيادهم كلياتنا الباهظة التكاليف والصدع العميق المزداد دوماً الذي يشطر الأثرياء عن الفقراء، ناهيك بالأفلام التجارية غير الصحية التي نصنعها، والطعام غير الصحي الذي نتناوله، والأفكار التافهة وغير الصحية التي نفكر فيها. كلّ هذا كافٍ لحمل الإنسان على الانزواء واتباع عيشة النسّاك في غابة «ماين»، والاكتفاء بتناول ثمار التوت البري وجذور الأشجار. ومع كل ذلك عد بالزمن إلى السنة التي ولدت فيها وحاول أن تتذكر كيف كان شكل أميركا في عصرها الذهبي وفي «عز» أيام رخائها المادي بعد الحرب العالمية الثانية: كان التمييز العنصري ضد الزنوج في أوجه في جميع أنحاء الولايات الجنوبية وكذلك القيود المفروضة على الحصص النسبية، المعادية للساميّة،

وعمليات الإجهاض السرية في الأزقّة الفقيرة، والأمر التنفيذي الذي أصدره «ترومان»[1] القاضي بتشريع قسم ولاء مفروض على جميع العاملين في الحكومة، ومحاكمات عشرة عاملين في صناعة السينما في هوليوود (١٩٤٨ - ١٩٥٠) والتخويف من الشيوعيين، والحرب الباردة والقنبلة الذرّية. ما من لحظة تاريخية إلا وتكون مثقلة بمشاكلها وبمظالمها الخاصة بها، وما من حقبة زمنية إلا وتحبك أساطيرها وولاءاتها [الأسرية أو العرقية أو الدينية..] المحصورة بها. كنت في السادسة عشرة، حين اغتيل «كينيدي»، وطالباً في الصف الحادي عشر في المدرسة الثانوية، ويقال الآن لوصف ما جرى حينذاك بأن الخبر وقع كالصاعقة على الشعب الأميركي بأسره وأغرقه في حالة من الحزن الشديد الذي يعقد اللسان جراء الصدمة التي مني بها في الثاني والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر. ولكن ثمة قصة مختلفة لترويها: صودف أنه أقيمت الجنازة يوم سافرت إلى «واشنطن» بمعية اثنين من أصدقائك. رغبت في حضورها لأنك كنت أحد المعجبين بـ «كينيدي» الذي كان يمثل نقلة نوعية فجائية ومذهلة بعد حقبة طويلة من حكم «أيزنهاور» دامت ثمانية أعوام؛ لكنك أردت أيضا الحضور هناك لما كان لديك من فضول لاختبار الشعور بالمشاركة في مناسبة تاريخية كهذه. كان يوم السبت الذي أعقب الجمعة، أي اليوم الذي أطلق فيه «روبي» الرصاص على «أوزوالد» وقتله. خلت أن حشود المتفرجين المصطفين على الطرق الرئيسة وقت مرور موكب الجنازة ستقف إجلالاً، وسيهيمن عليها صمت مهيب، وفي حالة من الحزن الشديد الذي يعقد اللسان، ولكن ما لاقيته عصر ذلك اليوم

(١) أمر له قوة القانون يصدره رئيس الولايات المتّحدة الأميركية إلى الجيش أو الأسطول أو أي فرع تنفيذي من فروع الحكومة. (المترجمة)

هو حشد من المغفّلين والفضوليين المشاكسين، وأناس جالسين على الأشجار حاملين كاميراتهم، وأناس يدفعون آخرين من طريقهم بالقوة والتدفيش لكي تتسنى لهم «الفرجة» على نحو أفضل. والأنكى من ذلك كله أن ما شاهدته ذكّرك بالأجواء السائدة لدى رفع المشانق العامة والإثارة التي ترافق مشهد الموت غير الطبيعي المطبوع بالعنف. كنت هناك وشاهدت تلك الماجريات بأم عينيك، بيد أنك منذ ذلك الحين وإلى يومك هذا لم تسمع ولا مرة أحدهم يصف ما جرى على حقيقته من دون زيف أو تلفيق.

برغم ذلك كله ثمة أمور جرت في الأيام الخوالي تفتقدها وتشتاق إليها حتى وإن لم يكن لديك رغبة في عودة ذلك الزمن الجميل: رنة الهواتف القديمة، وطقطقة الآلات الكاتبة، والحليب في الزجاجات، والبيسبول من دون رماة معيّنين، والأسطوانات الفونوغرافية الفينيلية، والأحذية الفوقية المطاطية الملبوسة فوق الأحذية العادية والجوارب الطويلة ورُبُط الجوارب، والأفلام السينمائية بالأسود والأبيض، وأبطال الملاكمة من فئة الوزن الثقيل، وفريقا «بروكلين دودجيرز» و«عمالقة نيويورك» (NewYork Giants)، والكتب المغلّفة لقاء خمسة وثلاثين قرشاً، والأحزاب اليسارية، ومطاعم الألبان والأجبان اليهودية، والأدوار المزدوجة، وكرة السلة قبل رمية الثلاث النقاط، ودور السينما الفخمة، والكاميرات غير الرقمية، والحمّاصات التي كانت تعمّر ثلاثين سنة، واحتقار السلطة، و«ناش رامبلرز»، وسيارات «الستايشن»[1] المكسوة بألواح خشبية. لكن أكثر ما تفتقده هو العالم كما كان قبل حظر التدخين في الأماكن العامة. منذ تدخينك سيكارتك الأولى في سن السادسة

(١) سيارة ذات بدن خشبي مقفل تشتمل على صفوف من المقاعد القابلة للطي أو للإزالة خلف السائق وتفتقر إلى صندوق مستقل للأمتعة. (المترجمة)

عشرة (في «واشنطن» مع أصدقائك في مأتم «كينيدي») حتى نهاية الألفية السابقة، كان لك مطلق الحرية في أن تدخن في أي مكان شئت مع بعض استثناءات تكاد لا تذكر: بداية في المطاعم والبارات، ولكن أيضاً في صفوف الجامعة وفي شرفات دور السينما ومتاجر الكتب ومحال الأسطوانات الفونوغرافية وغرف الانتظار في العيادات وفي سيارات الأجرة وملاعب الكرة والساحات العامة المغلقة والمصاعد وغرف الفنادق وفي القطارات والحافلات التي تقطع مسافات طويلة والمطارات والطائرات والعربات المكوكية في المطارات التي كانت تأخذك إلى الطائرات. ربما يكون العالم أحسن حالاً في الحاضر بفضل قوانينه النضالية المكافحة للتدخين، ولكن ثمة شيء ما قد فقد أيضاً، أيّاً يكن ذلك الشيء المفقود (شعور غامض بالطمأنينة وراحة البال؟ تقبل هشاشة البشر وضعفهم؟ المرح والأنس؟ غياب الإيمان المتمثّل بالكد والتقشف والانضباط؟) فأنت تشتاق إليه.

بعض من ذكرياتك تعتبرها في منتهى الغرابة ومستبعدة الحدوث تماماً وخارج نطاق المعقول تماماً إلى حد أنك تلاقي صعوبة في التوفيق بين أحداث تسترجعها وبين كونك الشخص الذي اختبرها، وهذا واحد منها: في سن السابعة عشرة، كنت على متن طائرة عائدة من «ميلانو» إلى «نيويورك» في أثناء قيامك برحلتك الأولى إلى الخارج (لزيارة خالتك في إيطاليا، التي ظلت مقيمة فيها إحدى عشرة سنة). جلست إلى جانب فتاة جذّابة وحادة الذكاء في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها، وبعد أن تبادلتما الحديث مدة ساعة، قضيتما بقية الرحلة تتعانقان، واستسلمتما تماماً لرغبتكما الجامحة واستغرقتما في قبلات مثيرة على مشهد من الركاب الآخرين من دون أن يظهر عليكما أدنى علامات الخجل أو الارتباك. لا يعقل أبداً أن يكون قد

جرى كل هذا، لكنه حدث؛ والأغرب منه ما جرى في آخر صباح لك في رحلتك الأوروبية الترفيهية القصيرة في السنة التالية التي بدأت بعبور المحيط الأطلسي على متن سفينة الطلبة؛ ركبت طائرة في مطار «شانون» في إيرلندا ومن دون ترتيبات مسبقة وجدت نفسك جالساً إلى جانب فتاة أخرى جذّابة، وبعد ساعة من الخوض في حديث جدّي عن الكتب والكليات الجامعية ومغامراتك الصيفية استغرقتما أيضاً في قبلات حارة متعانقين بشراسة وبقوة بحيث تغطيتما ببطّانية، ومن تحتها أخذت يداك تمران على جسدها كله وصولاً إلى داخل تنّورتها، ولم يلجم رغبتكما الجامحة ويوقفها عن خوض غمار المحظور والقيام بالعمل الجنسي كاملاً إلا قوة إرادتكما المطلقة. أيعقل أن يكون قد حدث أمر كهذا؟ هل الطاقات الجنسية لدى الشباب قوية إلى درجة أن يكون مجرد وجود جسد آخر بمنزلة حافز للعمل الجنسي؟ لم تكن لتفعل الشيء ذاته الآن مطلقاً، حتى إنك لم تكن لتجرؤ على التفكير في القيام بشيء كهذا، ولكن لا عجب في القول إنك لم تعد يافعاً.

لا، لم تكن قط ماجناً يقيم علاقات جنسية متعددة حتى لو تمنَّيت أحياناً السماح لنفسك بأن تكون أكثر جموحاً وتهوّراً؛ لكن وبرغم سلوكك المعتدل التقطت جرثومتين مخيفتين في المنطقة الحساسة. أصبت أولاً بـ «التعقيبة»[1]، مرة واحدة عندما كنت في العشرين، ومرة واحدة كانت أكثر من كافية: مادة لزجة خضراء كريهة الرائحة رشحت من طرف عضوك، وشعرت وكأنما انغرز مسمار في إحليلك، بحيث غدا البول البسيط وجعاً مقيماً. لم تعرف قط كيف التقطت هذا المرض، فمجموع عدد المرشحات المحتملات لهذا الدور كان محدوداً، ولم تبد لك أي واحدة منهن ناقلة محتملة لتلك البلية القابضة للصدر. بعد

(١) التهاب حاد معدٍ في أغشية الجهاز التناسلي المخاطية. (المترجمة)

خمس سنوات وعندما وجدت أنك مصاب بـ «الطبّوعة»[1]، لم تكن تعلم بأمر هذا المرض أيضاً ولم تشعر بألم هذه المرة بل عانيت حكة جلدية متواصلة في منطقة العانة، وما أن نظرت أخيراً إلى عانتك لتعرف ما الخطب، حتى دهشت لدى اكتشافك أنها تعجّ بجحافل من القمل. كانت قملات قزمة صغيرة جداً تماثل السراطين البحرية في الشكل، لكنها من حيث الحجم صغيرة جداً، أي ليست أكبر من دعسوقة. لم تكن تعلم شيئاً عن الأمراض التناسلية، ولهذا لم تسمع قبلاً بوجود هذا البلاء إلى أن أصبت به؛ حتى لم تملك أدنى فكرة عن وجود شيء اسمه «الطبّوعة»[2] تعافيت من مرض «التعقيبة» بفضل عقار «البنسلين»، ولكن كان يكفيك استخدام أحد الدهون للتخلّص من الحشرات الطفيلية المخيّمة في شعر العانة. لم يكن مرضاً شديداً؛ ولكن بعد أن نظرت إلى المسألة من بعد، بدا أمراً مضحكاً وإن كان لغزاً آخر محيّراً، مشكلة محيرة أخرى لم تستطع حلها إطلاقاً لأنه لم يكن لديك فكرة عمن أو عما تسبب بظهور تلك الحشرات المرهقة التي غزت جسدك ونهشت جلدك وعما إذا كانت نتيجة اتصال جنسي أو احتكاك غير متعمّد بخرقة غسيل أو منشفة ملوثة أو نتيجة جثومك فوق خلية من البويضات التي لا ترى بالعين المجردة على مقعد مرحاض ما في أحد المقاهي أو المطاعم الباريسية. صحيح أنها صغيرة جداً لا ترى بالعين المجرّدة لكنها لا تقلّ خبثاً ومكراً وغدراً عن جيوش الميكروبات غير المرئية التي تتسبب بانتشار الأوبئة والأمراض المعدية التي تفتك بدول وحضارات برمّتها. لحسن الحظ كانت هذه الحشرات الصغيرة عليك وليس في داخلك، وعندما فقست أخيراً وأصبحت كائنات حية تامة

---

(١) تقمّل العانة. (المترجمة)

(٢) واحدة الطبوع وهو قمل يلم بشعر العانة. (المترجمة)

النضجِ وكبيرة على نحو كافٍ بتَّ قادراً على رؤيتها والقضاء عليها تماماً.

اعتبرت الخنافس جالبة للحظ. فإذا حطّت إحداها على ذراعك كان عليك أن تتمنى بينك وبين نفسك تحقيق أمر ما قبل أن تطير. كما كانت زهرات البرسيم ذات الأوراق الأربع جالبة للحظ السعيد، وكم قضيت ساعات لا تعد وأنت طفل صغير تحبو على يديك وركبتيك على الحشيش وتبحث عن تلك الغنائم الصغيرة التي كانت موجودة فعلاً، لكن العثور عليها كان أمراً نادراً أو مدعاة للاحتفال والابتهاج. ظهور أبي الحن للمرة الأولى كان يؤذن بقدوم الربيع، ذلك الطير البنّي ذو الصدر الأحمر الذي اعتاد الظهور ذات صباح فجأة وعلى نحو لم تتوقعه في فناء منزلكم الخلفي: يقفز على العشب ويبحث عن الديدان؛ وبعد ذلك، عندما لاحظت ظهور طيور أخرى من هذا الصنف رحت تعدّها، طير أبي الحن ثان وثالث ورابع، ومضيفاً المزيد منها إلى سجل الحساب كل يوم حتى تتوقّف عن عدّها، ويكون الطقس دافئاً. في أول صيف بعد انتقالكم إلى البيت في «جادة إيرفنغ» (١٩٥٢) أنشأت والدتك حديقة في الفناء الخلفي، ووسط العناقيد الحولية والمعمّرة[١] في التربة «الطفالية»[٢] داخل حوض الزهور نما دوّار شمس واحد، ظل يكبر بمرور الأسابيع: بداية بلغ ارتفاعه مستوى ساقيك ثم علا ليبلغ مستوى خصرك ثم كتفيك ولاحقاً بعد بلوغه مستوى أعلى من رأسك، تجاوزك في الطول ووصل إلى ارتفاع ست أقدام تقريباً. كان النمو المطرد لدوّار الشمس الحدث الرئيس في الصيف: غوص عميق

(١) ذات دورة حياتية تدوم أكثر من سنتين ومن الأمثلة على النباتات المعمرة الفلفل والثوم. (المترجمة)

(٢) تربة خصبة مؤلفة من طين ورمل ومادة عضوية. (المترجمة)

في كيفية عمل الزمن الغامضة. وفي كل صباح كنت تجري إلى الفناء الخلفي لتقيس طولك مقارنة بارتفاعه وترى كم أنه قاربك في الطول بسرعة. في ذلك الصيف ذاته عقدت صداقتك الأولى الوطيدة مع أول رفاقك الحقيقيين في عهد الطفولة: فتى يدعى «بيلي». كانت المسافة قصيرة جداً بين بيتيكما، ولأنك كنت الشخص الوحيد الذي استطاع أن يفهم كلامه (خرجت الكلمات من فمه غير مفهومة وبدت وكأنها تغور في فمه «المريّل» قبل أن تخرج على نحو مفهوم وواضح وسلس). عوّل عليك بصفتك ناقل كلماته إلى الآخرين وأنت عوّلت عليه بصفته مغامراً مقداماً مثل «هاك» في رواية «مارك تواين» بالنسبة إلى «توم» (البطل الآخر للقصة) الأكثر حذراً. وفي الربيع التالي قضيتما عصر كل يوم تمشّطان الأدغال معاً وتبحثان عن طيور نافقة؛ وكما يتضح لك الآن، فقد كان أغلبها فراخاً لا بد أنها وقعت من أعشاشها ولم تستطع العودة إليها. دفنتماها في بقعة من التراب بمحاذاة بيتك: مراسم دفن مهيبة جداً ترافقت مع صلوات مصطنعة ودقائق طويلة من الصمت. بحلول ذلك الوقت توصلتما إلى معرفة حقيقة الموت وعرفتما أنه أمر الجدّ فيه مطلق والهزل فيه ممنوع.

أول حادثة وفاة إنسان تسترجعها ذاكرتك بشيء من الوضوح وقعت في العام ١٩٥٧، حين سقطت جدتك البالغة من العمر ثمانين عاماً على الأرض بسبب نوبة قلبية وتوفيت في أحد المستشفيات بعد وقت لاحق في ذلك اليوم. لا تذكر شيئاً عن حضورك الجنازة، ما يوحي أنك لم تحضرها، والسبب في الأغلب هو عمرك اليافع، إذ كنت في العاشرة، وقد ارتأى والداك أنك صغير جداً. ما تذكره هو الظلمة التي لفّت البيت بعد أيام طويلة على وفاة الجدة وقدوم الناس وانضمامهم إلى مجلس المعزّين مع والدك في غرفة المعيشة: رجال مجهولون يتلون

صلوات عبريّة غير مفهومة بأصوات متمتمة؛ تذكر كم كان أمراً غريباً وجود ذلك الاضطراب الذي هيمن عليه الهدوء والسكوت، وحزن والدك الشديد. أما أنت فكنت غير متأثر بهذه الوفاة كلياً، إذ لم تشعر برابط يجمعك بجدتك ولم تشعر بود أو حب من ناحيتها تجاهك، ولم تشعر بأن كونك حفيدها لفتها أو أثار فضولها، ولم يبدر منها أي ذرّة من المشاعر؛ وفي المرّات النادرة التي أحاطتك بذراعيها وأخذتك في حضنها كما تفعل الجدّات، كنت تشعر بالخوف وتترقب انتهاء «العبطة» بفارغ الصبر. كانت جريمة القتل التي وقعت عام ١٩١٩ لا تزال سراً لم يخرج عن دائرة العائلة، ولم تعلم به إلا بعد أن خطوت عتبة العشرين، لكن الإحساس بأنّ جدتك كانت مجنونة لم يبارحك البتة وبأن هذه المرأة المهاجرة الصغيرة البنية بإنكليزيتها «المكسّرة» وبنوبات الصراخ العنيفة التي كانت تنتابها شخص وجب إبقاؤه على مسافة ذراع ممدودة. حتى وعندما تقاطر المعزّون إلى البيت وخرجوا منه بالجملة، لم تتوقف عن التصرّف كولد في العاشرة من عمره، وحين وضع الحاخام يده على كتفك وقال لك إنه ما من مانع أن تذهب وتشارك في مباراة البيسبول لفئة «الصغار» التي كانت ستقام في مساء ذلك اليوم، صعدت إلى غرفتك وارتديت بذلة البيسبول وخرجت من البيت راكضاً.

بعد أحد عشر عاماً توفّيت والدة أمك وكان الأمر مختلفاً هذه المرة. أصبحت راشداً حينذاك، وقد علّمتك صاعقة البرق التي قتلت صديقك عندما كنت في الرابعة عشرة أنّ العالم متقلب وغير ثابت وأنه من الممكن أن يسرق منا المستقبل في أي لحظة وأن السماء ملأى بصواعق برقية باستطاعتها سحق الصغار والكبار على السواء والقضاء عليهم، وبصفة مستمرة وعلى الدوام يصعقنا البرق على حين غفلة منا.

هذه هي الجدة التي كان يهمّك أمرها: المرأة الوقور والنازعة قليلاً إلى العصبية، التي أحببتها؛ المرأة التي أقامت معكم في غالبية الأوقات وكانت حاضرة دوماً في حياتك. والآن وأنت تتذكر موتها وكيف ماتت، ميتة بطيئة ومخيفة ومؤلمة مشاهدتها، تدرك أنّ ما من فرد آخر من أفراد عائلتك المتوفّين إلا مات فجأة؛ تلك الميتات كانت سلسلة من صواعق برقية مشابهة للتي قضت على صديقك: أم والدك (نوبة قلبية، ماتت بعدها بساعات قليلة)، ووالد والدك (أُطلق عليه الرصاص وقتل قبل أن تعرفه)، ووالدك (نوبة قلبية مات بعدها بثوانٍ معدودة)، ووالدتك (نوبة قلبية ماتت بعدها بدقائق معدودة) وحتى والد أمك الذي لم يكن موته فورياً وعاش حتى سن الخامسة والثمانين متنعماً بصحة جيدة، تراجعت صحته مدة أسبوعين أو ثلاثة ومات بعدها من جرّاء التهاب الرئة، أو بكلمة أخرى، بسبب سنّه المتقدمة. تشعر أنها وفاة يحسد عليها: حياة تصمد في وجه العوائق والمصاعب حتى بلوغ عقدك التاسع ومن ثم وبدلاً من أن تمس بالكهرباء بسبب صاعقة برقية، تمنح فرصة لتستوعب الحقيقة القائلة`إنك راحل، فرصة لتمعن في التفكير برهة ومن بعدها تنام وتعوم في أرض العدم. جدتك لأمك لم تطف في أي مكان. إذ قضت حولين كاملين على فراش من مسامير وفي حالة من الشقاء والألم. وعندما وافاها الأجل في عمر الثالثة والسبعين، كانت معالمها قد تغيّرت تماماً والسبب إصابتها بمرض يدعى التصلّب الجانبي الضموري، المعروف عادة بداء «لو غيهرغ». شاهدت أجساداً قضت عليها القنبلية الذاتية للسرطان الخبيث، وشاهدت أيضاً أجساداً واقعة ضحية الانحباس[1] التدريجي بسبب انتفاخ الرئتين، ولكن التصلّب الجانبي الضموري (ALS) ليس أخف وطأة على ضحاياه من حيث

---

(١) تقلّص مرضي مفرط يصيب الأوعية الدموية فيعوق جريان الدم فيها. (المترجمة)

الفتك بهم وإيلامهم. فما أن يتم تشخيص هذا المرض حتى لا ترى سبيلاً للأمل أو للخلاص منه، لا شيء أمامك سوى سير مسافة طويلة جدا باتجاه التفسّخ والموت: عظامك تذوب ويصير الهيكل العظمي تحت جلدك عجينة لدنة، ويتعطّل كل عضو من أعضائك واحداً تلو الآخر. وما جعل مرض جدتك صعب الاحتمال على الخصوص هو ظهور أول الأعراض في رقبتها وانقضاض المرض على الأعضاء المسؤولة عن النطق قبل أي عضو آخر: الحنجرة واللسان والمريء. ذات يوم وعلى نحو مباغت صعب عليها لفظ الكلمات بوضوح وخرجت مقاطعها ممضوغة وغير متصلة بعض الشيء، وبعد شهر أو شهرين صارت غير مترابطة على نحو مقلق ومخيف جداً، وبعد عدة أشهر حالت حشرجات البلغم في حلقها دون خروج جملها، وظهرت البقبقات المكتومة ومذلات الضعف وتلف الأعضاء. وعندما لم يتوصل أطباء «نيويورك» إلى معرفة مصدر علتها، اصطحبتها والدتك إلى «مركز مايو الطبي» لإخضاعها لفحص طبي شامل لتشخيص مرضها. الأطباء في «مينيسوتا» هم من أعلن الحكم عليها بالموت، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت كلماتها غير مفهومة واضطرت بعدها إلى التواصل عبر الكتابة، فكانت تحمل قلم رصاص صغيراً وإضمامة ورق حيثما ذهبت؛ وبالرغم من أنّ أعضاءها الأخرى بدت سليمة بصفة موقتة وأنها كانت لا تزال قادرة على المشي والمشاركة في ماجريات الحياة من حولها، استمر جهازها العضلي في الضمور بعد مرور عدة أشهر وأصبحت عملية البلع لديها معقدة والأكل والشرب محنة دائمة، وفي النهاية أخذت سائر الأعضاء في جسدها تخونها أيضاً. بقيت تستعمل ذراعيها ويديها في أول أسبوع أو أسبوعين قضتهما في المستشفى؛ كما ظلت تستعمل قلم الرصاص وإضمامة الورق للتواصل مع الغير

على الرغم من تردّي كتابتها إلى أبعد حد. ثم خضعت لمراقبة ممرضة خاصة تدعى الآنسة «موران» (قصيرة وكفوءة مع ابتسامة دائمة على شفتيها وترحيب دائم) وقد أبقت إضمامة الورق وقلم الرصاص بعيداً عن متناول جدتك؛ وكلما رفعت جدتك صوتها احتجاجاً على حرمانها من وسيلة التواصل تلك، أمعنت الآنسة «موران» في إبعاد إضمامة الورق عنها. ذات مرة اكتشفت أنت ووالدتك مصادفة ما كان مدبّرا في الخفاء وكان مصير «موران» الطرد، لكن المعركة التي خاضتها جدتك ضد الممرّضة السادية استنفدت ما تبقى لديها من قوة: المرأة اللطيفة الحيية التي كانت تقرأ لك قصص «موباسان» عندما كنت مريضاً، والتي اصطحبتك لمشاهدة العروض في مسرح المنوعات(١) في «راديو سيتي»)، والتي دفعت ثمن أطباق الآيس كريم مع الفواكه والمكسّرات ووجبات الغداء في مطعم «شرافت» من أجل إمتاعك، كانت تحتضر في «مستشفى الأطباء» (Doctors Hospital) الواقعة في «الناحية الشرقية العليا» (Upper East Side) لجزيرة «مانهاتن». وبعد وقت قصير على عدم تمكّنها من الإمساك بقلم الرصاص فقدت صوابها. البقية الباقية من القوة لديها أدرجت في خانة الغضب المتفجر، أو بنوبات غضب غريبة الأطوار جعلتها إنساناً آخر غير الذي عهدته من قبل، أتت على نحو صيحات دائمة: الصيحات المخنوقة والمكبوحة التي لا تصدر إلا عن شخص عاجز مجمّد في مكانه يصارع كي لا يغرق في بركة بصاقه المتصاعد منه. ولدت في «مينسك»، عام ١٨٩٥ وتوفيت في «نيويورك» عام ١٩٦٨. «نهاية الحياة مريرة» (The end of life is bitter): «جوزيف جوبرت ١٨١٤».

هكذا درجت الأمور، ولم تتريث لحظة للنقاش فيها. كانت هناك

---

(١) مسرح مخصص للرقص والغناء والألعاب البهلوانية. (المترجمة)

مدارس حكومية ومدارس كاثوليكية في بلدتك. ولأنك لم تكن كاثوليكياً ارتدت المدارس الحكومية التي اعتبرت مدارس جيدة، أقله حسب المعايير المعتمدة حينذاك لقيس مستوياتها. طبقاً لما قالت لك والدتك لاحقاً هذا كان سبب انتقال العائلة للسكن في البيت الكائن في جادة «إيرفنغ» قبل أشهر معدودة من الموعد المحدد لالتحاقك بصف الروضة. ليس ثمة ما يقارن بتجربتك، ولكنك قضيت ثلاثة عشر عاماً في ظلّ النظام التعليمي المعتمد في ذلك الحين، قسّمت إلى ثلاث مراحل: السنوات السبع الأولى في مدرسة «مارشال» (مرحلة الروضة حتى الصف السادس) والسنوات الثلاث التالية في مدرسة «ساوث أورانج» المتوسطة (الصفان السابع والتاسع) والسنوات الثلاث الأخيرة في مدرسة «كولومبيا» الثانوية في «مابيل وود» (من الصف العاشر حتى الثاني عشر)، وفي خلالها حظيت ببعض الأساتذة الجيدين وبعض الأساتذة العاديين وعدد قليل من الأساتذة المميزين والملهمين من الأساتذة الرديئين وغير الأكفاء. كما اختلف زملاؤك من حيث خصائص الشخصية، فكان منهم الأذكياء اللامعون والعاديون وأشباه الأغبياء. هذه هي الحال في جميع المدارس الحكومية، فالفرصة سانحة لجميع سكان منطقتك للالتحاق بالمدرسة مجاناً. ولأنك ترعرعت في زمن لم يكن قد اعتمد بعد نظام التعليم الموجه لذوي الاحتياجات الخاصة، وسابق لعهد إنشاء مدارس مستقلة لتلبية حاجات الأطفال الذين يعانون ما يدعى مشكلات خاصة، كان هناك عدد من المعاقين جسدياً في صفك. لا تذكر أحداً مقعداً، جالساً على كرسي ذي عجلات، لكن ما زال بإمكانك رؤية الصبي الأحدب بجسده المقوس والفتاة التي فقدت إحدى ذراعيها (قرمة بدون أصابع ناتئة من كتفها)، والفتى الذي كان لعابه يسيل على الجهة الأمامية لقميصه، والفتاة التي

لم يتجاوز طول قامتها طول القزم. تسترجع رؤيتك لكل ذلك الآن وتشعر بأن هؤلاء الناس كانوا جزءاً أساسياً من تربيتك وبأنك لولا وجودهم في حياتك لما فقهت معنى كينونتك بصفتك إنساناً ولكنت افتقرت إلى كل ما لديك من عمق المشاعر والعطف والرأفة وإلى التبصّر في فلسفة الألم والشدّة، لأنّ أولئك الأولاد كانوا هم النبلاء والجبارين؛ كانوا هم الذين وجب عليهم بذل الجهد عشرة أضعاف أكثر من أي شخص آخر لإيجاد مكان لهم في هذه الحياة. لو أنك عشت فقط وسط المتنعمين بأجساد سليمة، أي وسط الأولاد من أمثالك الذين اعتبروا أن أجسادهم التامة التكوين من المسلّمات، هل كنت ستعرف معنى النبل والبطولة؟

أحد أصدقائك في تلك السنوات الأولى من حياتك كان فتى ممتلئ الجسم يفتقد القوة البدنية، يضع نظارات، وله وجه عادي غير جذّاب، ذقنه صغير لكنه كان محبوباً جداً من قبل الفتيان الآخرين بسبب ذكائه الحاد ومرحه ومهارته الفائقة في مادة الرياضيات، وما تمتع به من سماحة نفس لا حدود لها وقدرة قصوى على العطاء. كان لديه شقيق أصغر منه طريح الفراش، فتى مصاب بمرض أوقف نموه وخلّف فيه عظاماً هشة، عظاماً تنكسر بمجرد ملامستها سطحاً صلباً، عظاما تنكسر من دون سبب على الإطلاق. ذاكرتك قادرة على استرجاع زياراتك لبيت صديقك بعد انتهاء دوام المدرسة عدة مرات والذهاب لرؤية شقيقه، الذي كان يصغرك بسنة أو سنتين فقط، ممدّداً على أحد الأسرّة المستخدمة في المستشفيات والمجهزة بالبكرات والأسلاك وقد وضعت رجلاه في جبيرات جصية. ما زلت تذكر رأسه الكبير وبشرته الباهتة على نحو يفوق التصور. لم يكن ممكناً فتح فمك والنطق بأي كلمة في تلك الغرفة: شعرت بالتوتر وربما بشيء من الخوف والذعر، لكن الشقيق كان فتى لطيفاً وودوداً ومؤنساً ونبيهاً؛ ولطالما اكتشفت كم

هو أمر غير معقول، أمر لا يحتمل أبداً، أمر مهين وشائن أن يفرض على هذا الصبي أن يبقى ممدداً على ذلك السرير. وكلما رأيته تساءلت لم هو ولست أنت الذي قدّر له أن يحتجز داخل ذلك الجسد؟ كان صديقك وفياً له ومضحياً من أجله، فلم تعرف أشقاء متقاربين كهذين الشقيقين. كما تقاسما عالماً خاصاً اقتصر عليهما فقط، عالماً سرياً هيمنت عليه فكرة واردة دوماً في ذهنهما: لعب مباراة بيسبول خيالية أو الانخراط في لعبة الرقاع واستخدام النرد أو لعب الشدّة. كانت لهما قوانينهما المعقّدة الخاصة بهما، والحسابات المسهبة المطوّلة. دققا بشدة في الاحتفاظ بسجلات جميع الألعاب التي انخرطا فيها والتي تطوّرت لتشمل ألعاباً موسمية يُجرى كل منها كل شهر أو شهرين: موسم بعد آخر من الألعاب الخيالية فيما كرّت سبحة السنين. تدرك الآن كم كان من الصائب تماماً أن يكون صديقك هذا من اتصل بك ذات مساء يوم شتوي في العام ١٩٥٧-١٩٥٨، أي ليس بعد إعلان فريق «الدودجرز» (Dodgers) انتقاله من «بروكلين» إلى «لوس أنجلوس» بوقت طويل؛ اتصل ليقول لك إن «روي كامبانيلا» متلقف الكرة، أحد الأعضاء والنجوم في الفريق، تعرّض لحادث سيارة، حادث مروّع إلى حد أنه وفي حال نجا منه كان سيبقى مشلولاً بقية حياته. كان صديقك يجهش بالبكاء من الطرف الآخر للهاتف.

الثالث والعشرون من شباط/فبراير. الذكرى الثلاثون لالتقاء زوجتك والذكرى الثلاثون لليلتكما الأولى. كلاكما تغادران البيت في وقت متأخر من بعد الظهيرة وتعبران جسر «بروكلين» وتقيّدان اسميكما في أحد فنادق «مانهاتن» في الناحية السفلى. إفراط في التدليل بعض الشيء؟ ربما، ولكنك لا ترغب في أن تمرّ هذه الساعات الأربع والعشرون مرور الكرام من دون القيام بشيء ما، ولأنه لم تخطر ببالك

إطلاقاً فكرة إقامة حفلة (لِمَ قد يرغب زوجان في الاحتفال بزواجهما المديد في حضرة الآخرين؟)، تتناول أنت وزوجتك العشاء وحدكما في مطعم الفندق. بعد ذلك، تستقلان المصعد وتبلغان الطبقة التاسعة وتدخلان غرفتكما حيث تأتيان على زجاجة شامبانيا كلها، ساهيين عن تشغيل الراديو، وعن تشغيل التلفزيون للتحقق من أسماء الأفلام السينمائية المتيسر لكما مشاهدتها وعددها أربعة آلاف. وفيما تتجرّعان الشمبانيا تتحدثان، لا تفعلان شيئاً عدة ساعات سوى التحدث، ليس عن الماضي وعن الثلاثين سنة التي أصبحت وراءكما، ولكن عن الحاضر وعن ابنتكما ووالدة زوجتك، وعن العمل الذي بين أيديكما في الوقت الحاضر وعن عدد من الأمور سواء كانت في محلها أو تافهة. هذه الليلة لا تختلف عن أمثالها التي قضيتماها تحت سقف الحياة الزوجية بما أنكما لطالما تحدثتما، وهذا ما يميزكما إلى حد ما. وطوال هذه السنين اعتدتما العيش في ظل هذه المحادثة الطويلة غير المنقطعة التي ابتدأت يوم لقائكما الأول، في الخارج في ليلة شتائية باردة أخرى وهبّة مطرية مثلجة أخرى تطرق النوافذ بعنف، لكنك في الفراش مع زوجتك الآن والسرير في غرفة الفندق دافئ والشراشف ناعمة الملمس ومريحة والوسائد ضخمة جداً، وهذه صفة إيجابية.

وقعت في الغرام الصبياني مرات عديدة وانخرطت في لعبة الغزل والمداعبات واختبرت الحب العابر كثيراً، ولكن كانت لك علاقتا حب جديتان في بداية حياتك: كارثتان على صعيد الحب وقعتا عندما كنت في منتصف عقدك الثاني وفي أواخره. كلتاهما فشلتا فشلاً ذريعاً وأعقبهما زواجك الأول الذي كان مصيره الفشل أيضاً. منذ العام ١٩٦٢، حين وقعت في غرام الفتاة الإنكليزية الجميلة في حصة اللغة الإنكليزية في الصف العاشر، تبيّن أنك كنت تمتلك موهبة استثنائية في

ملاحقة الأشخاص غير المناسبين وفي اشتهاء ما لم تستطع امتلاكه وفي منح حبك فتيات لم يستطعن مبادلتك هذا الحب أو لم يرغبن في ذلك. اهتمام آني طرأ على عقلك ولحظات قصيرة جداً عابرة من الاهتمام طرأت على جسدك، لكن ولا ذرّة واحدة من الاهتمام طرأت على قلبك. معشوقتاك في أيام المراهقة كانتا فتاتين شبه مخبولتين: كلتاهما فاتنتان، فائقتا الجمال، ومدمرتان للذات ومثيرتان جداً بالنسبة إليك، إلا أنك لم تفهم «باطنهما» قط. كانتا من بنات أفكارك. استخدمتهما بصفتيهما مثالين وهميين لرغباتك الذاتية متجاهلاً مشكلاتهما وسيرتيهما الشخصية، وأخفقت في فهم هويتيهما الفعلية خارج إطار ونفوذ ملكتك الخيالية. وفوق ذلك فكلما أمعنتا في المراوغة ازددت شغفا بهما وألهبتاك بنار الشوق. حبيبتك في المدرسة الثانوية مضت في إضراب سرّي عن الطعام إلى أن انتهى بها الأمر في المستشفى. لم يكن المصطلح العلمي «القهم» (anorexia)[1] قد أدرج في قائمة مفرداتك حينذاك، ولهذا اعتقدت أنها أصيبت بالسرطان أو باللوكيميا (الذي فتك بوالدتها قبل ذلك ببضع سنين) لأنه ما من تعليل آخر للهزال الشديد الذي أصاب جسدها الذي كان فاتناً في السابق، ولنحافته الزائدة المروّعة. تذكر أنك زرتها في المستشفى ورفضت زيارتك: عصر كلّ يوم كنت تحاول زيارتها وهي ترفض رؤيتك. جننت حباً بها وخوفاً عليها، ولكن في النهاية تبين أنها لم تخلق لتحب الفتيان، وعلى الرغم من أنها وصلت ما انقطع بينكما مرتين عندما كنت في مطلع عشريناتك (نيويورك، ١٩٦٨؛ باريس، ١٩٧٢)، كانت في الأساس فتاة خلقت لتعشق الفتيات ومن ثم كان محكوماً على هذه العلاقة بالفشل. قصة الحب الأخرى ابتدأت في سنتك الجامعية الأولى وتحديداً في الشتاء

(١) فقد الشهية إلى الطعام. (المترجمة)

حين وقعت في غرام فتاة أخرى متقلبة المزاج أحبتك وأعرضت عنك في الوقت عينه، وكلّما أمعنت في صدّك ازددت عزماً على مطاردتها: تروبادوري[1] أسقمه الحب وحبيبته المتقلبة. حتى بعدما قطعت أوصال رسغيها في محاولة غير جدية للانتحار بعد بضعة أشهر، لم تكفّ عن حبها: الفتاة ذات الضمادات البيضاء وصاحبة الابتسامة المحتالة الخلابة. ومن ثم، وبعد أن أزيلت الضمادات، جعلتها تحمل منك، فقد تمزّق الواقي الذكري الذي كنت تستعمله وصرفت كل فلس اضطررت إلى دفعه لقاء عملية إجهاض. ذكرى قاسية، ومن التجارب الأخرى التي لا تزال تبقيك صاحياً في الليل؛ وبينما أنت واثق بأنكما اتخذتما القرار الصائب بعدم إنجاب الطفل (أب وأم في التاسعة عشرة وفي العشرين، يا لها من فكرة غريبة مغايرة لكل ما هو طبيعي أو متوقّع)، إلا أن ذكرى ذلك الطفل غير المولود أرّقتك وعذّبتك. دائماً تخيّلت أنها كانت بنتاً ذات شعر أحمر، بنتاً رائعة متفجّرة حياة؛ وتتألّم أشدّ الألم عندما تحسب عدد سني عمرها الآن لو ظلت حية: ثلاثة وأربعون عاما، ما يعني أنّك، وعلى الأرجح، كنت أصبحت جدّاً لسنوات خلت، ربما منذ سنين طويلة: لو تركتها تعيش.

في ضوء إخفاقاتك الماضية وأحكامك الخاطئة وعدم قدرتك على فهم نفسك وفهم الآخرين وقراراتك المتهورة والمتقلبة وطريقتك الحمقاء والمتعثرة في معالجتك شؤون القلب وشجونه، يبدو من المستغرب أن يفضي بك الأمر إلى زواج دام كل هذه السنوات الطوال. كم حاولت أن تتوصل إلى معرفة الأسباب التي أدّت إلى انقلاب حظك

(١) أحد الشعراء المغنين الجوالين أو الشعراء الموسيقيين الذين اشتهروا في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا في القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد. (المترجمة)

على هذا النحو غير المتوقع، لكنك لم تستطع قط العثور على جواب شاف. ذات مساء التقيت مصادفة امرأة غريبة ووقعت في حبها، بادلتك هي هذا الحب. لم تكن جديراً بهذا الحب، ولم يكن جديراً بك. حدث مصادفة، وليس في الإمكان تحديد سبب آخر لما جرى لك سوى الحظ.

منذ البداية اختلف كل شيء معها. لم تكن من نسج الخيال؛ لم تكن إسقاطاً لتخيّلاتك الباطنية بل شخصاً حقيقياً. وقد فرضت عليك حقيقتها منذ ابتدأتما التحدّث، أي في اللحظة التي أعقبت تعرّف كل منكما إلى الآخر بواسطة أحد المعارف المشتركين. عرّف أحدكما بالآخر في باحة «الشارع ٩٢ي» (92nd Street Y) عقب قراءة شعرية. ولأنها لم تتظاهر بالخجل ولم تراوغ، ولأنها نظرت إلى عينيك مباشرة ولفتت نظرك بطريقتها الواثقة مؤكدة بذلك حضورها الثابت تماماً، لم يكن لديك مجال لتحويلها إلى إنسان لم تكنه، أي من بنات أفكارك أو نتاج خيالك كما فعلت بنساء أخريات في الماضي، بما أنها اخترعت ذاتها آنفاً. جميلة؟ نعم، ومن دون شك جمالها فوق العادي: شقراء نحيلة، طولها ست أقدام، ولها ساقان رائعتان طويلتان ورسغان منمنمان كرسغي ولد في الرابعة. هي أضخم شخص صغير رأته عيناك أو ربما كانت أصغر شخص كبير؛ وفوق ذلك لم تكن تتطلع إلى جسد مفعول به لا متفاعل لأنثى رائعة بهية، كنت منهمكاً في التحدّث إلى فاعل بشري يتنفس وينبض بالحياة. هي فاعل وليست مفعولاً به، ومن ثم لا مجال للأوهام؛ والأضاليل غير ممكنة. الذكاء هو الصفة البشرية الوحيدة التي لا يمكن تزييفها؛ وما أن تعوّدت عيناك جمالها الباهر حتى أدركت أنّ هذه المرأة لامعة، متقدة الذكاء، ومن ذوي أصحاب العقول السليمة القليلين الذين قابلتهم في حياتك.

شيئاً فشيئاً وفيما بدأت تعرفها جيداً في الأسابيع اللاحقة، وجدت أنّ أفكاركما وأذواقكما متقاربة جداً حيال كل الأشياء المهمة تقريباً. كانت لديكما الآراء والميول السياسية ذاتها، وتشاركتما في الاهتمام بالنوع ذاته من الكتب، وتشابهت مواقفكما إزاء أولوياتكما في هذه الحياة: الحب والعمل والأولاد، كما احتل المال والمقتنيات أسفل القائمة. ومما روّح عنك وطمأن بالك وجود اختلاف كبير بين شخصيتك وشخصيتها: كانت تضحك أكثر منك، وتميّزت منك بالانطلاق والانفتاح ودفء المشاعر؛ ومع كل ذلك، ولدى تواصلكما في أدنى نقطة، شعرت أنك قد التقيت نسخة أخرى طبق الأصل عنك، وإن كانت نسخة متطورة أكثر منك وقادرة أكثر على الإفصاح عما أبقيته أنت مكبوتاً في داخلك: كائناً أعقل منك. أحببتها لدرجة العبادة، ولأول مرة في حياتك بادلك من تعشقه عشقاً. أتيتما من عالمين مختلفين تماماً: فتاة بروتستانتية لوثرية من مواليد «مينيسوتا»، ويهودي من «نيويورك» تجاوز مرحلة الشباب بعض الشيء. ولكن قبل أن يمرّ شهران ونصف شهر على لقائكما العرضي في الثالث والعشرين من شباط/فبراير منذ ثلاثين سنة، قرّرتما العيش معاً. حتى ذلك الوقت كانت جميع القرارات المعنية بعلاقاتك بالنساء خاطئة، لكنّ هذا القرار شذّ عن القاعدة.

كانت طالبة تخرّج وشاعرة؛ وفي خلال السنوات الخمس الأولى التي عشتماها معاً، شاهدتها تنهي دراسة المواد المقرّرة وتحضّر لامتحاناتها الشفهية وتنجح فيها ومن ثم تنكبّ بجهد على كتابة أطروحتها، وهو عمل شاق موصول (تناولت فيها الشق اللغوي والهوية في كتابات «ديكنز»). كما أصدرت ديواناً واحداً من الشعر في تلك الفترة. ولضيق الحالة المادية في بدايات زواجكما، امتهنت أعمالاً عديدة مختلفة: نقّحت أنثولوجيا مؤلفة من ثلاثة مجلدات أصدرتها

«زون بوكس»؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أعادت كتابة إحدى أطروحات الدكتوراه لأحدهم سراً، وكانت هذه الأطروحة عن «جاك لاكان»، ودرّست أيضاً، وهذا هو المجال الذي عملت فيه غالباً. كان صفها الأول مؤلفاً من عمال من ذوي مستويات متدنية من المؤهلات العلمية في إحدى شركات التأمين: عمال شباب طامحون وراغبون في تحسين فرصهم لبلوغ درجات عليا في العمل وذلك بدراسة مقرر مكثف في قواعد اللغة الإنكليزية والكتابة الإنشائية الإيضاحية. اعتادت زوجتك الرجوع إلى المنزل مرّتين في الأسبوع وفي جعبتها قصص وحكايات ترويها عن طلابها؛ بعضها مسلّ وبعضها مؤثّر إلى حد ما، ولكن ثمة حكاية واحدة تسطع في ذاكرتك تتعلق بغلطة مضحكة ظهرت في الامتحان النهائي ودلّت على غباوة مرتكبيها: في منتصف الفصل تماماً كانت زوجتك قد ألقت محاضرة عن صور مجازية متنوعة ومن بينها مفهوم التعبير الملطف[1]، وللتوضيح استشهدت بالتعبير المجازي «يفارق الدنيا» كتعبير ملطف لكلمة «يموت». وفي الامتحان النهائي طلبت من تلاميذها إعطاءها تعريفا لمصطلح «التعبير الملطف»، وأجابها واحد منهم كان شارداً في خلال الشرح، ولكنه رأى تحدّياً في السؤال: «التعبير الملطف يعني يموت». بعد تدريس عمال شركة التأمين انتقلت لتعلّم في كلية «كوينز» حيث عملت بصفتها أستاذة معاونة مدة ثلاثة أعوام: عمل شاق جداً لقاء أجر زهيد، إذ كانت تدرّس مادتين مقرّرتين في كل فصل، إضافة إلى إعطاء دروس لتقوية لغة الطلاب الإنكليزية وتعليم مادة الإنشاء. بلغ عدد تلاميذها في كل صف خمسة وعشرين طالباً فكان عليها تصحيح خمسين ورقة كل أسبوع فضلاً عن عقد اجتماعات خاصة مع كل تلميذ

(١) تعبير سائغ يستعاض به عن تعبير آخر جارح أو بغيض. (المترجمة)

في كل فصل وقطع مسافة طويلة على مدى ساعتين من «كوبيل هيل» إلى «فلوشينغ»: اعتادت الانطلاق منذ السادسة صباحا. وتطلبت منها تلك الرحلة ركوب قطاري أنفاق وحافلة، ثم كان عليها القيام برحلة أخرى دامت ساعتين في الاتجاه المعاكس، كل ذلك لقاء راتب قدره ثمانية آلاف دولار في السنة من دون خدمات مالية مقدّمة بموجب التقاعد أو عقود تأمين. أتعبتها أيام العمل الطويلة، ليس بسبب مهنة التدريس وقطع مسافات طويلة يومياً فحسب، ولكن بسبب قضائها ساعات طوالاً تحت الأضواء الفلورية المتوهجة في «كوينز» التي تومض وتختفي بسرعة والتي من شأنها أن تتسبب بالصداع لدى الأشخاص الذي يعانون الصّداع النصفي. ولأنّ هذا المرض قد أثقل كاهل زوجتك منذ نعومة أظفارها، لم تمض ليلة تقريباً إلا ودخلت من الباب والهالات السوداء تحت عينيها ورأسها يكاد ينفجر من شدة الألم. كانت تتقدم ببطء في أطروحتها، فبرنامج عملها الأسبوعي كان مجزءاً جداً بحيث لم يكن ثمة مجال لتخصيص فترات مكثفة للقيام بالأبحاث المطلوبة وبالكتابة؛ ولكن أخذت أحوالك المادية تتحسن فجأة إلى حدّ ما وعلى نحو كافٍ لتقنعها بهجر مهنة التعليم بدون رجعة ومهما تكن الظروف. ما أن خلا لها الوقت حتى انكبّت على إتمام أطروحتها الجامعية طوال ستة أشهر. كان السؤال الأهم: لم ظلّت مصرّة على إتمام أطروحتها؟ ارتياد كلية التخرج كان أمراً منطقياً ومعقولاً في البداية: امرأة عزباء تحتاج إلى وظيفة، ولا سيما إذا كانت تلك المرأة متحدّرة من عائلة تعاني ضائقة مالية. وعلى الرغم من أنها طمحت إلى أن تكون كاتبة، لم تستطع الاعتماد على مهنة الكتابة لإعالة نفسها، ومن ثم ارتأت أن تصبح أستاذة جامعية. لكن الأحوال تبدّلت، فقد أصبحت متزوجة ولم يعد وضعها المالي متقلقلاً كما في السابق، ولم

تعد تنوي البحث عن وظيفة أكاديمية، ومع هذا مضت في نضالها إلى أن نالت الدكتوراه. سألتها مراراً: «لم تهمّك هذه الشهادة إلى هذا الحدّ؟». فكانت أجوبتها المتنوّعة تصبّ جميعها في النقطة المهمة المتمثلة بماهية الشخص الذي كانت عليه في الماضي وما هي عليه الآن. أولاً: لأنه لم تطاوعها نفسها على هجر أو ترك أمر بدأته. إنها مسألة عناد وكبرياء. ثانياً: لأنها كانت امرأة. هجر مدرسة التخرّج بعد سنة واحدة من ارتيادك إياها كانت خطوة جيدة. كنت رجلاً، والرجال يحكمون العالم، ولكن المرأة المتسلحة بدرجة علمية متقدمة لا بدّ أن تحوز الاحترام في عالم الرجال ولن تُرمق بنظرة دونية كما هي حال المرأة التي تفتقر إلى تلك الشهادة المميزة. ثالثاً لأنها استمتعت بهذا العمل وأحبّته. تحسّن إدراكها الذهني بفعل ما بذلته من جهد وتدريب النفس على الدراسة المكثفة، ما جعل منها إنساناً يفكر على نحو أفضل وأعمق. حتى وإن كانت ستمضي غالبية الوقت في المستقبل في تأليف الروايات (بدأت تكتب رواياتها الأولى)، فلم يكن لديها نيّة التخلي عن عالمها الثقافي لدى نيلها شهادة الدكتوراه. خضت هذه النقاشات معها منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، لكنها وكأنما بدأت منذ ذلك الحين بسبر غور المستقبل ورؤية الخطوط الرئيسة ماثلة أمامها. ما أنجزت منذ ذلك الحين هو الآتي: إصدار خمس روايات ورواية سادسة قيد النشر، إضافة إلى أربعة كتب غير روائية معظمها مقالات، عدد كبير من المقالات حول مروحة كبيرة من الموضوعات: الأدب والفن والثقافة والسياسة والأفلام والحياة اليومية والموضة والعلم العصبي[1] والتحليل النفسي وفلسفة الإدراك (الحسي) وفينومونولوجيا الذاكرة. وفي العام

(١) علم يعنى بدراسة فيسيولوجيا الأعصاب والأنسجة العصبية وكيميائها الحيوية وبيولوجيتها الجزئية وخصوصاً ما يتصل بالسلوك والتعلم. (المترجمة)

١٩٧٨ كانت واحدة من مئة طالب وطالبة التحقوا بجامعة كولومبيا لدراسة منهاج اللغة الإنكليزية للمتخرجين. وبعد سبع سنوات كانت في عداد ثلاثة طلاب فقط ممن أتموا هذه الدراسة.

لم تقترن بزوجتك فقط بل بعائلتها أيضاً؛ ولأن والديها كانا لا يزالان يعيشان في البيت الذي ترعرعت [هي] فيه، سرى بالتدريج في مجرى دمك موطن آخر: مينيسوتا، الولاية الواقعة في أقصى الشمال، في العالم القروي في أعالي «الغرب الأوسط». هو ليس العالم المستوي[1] الذي تخيلته، ولكنه أرض متموجة من القمم الصغيرة والمنحنيات المنحدرة؛ لا جبال فيها أو تلال منبثقة، بيد أنه ثمة غيوم في الأفق البعيد تحاكي أشكال الجبال والتلال: كتلة ضخمة من صنع وهم أو سراب، أو كتلة من الأبيض الضبابي، الوهمي، السريع الزوال لتلطيف رتابة سير الأميال المتعاقبة من الأرض المتموّجة. وفي الأيام التي لا وجود فيها للغيوم، تمتد حقول الفصة[2] على طول الطريق حتى الأفق، أفق منخفض وبعيد تظلّله كالقوس سماء هائلة في حجمها ولا متناهية، سماء كبيرة جداً إلى حدّ بلوغها أصابع قدميك. شتاءاتها هي الأشد برودة على وجه الأرض، تتبعها صيفيات لاهبة، رطبة؛ حرارة شمسها السافعة المحرقة ثقيلة الوطأة عليك لأنها تجلب معها الملايين من البرغش، برغش كثير جداً بحيث تباع قمصان تائية تحمل رسوماً لتلك القاذفات الانقضاضية القاتلة مرفقة بالشعار: «مينيسوتا: طائر الولاية». أول مرة توجّهت إليها للمكوث فيها طوال شهرين في صيف العام ١٩٨١. كنت تكتب المقدّمة للأنثولوجيا التي كنت تعدّها عن الشّعر الفرنسي في القرن العشرين. كانت مقدّمة طويلة بعض الشيء

---

(١) منطقة يغلب عليها التسطّح والانبساط. (المترجمة)

(٢) نبات بقلي يَتّخذ علفاً للحيوان. (المترجمة)

بلغ عدد صفحاتها الأربعين وما يزيد. وبما أنّ أهل زوجتك العتيدة كانوا خارج البلدة في خلال زيارتك، اتخذت مكتب والد زوجتك في حرم كلية «سانت أولاف» مقراً لعملك حيث انطلقت آلياً في كتابة نبذ عن «أبولينير» و«ريفيردي» و«بريتون» في غرفة مزدانة بصور لخوذات قراصنة إسكندينافيين، وتقود السيارة كل صباح إلى الحرم الجامعي المهجور في الغالب والذي دبّت فيه الحياة ذات أسبوع عندما أُجّرت بعض مباني الكلية للقيّمين على المؤتمر السنوي للمدرسين المسيحيين. كم استمتعت بمشاهدتهم وهم يمرّون من أمامك فيما كنت تركن سيارتك في الصباح: عدد كبير من رجال متشابهين في الشكل تقريبا بقصّاتهم القصيرة جداً وبالشعر الأشبه بسطح الفرشاة الأهلب، وبكروشهم وبناطيلهم القصيرة «الواصلة» إلى ما فوق الركبتين بقليل. ومن ثم اعتدت المضي إلى غرفتك في الدائرة الزوجية حيث كنت تكتب صفحات أخرى عن الشّعراء الفرنسيين. كنت في مدينة «نورث فيلد» التي أعلنت بفخر أنها «مركز الأبقار والجامعات والاطمئنان»: مدينة يبلغ عدد سكانها قرابة ثمانية آلاف نسمة، وأكثر ما تعرف بالمكان الذي لقي «جيسي جيمس» فيه حتفه هو وعصابته في خلال محاولة للسطو على أحد المصارف (لا تزال الثقوب التي خلّفتها الرصاصات في جدران المصرف في شارع «ديفيجين» ماثلة للعين)؛ ولكن سرعان ما أصبحت البقعة المفضلة لديك مصنع «ملت - أو - ميل» في شارع «١٩» الرئيس، بمداخنه التي تنفث سحباً بيضاء من الحبيبات التي تسحر رائحتها الألباب والمعتمدة في الصيغة الطهوية لذلك الطعام الحبّي عند الفطور المركّب من النشاء الأغبر[1]، كان هذا المصنع يقع في منتصف الطريق بين بيت «عمك» ووسط المدينة،

---

(١) أسمر فاتح إلى برتقالي مسمرّ. (المترجمة)

أي قبل خط السكة الحديد بمئات الياردات فقط، حيث توقفت مع زوجتك عصر ذات يوم صيفي فيما كان أحد القطارات يمر ببطء: أطول قطار رأيته في حياتك، يحوي ما يقرب من مئة سيارة شحن وسيارتين، لكن لم يتسنّ لك الوقت لعدّها لأنك كنت مستغرقاً في الحديث مع زوجتك العتيدة وخصوصاً عن الشقة التي كنتما ستبحثان عنها لدى رجوعكما إلى «نيويورك»، وهناك أتيتما على ذكر موضوع الزواج لأول مرة: ليس مجرد العيش معاً تحت سقف واحد بل الارتباط برباط الزواج الوثيق أيضاً. هذه كانت رغبتها وهذا ما ألحّت عليه، ومع أنك قررت عدم الدخول في القفص الذهبي ثانية أكّدت قولها وقلت لها إنك ستتزوجها بكل سرور إذا هي أرادت. قلت هذا لأن حبّك لها قد دام طويلاً على نحو كاف لكي تدرك أنّ رغباتك مرآة لرغباتها. لهذا السبب انتبهت جيداً لكل ما كان يوجد من حولك في ذلك الصيف، لأن هذا هو البلد الذي أمضت فيه زوجتك مرحلة اليفاع والذي تفتّحت فيه أنوثتها. وبالتدقيق في تفاصيل ذلك المنظر الطبيعي، شعرت أنك سوف تتمكن من أن تعرفها وتفهمها على نحو أفضل؛ وشيئا فشيئا وفيما تمكّنت من التعرّف من كثب إلى والدتها ووالدها وشقيقاتها الثلاث الأصغر منها، رحت تفهمهم أيضاً، ما ساعدك على فهمها على نحو أفضل، وتلمّس صلابة الأرض التي مشت عليها، لأنها كانت عائلة صلبة مختلفة تماماً عن العائلة الهشة والمتصدّعة التي تربّيت أنت في كنفها. لم يمض وقت طويل حتى أصبحت واحداً من أفراد أسرتها، من دواعي حظك السعيد إلى أبد الآبدين أنّها أصبحت عائلتك أيضاً.

ثم حان وقت الزيارات الشتائية، والرجعات بعد طول غياب، مع بداية كل سنة جديدة: من أسبوع إلى عشرة أيام في عالم جليدي من الهواء الساكن، من خناجر محمولة بالريح تخترق جسدك، من التطلع

إلى مقياس الحرارة الفهرنهايتي من خلال نافذة المطبخ صباحاً ورؤية الزئبق الأحمر متوقفاً عند درجة العشرين تحت الصفر، وعند ثلاثين درجة تحت الصفر، درجات حرارة لا يحتملها البشر بحيث تساءلت دوماً كيف يمكن أي إنسان العيش في مكان كهذا؟ صور ذهنية كثيرة تقفز إلى ذاكرتك: أفراد من أسر سووانية[١] متدثرين من الرأس إلى أخمص القدم بإهاب[٢] الجواميس؛ وأسر المهاجرين الأوائل وهم يموتون من شدة البرد في براري أميركا الشمالية الشبيهة بمناطق التندرا[٣] لا مثيل لهذه البرودة الشديدة، صقيع بغيض لا يطاق يجمّد عضلات وجهك ما أن تخطو خطوة واحدة إلى الخارج، صقيع يلفح بشرتك ويغضّنها؛ صقيع يجمّد الدم في شرايينك، ورغم ذلك كله، وليس منذ زمن بعيد، خرجت الأسرة جميعها ذات مرة إلى الخارج، إلى العتمة، للتطلع إلى الأنوار الشمالية. رأيتهم على هذا النحو تلك المرة الوحيدة فقط: منظر عصي على النسيان، عصي على الخيال، وهم يقفون ووسائل التدفئة معدومة ويحدّقون إلى السماء، إلى سماء خضراء تصدر شحنات كهربائية، سماء تبرق شحنات خضراء في غياهب الظلام. لم ترَ عينك مثيلاً لروعة ذلك المشهد المشحون. وفي ليال أخر، تكون السماء صافية، لا ترى فيها غيوماً، سماء مكتظة بالنجوم، نجوم حتى الآفاق البعيدة، على مدى النظر، نجوم لم ترَ أكثر منها في أي مكان آخر، نجوم وفيرة العدد إلى حدّ أنها تتحد لتشكّل بركاً

(١) قبائل من الهنود الحمر في الأجزاء الوسطى والشرقية من أميركا الشمالية. (المترجمة)

(٢) جلد غير مدبوغ. (المترجمة)

(٣) أراض منبسطة في الأجزاء الشمالية حيث البرودة الشديدة وانعدام وجود أشجار. (المترجمة)

سيالة كثيفة، وفوق رأسك عصيدة من البياض. ثم هناك الصباحات البيضاء التي تعقب هذه الليالي، والعصريات البيضاء والثلوج، التي تتساقط على الدوام من حولك والتي تصل إلى ركبتيك وإلى خصرك، تنمو وتكبر مثل عباد الشمس الذي جاوزك طولاً في حديقة والدتك عندما كنت ولداً صغيراً. لم تر مثل هذا القدر من الثلوج في أي مكان آخر. وفجأة، تعود إلى منتصف التسعينيات وتعيش مجدداً لحظة معينة من تلك الفترة الزمنية، أي عندما قمت أنت وزوجتك وابنتك بتلك الرحلة الميلادية السنوية الطويلة إلى «مينيسوتا»: ها أنت خلف المقود في الليلة العاصفة المثلجة، تقود السيارة بعد الخروج من منزل إحدى شقيقات زوجتك في «مينيابوليس»، [كبرى مدن مينيسوتا] متوجهاً إلى بيت أهلها في «نورث فيلد»، أي على مسافة لا تقل كثيراً عن الأربعين ميلاً. في المقعد الخلفي تجلس ثلاث نساء من أجيال مختلفة (حماتك وزوجتك وابنتك)، وفي مقعد الركاب الأمامي إلى يمينك يقعد حموك، رجل عاملك بلطف طوال السنين التي كنت فيها زوجا لابنته الكبرى، حتى وإن كان من نواح عديدة شخصا متحفظا. لا يبدي اهتماماً بالآخرين، ومنغلقاً على نفسه؛ أي يشبه والدك إلى حد كبير من حيث الطباع: كلاهما عانى في طفولته قساوة الحياة والفقر. في حالة حميك، ثمة محنة إضافية وهي كونه خدم في الجيش بصفته أحد الجنود المشاة الشباب في الحرب العالمية الثانية (في معركة «لوزون») وفي الفيليبين وفي غابات غينيا الجديدة)، لكنك طوال عمرك تعرف كيف تتواصل مع الأشخاص المنغلقين ببراعة، وإذا كان حموك يشبه والدك في بعض الأحيان، تشعر أيضاً أنّ في داخله مخزوناً أكبر من الدفء والود والحنان، وأنه من الممكن سبر أعماقه أكثر

من والدك بكثير وأنه مترسّخ أكثر في انتمائه إلى الجنس البشري. أنت في السادسة والأربعين أو في السابعة والأربعين، ووضعك الصحي ممتاز، ولا تزال فتياً في منتصف مرحلة كهولتك؛ ولأنك ما زلت معروفا بصفتك سائقاً بارعاً، تثق أعضاء الفرقة النسائية الجالسات في المقعد الخلفي ثقة عمياء بك كسائق وبقدرتك على إيصالهن بأمان إلى البيت في «نورث فيلد». ولأنهن يثقن بك لا يخشين البتّة المخاطر المحتملة للعاصفة. ففي الواقع ينهمكن ثلاثتهن طوال رحلة العودة إلى المنزل في أحاديث صاخبة حول الكثير من الموضوعات؛ يتصرفن وكأنها ليلة دافئة في «عز» الصيف. ولكن ما أن تدير المحرّك وتخرج من محيط بيت شقيقة زوجتك حتى تدرك أنت وحموك أن الرحلة ستكون مضنية وأن أحوال الطقس سيئة إلى درجة لا تطاق. حالما تصل إلى الطريق الرئيس وتتجه جنوباً على «تقاطع - ٣٥» (I-35)، تطرق الثلوج حاجب الريح بقوة؛ ومع أنّ المسّاحتين تعملان بأقصى سرعة ممكنة، لا يمكنك أن ترى شيئاً أمامك بما أن الثلوج تأخذ في التجمّع على الزجاج ثانية في اللحظة التي تتم المسّاحتان مسارهما القوسي الشكل. ما من مصابيح فوقية في الطريق الرئيس، لكن الأنوار الأمامية التي تسلّطها السيارات السائرة اتجاهك في الزقاق المعاكس تنير الثلوج المتساقطة على حاجب الريح، بحيث أن ما تراه ليس الثلوج بل وابل من الأنوار الباهرة الصغيرة. والأسوأ من ذلك كله أنّ الطريق زلق وأملس وجليدي مثل بركة التزلج، وإذا أسرعت أكثر، أي أكثر من عشرة أميال أو خمسة عشر ميلاً في الساعة، فهذا من شأنه أن يوهن قدرة الدواليب على الدوران ويؤثر سلباً في احتكاكها بالطريق ويبطل عمل الفرامل. كلما اجتزت خمسين أو مئة ياردة، رأيت على يسارك وعلى يمينك سيارة منزلقة خارج الطريق، وملقاة وهي منقلبة جزئياً في منحدر ثلجي أو في

ركام ضخم من الثلج. وحموك الذي عاش في «مينيسوتا» طوال عمره يعرف تماماً مخاطر القيادة في عاصفة كهذه، ويتابعك بكل حواسه فيما تبطئ سرعتك إلى أقصى درجة وتقود السيارة على مهل وبحذر على الطريق في الليل؛ يجلس في مقعد الربان المستكشف ويدقّق النظر في الكميات الكبيرة من الثلوج الصغيرة المتلئلئة التي تستمر في التدفق على حاجب الريح، ويحذّرك من المنحنيات التي ستمرّ بها قريباً، ويبقيك هادئاً ومركزاً، يقود معك بأفكاره وبعضلات جسده. ويظل الوضع قائماً على هذه الحال حتى تتمكن أخيراً من الوصول إلى البيت في «نورث فيلد»: أنت والجندي السابق في الأمام والنساء في الخلف. كانت رحلة شاقة وطويلة استغرقت ساعتين بدلاً من الرحلة الاعتيادية التي لا تستغرق أكثر من ثلاثين أو أربعين دقيقة. وعندما تدخلون أنتم الخمسة البيت، لا تتوقف النسوة عن التحدث والضحك لكنّ حماك الذي يعرف أن هذه التجربة أرهقت أعصابك لأنها أرهقت أعصابه أيضاً، يربّت ظهرك ويغمزك بعينه. بعد مرور خمسين عاما على تعليق بزّته العسكرية، أدى لك الجندي التحية العسكرية.

ظلت العائلة تحيي عشاء الميلاد في «نورث فيلد»، «مينيسوتا»، كل سنة، منذ العام ١٩٨١ حتى ٢٠٠٤، حين توفّي حموك؛ ومن بعدها بيع بيت العائلة، وانتقلت حماتك للإقامة في شقة، وتبدّل هذا التقليد توافقاً مع الظروف المستجدة. لكن على مدى ربع قرن من الزمن تقريباً طبعت وجبة عشاء الميلاد، بالتفصيل، بطابع رسمي بحيث لم يسجّل أي اختلاف في الخطوات المتبعة من سنة إلى أخرى. المائدة التي جلست إليها أول مرة في العام ١٩٨١ والتي ضمّت سبعة أشخاص فقط: حماتك وحموك وزوجتك وشقيقاتها الثلاث وأنت، توسّعت تدريجاً بتوالي السنوات، بعد أن تزوجت شقيقات زوجتك الصغيرات وأخذن

ينجبن الأطفال. وهكذا وبحلول نهاية ربع القرن الفائت، أصبح عدد الجالسين حول المائدة تسعة عشر شخصاً، بمن فيهم الطاعنون في السن والكبار والصغار والولدان. والجدير ذكره هو أنه كان يتم الاحتفال بعيد الميلاد ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول/ديسمبر وليس صباح الخامس والعشرين منه وعصره، لأنه وعلى الرغم من أنّ عائلة زوجتك توطّنت في أواسط أميركا الزراعية، ولا تزال عائلة إسكندنافية أيضاً، عائلة نروجية في الصميم، وجميع أصول اللياقة في عيد الميلاد اتبعت التقاليد السائدة في ذلك الجزء من العالم وليس في أميركا. فحماتك التي ولدت في إحدى المدن الواقعة في أقاصي جنوب النروج في العام ١٩٢٣ لم تعبر المحيط الأطلسي قبل سن الثلاثين، ومع أنها تحسن التحدث بالإنكليزية وتتكلمها بطلاقة، لا تزال تتكلم لغتها الثانية هذه بلكنة نروجية. عاشت في أيام الحرب وشهدت الاحتلال الألماني وهي شابة يافعة، وزجّت في السجن تسعة أيام بعد مشاركتها في إحدى المسيرات الاحتجاجية الأولى ضد النازيين وكانت في السابعة عشرة (تقول لو أنّ هذا الأمر جرى لها في وقت لاحق في الحرب لكانت أرسلت إلى أحد المعسكرات). كما كان شقيقاها الأكبر منها سناً عضوين ناشطين في الحركة السرّية (أحدهما انتقل إلى السويد بالتزحلق على الثلج بواسطة زحلوقتين هرباً من «الغستابو» بعد اختراق خليته). حماتك إنسانة ذكية ومطلعة وأنت معجب بها أيما إعجاب ومتعلّق بها كثيراً، ولكن صدرت عنها بعض المواقف الغريبة بسبب عثراتها الحينية في اللغة الإنكليزية وعدم معرفتها بالألفاظ الجغرافية الأميركية، وربما كان الموقف المضحك أكثر من غيره هو ما بدر منها في تلك الليلة منذ خمسة عشر أو ستة عشر عاماً عندما لم تتمكن الطائرة التي كانت تقلّها هي وزوجها إلى «بوسطن» من الهبوط لأنّ الضباب

كان يلف المطار ومن ثِم استلزم الأمر تغيير مسارها إلى «ألباني»، «نيويورك»؛ وحالما تمكنا من الوصول إلى «ألباني» اتصلت بزوجتك وأعلنت بصوتٍ عالٍ عبر الهاتف: «نحن في «ألبانيا»!» سوف نمضي الليلة في «ألبانيا!». أما حموك فكان نروجياً مئة بالمئة أيضا على الرغم من أنه انتمى إلى الرعيل الأميركي الثالث: ولد في «كانون فولز»، «مينيسوتا» في العام ١٩٢٢، وكان آخر أبناء أصحاب البراري الذين استوطنوا أميركا الشمالية في القرن التاسع عشر. كان ابن مزارع، ونشأ في بيت مصنوع من جذوع الأشجار من دون كهرباء أو وجود شبكة مواسير مياه داخلية. والمجتمع الريفي الذي عاش في كنفه كان معزولاً جداً، مكوّناً حصرياً من مهاجرين نروجيين وأبنائهم. كانت بيئة اجتماعية نروجية تماماً إلى حد أنّ التواصل اللغوي مع الغير في حداثة حياته كان يتم باللغة النروجية وليس الإنكليزية، ولهذا بقيت ألفاظه بالإنكليزية مطعّمة بلهجة أجنبية طوال مرحلتي الرشد والشيخوخة: لم تكن لهجة قوية الأثر بل نبرة موسيقية مخففة، لهجة إنكليزية أميركية منطوقة لم تعهدها أذناك من قبل، لهجة لطالما وجدتها لطيفة الوقع جداً على السمع. بعد الانقطاع الطويل عن الدراسة بسبب الحرب، أكمل دراسته الجامعية بموجب مشروع القانون الحكومي المتعلق بإعانة الجنود السابقين على متابعة دراساتهم العليا، وتابع علومه في مدرسة التخرّج وأتمّ سنة دراسية في الأبحاث والدراسات في جامعة «أوسلو» بموجب قانون «فالبرايت»[1]، وعمل أخيراً بصفته أستاذاً جامعياً يدرّس اللغة النروجية والأدب النروجي. نشأت زوجتك في كنف عائلة نروجية حتى ولو صودف وقوع منزلها في «مينيسوتا»، ومن ثم فإنها حرصت على اتباع التقاليد النروجية بحذافيرها ومنها

(١) حيث التقى حماتك. (المترجمة)

وجبة العشاء الميلادية. في الواقع كانت العشوات الميلادية المعتمدة في مينيسوتا نسخة مطابقة لتلك التي اعتادت حماتك تناولها مع أسرتها في السابق عندما كانت طفلة تعيش في جنوب النروج في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين: زمن بعيد جداً عن عصرنا الحالي: عصر الغنى والوفرة والأسواق الفائقة[1] المكدّسة بمئتي نوع من وجبات الفطور الحبية وأربع وثمانين نكهة من «الآيس كريم». تلك الوجبة ظلت كما هي من دون إجراء تعديلات عليها؛ وطوال ثلاثة وعشرين عاماً لم تخضع المائدة لأي زيادة أو نقصان في الأطباق. لم تحتو تلك المائدة أطباقاً رئيسة تعد دائماً في ليلة الميلاد كالحبش أو الأوز أو فخذ الخنزير (المحفوظة)، بل تكوّنت من أضلاع مأخوذة من صدر الخنزير مكسوة قليلاً برشة من الملح والبهار، مخبوزة في الفرن: هي وجبة «ناشفة» من دون صلصة أو فاكهة مطبوخة أو توابل مضافة إليها. كما يوجد طبق ثانوي مؤلف من بطاطا مسلوقة وقنبيط مسلوق وملفوف أحمر مسلوق ورؤوس من الكرنب المسوّق المسلوق وجزر مسلوق وعنبية البقر[2]، إضافة إلى عقبة: حلوى الأرز. ليس ثمة وجبة أبسط منها، ولا أكثر منها استخفافاً بالمفاهيم الأميركية المعاصرة، عن المكوّنات المقبولة التي يجب اعتمادها في إعداد الطعام أيام الأعياد، وتعارضاً معها، بيد أنه عندما استطلعت آراء بنات وأبناء أخوتك الصغار منذ سنتين (لا تزال هذه العادة تسري في نيويورك) سائلاً إياهم عما إذا كانوا يفضّلون أن تبقى وجبة الميلاد كما هي أو أن تطرأ عليها بعض التعديلات، صاحوا جميعهم: لا تعديلات. هذا الطعام هو بمنزلة تقليد،

---

(١) مخازن كبيرة تباع فيها السلع بطريقة الخدمة الذاتية. (المترجمة)

(٢) نبات معترش دائم الخضرة ذو زهرات قرنفلية أو محمرة وثمرات عليقية حمراء حامضة المذاق بعض الشيء. (المترجمة)

هو عنوان للاستمرارية، ولتماسك العائلة، هو مرساة رمزية تثبتك وتحول دون انجرافك في التيار وضياعك في البحر. على هذه الشاكلة كانت العشيرة التي تزوجت إحدى بناتها ولا تزال. عندما كانت ابنتك الفطنة في سن الخامسة عشرة تقريباً، طلعت بمصطلح جديد لوصف خلفيتها الاجتماعية: «يهودجية» (Jew-wegian). لا تعتقد بوجود أشخاص كثر يمكنهم المطالبة بحقهم بامتلاك تلك العلامة الفارقة للهوية المختلطة. ولكن هذا هو واقع حال أميركا. نعم، أنت وزوجتك والدان لابنة يهودية نروجية أو الأحرى يهودجية.

أما من حيث المأكولات الأثيرة لديك في صغرك، أي منذ زمن ذكرياتك الأولى إلى أن بلغت عتبة البلوغ، فتتساءل الآن عن العدد الهائل للمأكولات التي تناولتها بالشوكة أو بالملعقة حينذاك، وكم لقمة وضعت في فمك وكم مرة بلعت ورشفت وجرعت أطعمة جامدة وسائلة، بدءاً بعصائر الفواكه الوفيرة العدد التي شربتها في أوقات مختلفة في أثناء النهار: عصير الليمون في الصباح. ولكن أيضا عصير التفاح وعصير «الغريب فروت» وعصير الطماطم وعصير الأناناس. عصير الأناناس في كوب ولكن أيضاً عصير الأناناس المثلج في قوالب المكعبات الجليدية في الصيف والذي أسميته أنت وشقيقتك «فدر الأناناس»، إلى جانب المشروبات اللامسكرة التي جرعتها كلما أذن لك بتناولها (الكوكاكولا وجعة الجذور ومزر الزنجبيل[1] والسفن آب وعصير الفاكهة). زد على القائمة أكواب المخفوق اللبني (ميلك شايك) التي أولعت بها ولا سيما مع الشوكولا، لكنك أحببت تناولها أيضاً مع الفانيلا، لتغيير الطعم، أو بمزج الاثنين معاً والمعروف «بالأسود والأبيض»؛ وفي الصيف كانت الفرحة تغمرك لدى تناولك

(١) شراب غازي محلّى غير مسكر منكّه بخلاصة الزنجبيل. (المترجمة)

جعة الجذور المعومة التي تتشكل عادة من جيلاتي الفانيلا، ولكن كان يروقك هذا الشراب أكثر إذا كان الجيلاتي بنكهة القهوة. كنت تبدأ نهارك عادة بتناول أول لون من ألوان الأطباق الحبية: طبق بارد (رقائق الذرة أو الرقائق الأرزية أو القمح المهشوم[١] أو القمح المنتفخ أو الأرز المنتفخ أو غيرها من الحبوب؛ بكلمة أخرى كل ما كنت تجده في خزانة المطبخ). اعتدت سكب أحد هذه الأطعمة في سلطانيةٍ ثم غمسه بالحليب ومن ثم رش ملعقة كبيرة (أو ملعقتين) من السكّر المكرر الأبيض عليه. أتبعت هذه الوجبة بحصة أخرى من الطعام مقدّمة على المائدة: بيض (مقلي بمزج صفاره ببياضه في غالبية الأحيان، ومقلي بالزيت أو نصف ناضج بين الحين والآخر) وقطعتان من التوست [خبز محمّص] مدهونتان بالزبدة (توست طري أو مصنوع من القمح الكامل أو من الجاودار). وغالباً ما كان هذا الطبق مرفقاً بقطعة من لحم الخنزير المقدد والمملح أو من فخذ الخنزير المملحة أو النقانق، وإلا قدّم لون رئيس آخر مكوّن من التوست الفرنسي (مع شراب القيقب)، أو في ما ندر وأكثر ما يشتهى في جميعٍ الأوقات، كومة من الفطائر الرقيقة المحلاة (مع شراب القيقب أيضاً). بعد عدة ساعات حان دور وجبة الغداء المكونة من قطع من اللحم متداخلة بعضها ببعض بين شريحتين من الخبز: إما من لحم فخذ الخنزير أو السلامي[٢]، أو لحم البقر المملح أو سجق بولونيا[٣]؛ وفي بعض الأحيان كان لحم فخذ الخنزير

(١) طعام من أطعمة الصباح مؤلف من قمح مطهو يجفف جزئياً ثم يهشم ويخبز على شكل بسكويت. (المترجمة)

(٢) ضرب من النقانق أو السجق منكّه بالثوم. (المترجمة)

(٣) سجق ضخم مدخن ومنكه بالتوابل يصنع من مزيج من لحم البقر ولحم الخنزير المفرومين فرماً ناعماً. (المترجمة)

والجبن الأميركي يقدمان معاً وفي أحيان أخرى كان الجبن الأميركي يقدّم وحده فقط. وإلا فالبديل إحدى شطائر سمك التونا الموثوق بها التي كانت تعدّها والدتك. في غالبية أيام الشتاء الباردة كهذا اليوم، كانت الشطيرة تقدّم بعد طبق الشوربة التي كانت تأتي معلبة في مطلع الخمسينيات، وأحبها إلى قلبك عصائبية الدجاج[1] «كامبيلز» وشوربة طماطم «كامبيلز»؛ ومما لا شك فيه أن لسان حال جميع الأولاد الأميركيين كان كذلك في ذلك الحين. أما الهامبرغر والهوت دوغ مع رقائق البطاطا المقلية فشكّلا طبقاً شهياً مترفاً تتناولهما مرة في الأسبوع في مخزن الملت المحلي المعروف باسم «كريكلوود» حيث اعتدت أنت وأصدقاؤك في المدرسة تناول الغداء معاً كل يوم خميس (لم يكن ثمة كافيتريا في مدرستك المتوسطة. كان من عادة جميع التلاميذ الذهاب إلى البيت لتناول الغداء، ولكن مذ كنت في التاسعة أو العاشرة من عمرك أذنت لك والدتك، كما أذنت والدات أصدقائك لهم، بتناول الوجبة التالية: الهامبرغر أو الهوت دوغ على نفقتهن الخاصة في مخزن «كريكلوود» كل خميس والتي لم تكلّف أكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين سنتاً). ثم كانت هناك الوجبة المسائية المشار إليها بصفتها وجبة الطعام الرئيسة [في الإنكليزية كلمتا (supper) و(dinner) تستخدمان بطريقة تبادلية]. كان الطبق الرئيس الأمثل في الوجبة المسائية مؤلفاً من شرحات لحم الغنم وفي المقام الثاني لحم البقر المشوي، ثم تلا هذين الطبقين من حيث الأهمية، من دون ترتيب تسلسلي: الدجاج المقلي والدجاج المحمّر، ولحم البقر مع خضر مطهوة على نار خفيفة،

---

(١) معكرونة مسطّحة على شكل عصائب أو شرائط. (المترجمة)

والمحمّر القدري[1] و«الاسباغيتّي» مع كرات اللحم والكبد المسوّقة وشرائح مقلية من السمك بدون حسك مغطاة بصلصة الطماطم المكثفة. وكان لطبق البطاطا حضور دائم، إذ لطالما اعتبر هذا الطعام اللذيذ مجلبة للمتعة بغض النظر عن طريقة إعداده (في الأساس كان يقدّم إما مخبوزاً وإما مهروساً). أما عرانيس الذرة فكانت طبق الخضر الذي يأتي في الدرجة الأولى، ولم يكن له مثيل، لكنّ موسم هذا الطبق اللذيذ كان قصيراً ومحصوراً في أواخر أشهر الصيف، ومن ثم أتيت بكل سرور على أطباق البازيلا أو البازيلا والجزر أو الفاصوليا الخضراء أو الشمندر التي قُدّمت على صحنك. لا تنسَ أيضاً الفشار ولب الفستق والفول السوداني وحلوى الخطمي الهشّة وأكواماً من المملّحات[2] مكسوة بهلامية العنب، والأطعمة المجلدة التي أخذت تظهر في آخر أيام الطفولة، ولا سيما فطيرة الدجاج وكعكة «سارة لي» الرطلية[3]. فقدت شهيتك للحلويات تقريباً في سنّك الحالية، ولكن عندما تعاود النظر إلى الزمن البعيد، أي إلى عهد الطفولة واليفاع، يذهلك ذلك القدر الكبير من المحليات والحلويات التي اشتهيتها والتهمتها: آنذاك في المقام الأول الجيلاتي؛ فقد بدا أنّ رغبتك الشديدة في تناول هذه الحلوى لن تشبع أبداً، بغض النظر عن طريقة إعدادها، سواء قدّمت من دون إضافات في كوب أم اكتست بالشوكولاتة المسيّلة أو على شاكلة آيس كريم مع الفواكه والمكسّرات أو آيس كريم عائم على عود (كما في ألواح الشوكولاتة «غود هيومر» و«كريم سيكلرز» إضافة إلى

(١) لحم بقري يحمر ثم يطبخ على نار خفيفة، مع قليل من الماء، في قدر مقفلة. (المترجمة)

(٢) بسكويتات رقيقة، هشة، مذررة بملح خشن. (المترجمة)

(٣) رطل من الزبدة ورطل من الطحين ومقدار وافر من البيض. (المترجمة)

الآيس كريم الكامن في أشكال دائرية (البونبون)، ومستطيلة (البايات الأسكيموموية) وعلى شكل قبب (بايكد آلاسكا)). كان الآيس كريم بمنزلة التبغ في أيام يفاعك: الإدمان الذي تسلّل إلى روحك والذي أغواك دائماً وأبداً بمفاتنه، لكنك كنت أيضاً تلحّ دائماً في تناول «الكيك» (المغطى بطبقة من الشوكولاتة! والكعكة الملائكية)[1]، ومختلف أنواع الكعيكات: «الأصابع الفانيلا» (Vanilla Fingers) و«بوريز دوبل ديب تشكلايت» و«فيغ نيوتنز» و«مالّلومارس» و«أوريوز»، وبسكويت «السوشال تي» فضلاً عن المئات إن لم يكن الآلاف من ألواح الكراميل أو الحلويات المشتملة على الشوكولا والجوز التي التهمتها قبل سن الثانية عشرة: «الميلكي واي» و«الثري موسكيتيرز» و«التشانكيز» و«التشارلستون تشوز» و«اليورك مينتس» و«جونيور مينتس» وألواح «المارس» وألواح «السنيكرز» و«البايبي روثز» و«الميلك دودز» و«التشوكيلز» و«الغوبرز» و«الدوتس» وعلكة «العناب» (Jujubes) و«الشوغار داديز» واللّه يعلم ما إذا كان ثمة المزيد منها. كيف يعقل أن تكون تمكنت من البقاء نحيفا في خلال السنوات التي كنت تتناول فيها كل تلك المواد السكرية وأن يكون جسدك تابع نموه طولاً وليس عرضاً وأنت تتجه نحو المراهقة؟ أنت ممتن لأن ذلك كله أصبح من الماضي الآن، ولكن بين الفينة والأخرى، ربما مرة كل سنتين أو ثلاث، وفيما أنت تقتل الوقت في أثناء الانتظار في أحد المطارات قبل البدء برحلة جوية طويلة المسافة (لسبب مجهول لا يظهر هذا الأمر إلا في المطارات)، وإذا توجهت إلى الجناح الذي تباع فيه الجرائد والمجلات لشراء جريدة، لا بد أن يتملكك فجأة شعور بالحنين إلى الماضي، وبعد ذلك لا بد أن تلقي

---

(١) كعكة بيضاء اسفنجية القوام تصنع من الدقيق والسكر والبيض. (المترجمة)

نظرك على الحلويات والسكاكر المعروضة أسفل مسجلة النقد، وإذا ما صودف أن وجدت من بينها أحد أصناف الكراميل أو «التشاكيلز» فلا بد لك من أن تشتريها. ولا تكاد تمضي عشر دقائق حتى تكون قد أجهزت عليها كلها: الحمراء والصفراء والخضراء والبرتقالية والسوداء.

«جوبيرت» وجملته: نهاية الحياة مريرة. قبل انقضاء سنة على كتابته هذه الكلمات في سن الحادية والستين التي لا بد أن تكون عدّت سنّاً كبيرة في العام ١٨١٥، خلافاً للاعتقاد السائد الآن، دوّن باختصار وعلى عجل، صيغة أكثر تحدياً، أكثر إثارة للاهتمام حول نهاية الحياة: يجب أن يموت المرء وهو محبوب (إذا استطاع). تؤثر فيك هذه الجملة، تحرّكك، ولا سيما الكلمات الواقعة بين هلالين. تشعر أنها تكشف عن روح تتسم بوعي نادر وإدراك توصّل إليه لا يستطيع أي إنسان بلوغه يفيد بأنه ليس من السهولة أن تكون محبوباً، وخصوصاً بالنسبة إلى شخص كبير في السن يرزح تحت وطأة العجز والوهن بسبب الشيخوخة ويستلزم رعاية الآخرين واهتمامهم إذا استطاع. ربما أعظم إنجاز يقوم به الإنسان هو أن يستحقّ الحب لا أن يستعطيه في النهاية بغض النظر عما إذا كانت تلك النهاية مريرة أم لا. تلويث فراش الموت بالبول والبراز واللعاب: تقول في سرّك إن جميعنا إلى هذا الدرب سائرون، والسؤال هنا هو: إلى أي درجة يمكن لمطلق أي شخص البقاء إنساناً فيما هو يتخبط في حالة من العجز والإذلال؟ ليس بمقدورك التنبؤ بما سيحدث عندما يحين اليوم الذي تزحف فيه إلى الفراش لآخر مرة، ولكن إذا لم تؤخذ على حين غرّة كما حدث لوالديك فأنت ترغب في أنك تستحق الحب. هذا إذا استطعت.

يجب أن لا تسهو عن الإشارة إلى أنك كدت تموت خنقاً بسبب حسكة سمكة في سنة ١٩٧١، أو أنك نجوت بمشقة من قتل نفسك

في رواق معتم ذات ليلة في العام ٢٠٠٦ وذلك عندما خبطت جبينك بقوة بإطار باب منخفض، فتعثرت إلى الخلف ومن بعدها، وفيما كنت تحاول استعادة توازنك، هويت نحو الأمام وعلقت قدمك بعتبة النافذة فانطرحت على أرض الشقة التي دخلتها، بوجهك أولاً، بحيث استقرّ أعلى رأسك على بعد إنشات قليلة من إحدى أرجل طاولة سميكة. ثمة أناس يموتون كلّ يوم وفي جميع الدول في أرجاء العالم من جرّاء سقطات كهذه. مثال على ذلك ما جرى لعم أحد أصدقائك، الرجل ذاته التي كتبت عنه منذ تسعة عشر عاماً «دفتر اليوميات الأحمر» القصة (رقم ٣)، الذي نجا من جروح أصيب بها جرّاء طلقات نارية والعديد من المخاطر عندما كان أحد محاربي المقاومة ضد النازيين في الحرب العالمية الثانية، شاباً تمكن من النجاة من الموت المحتّم أو بتر وشيك لأحد أعضائه، بوتيرة منتظمة على نحو يصيب المرء بالذهول. لكن وبعد انتقاله إلى «شيكاغو» بعد انتهاء الحرب والعيش في ظل الهدوء في أميركا أيام السلم بعيداً عن ساحات المعارك والحروب والرصاص المتطاير والألغام الأرضية المنفجرة التي تعرّض لها في مرحلة الشباب، استفاق في إحدى الليالي للذهاب إلى الحمّام، فتعثر بقطعة من الأثاث في غرفة المعيشة المظلمة، وقضى عندما تهشّم رأسه بعد اصطدامه بإحدى أرجل طاولة سميكة. موت عبثي، موت خارج نطاق المنطق والمعقولية؛ كان من الممكن أن تنتهي حياتك على هذا النحو منذ خمس سنوات لو أنّ رأسك استقرّ على مسافة إنشات قليلة من جهة اليسار. وعندما تفكر في الطرائق السخيفة التي يمكن أن يلاقي الناس حتفهم فيها: التدحرج على الدرج، زلة القدم، السقوط عن السلّم، الغرق عرضياً، الدهس بالسيارة، الإصابة برصاصة طائشة، بالصدمة الكهربائية بسبب جهاز إرسال واقع في المغطس... لا يسعك

إلا أن تستنتج أن كلّ حياة موسومة بعدد من المرات التي تنجو فيها بأعجوبة وأن كلّ من يتمكن من بلوغ السن التي بلغتها أنت الآن سبق له أن نجا من عدة ميتات عبثية وتافهة ومحتملة الوقوع في خلال ما يمكن تسميته حياة عادية. غني عن القول إن ملايين من البشر واجهوا أسوأ من هذه الميتات المحتملة بكثير ولم يتنعموا بعيش حياة عادية، على سبيل المثال: جنود قضوا في المعركة أو ضحايا حروب مدنيون أو ضحايا الحكومات التوتاليتارية؛ إضافة إلى كثيرين لا يحصى عددهم ممن قضوا من جراء كوارث طبيعية: فيضانات وزلازل وأعاصير مدارية وأوبئة. ولكن حتى أولئك الذين تمكّنوا من النجاة من إحدى الكوارث أو النوائب هم مثلنا تماماً نحن الذين جنّبنا هذه الفظائع، يقعون فريسة أهواء ونزوات الحياة اليومية، كما جرى لعم صديقك الذي ضلّل الموت في المعركة وتوفّي ذات ليلة في إحدى شقق «شيكاغو» وهو في طريقه إلى الحمّام. في العام ١٩٧١، استقرّت الحسكة في أسفل حلقك. كنت تأكل ما خلته فتيلة من الهلبوت[1]، ولذلك السبب لم تقلق بشأن الحسكة لوثوقك بأنّ السمك خالٍ منها، لكنك في لحظة من اللحظات وجدت أنك لا تستطيع أن تبلع من دون أن تتألم، ثمة شيء ما عالق هناك؛ ولم تنفع جميع العلاجات التقليدية: شرب الماء وأكل الخبز ومحاولة سحب الحسكة بأصابعك. لقد دخلت الحسكة عميقاً في حلقك وكانت طويلة وثخينة كفاية بما يكفي لتنغرز على كلا الجانبين، وكلما حاولت لفظها بالسعال امتزج ريقك بالدم. حدث ذلك في نيسان/أبريل أو أيار/مايو وقد وصلت إلى باريس قبل شهرين ونصف شهر لتسكن فيها. وعندما بات جلياً أنك لن تقدر على سحب

(١) سمك بحري من أسماك المحيطين الأطلسي والهادئ، يعتبر أضخم الأسماك المفلطحة. (المترجمة)

الحسكة بنفسك، غادرت أنت وصاحبتك شقتكما في شارع «جاك ماواس» وتوجّهتما مشياً إلى أقرب مركز طبي في الحي: «مستشفى بوسيكو» (Hôpital Boucicaut). كانت الساعة الثامنة أو التاسعة مساء ولم يكن لدى الممرضات أدنى فكرة عن كيفية حل مشكلتك. قمن ببخ سائل مخدر في حلقك، ودردشن معك وضحكن، لكن الحسكة العالقة في حلقك تعذر الوصول إليها ومن ثم لم يكن بالإمكان إخراجها. أخيراً، وفي حوالى الساعة الحادية عشرة جاء طبيب الأحوال الطارئة لتأدية وظيفته في فترة الليل: شاب اسمه «ماير»؛ إسرائيلي آخر في هذا الحي الذي سكنه في السابق مدوزن البيانو الأعمى؛ إذ ويا للعجب، تبيّن لك أن هذا الطبيب الشاب، الذي قدّرت أن يكون أكبر منك بأربع أو خمس سنوات لا أكثر، مختص في أمراض الأذن والأنف والحنجرة. بعد أن بصقت بعض الدم بناء على طلبه في خلال المعاينة الأولية، طلب منك أن تتبعه عبر الفناء إلى عيادته الخاصة في مبنى آخر تابع للمستشفى. قعدت على أحد الكراسي وقعد هو على آخر ومن ثم فتح حقيبة جلدية كبيرة تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثين أو أربعين طقماً من الملاقط الصغيرة. عرض باهر يثير الدهشة والإعجاب لأدوات فضية لامعة، ملاقط صغيرة من جميع الحجوم والأشكال، بعضها ذو أطراف مستقيمة وبعضها ذو أطراف معقوفة وبعضها ذو أطراف مفتولة وبعضها ذو أطراف مقوّسة؛ بعضها قصير وبعضها طويل، وبعضها متشابك ومعقد التصميم وشكله غريب عجيب بحيث لم يسعك أن تتخيل كيف يمكن هذه الأدوات الدخول في حلق الإنسان. طلب منك فتح فمك، وأخذ يوجّه بلطف وبتؤدة أطقماً متنوعة من الملاقط الصغيرة إلى أسفل المريء، أنزلها أكثر فأكثر بحيث غدوت غير قادر على إبقاء فمك مفتوحاً وشعرت برغبة في التقيؤ وبصقت المزيد من

الدم كلما أخرج من حلقك أحدها. طلب منك التزام الصبر مضيفاً أنه على وشك سحب الحسكة؛ ثم وعند قيامه بالمحاولة الخامسة عشرة لاقتلاعها باستخدامه أحد أضخم الملاقط التي في جعبته، الملقط «الجد»، بطرفه المعقوف الوحيد على نحو مبالغ فيه إلى حد فاق الطبيعة، أطبق على الحسكة بإحكام وشدها بقوة وهزّها إلى الأمام وإلى الخلف لتفكيك أطرافها المحددة المغروزة في لحمك، ورفعها بتمهّل إلى النفق الحلقي أولاً ومن ثم إلى خارج فمك. بدت أسارير الانبساط والدهشة على وجهه: «مبسوط» بنجاحه ومتفاجئ في الوقت ذاته بحجم الحسكة التي بلغ طولها ثلاثة أو أربعة إنشات على أقل تقدير. كنت متفاجئاً مثله، وتساءلت في سرّك كيف قدرت على ابتلاع شيء بهذه الضخامة؟ ذكّرتك بإبرة خيط أسكيموية وبالسناد المشدود إلى المادة القرنية التي تشكّل الصفائح المهدّبة، التي تتدلى من الفك الأعلى للحوت، وبسهم مريّش سام. قال الدكتور «ماير» وهو لا يزال يتطلع إلى الحسكة التي رفعها إلى مستوى نظرك: «أنت محظوظ. كان من الممكن أن تقضي هذه الحسكة عليك».

لم تتساقط الثلوج بكميات كبيرة منذ ليلة الأول من شباط/فبراير، لكنه شهر قارس ببرده، وشمسه مختبئة: مطر غزير، رياح شديدة فيما أنت رابض في غرفتك كل يوم تكتب هذه المذكرات، هذه الرحلة، طوال الشتاء وإلى الآن، ومع قدوم شهر آذار/مارس. والبرد لا يزال كما كان برد الشتاء في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير. على الرغم من ذلك تخرج من البيت كل صباح لإلقاء نظرة فاحصة على الحديقة، وتبحث عن علامة تدلّ على التغيير، عن أثر للون، عن لون أصفر على طرف ورقة زعفران طالعة من الأرض، عن أول لمسة خفيفة للأصفر

على شجيرة الفرسيثية[1]، ولكن لا شيء يشي بقدوم الربيع إلى الآن. سوف يأتي الربيع متأخراً هذا العام، وأنت تتساءل: كم أسبوعاً آخر ستنتظر بعد حتى يصبح بإمكانك البدء بالبحث عن أبي حنّاء الأوَّل؟

* * *

انتشلك الراقصون من حالتك السوداوية. هم من أعادك إلى الحياة تلك الأمسية في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٨٧، ومن مكّنك من اختبار لحظة التجلي اللافحة التي دفعتك من خلال فرجة في الكون وفسح لك في المجال بأن تبدأ من جديد. أجساد تتحرك، أجساد في الفضاء، أجساد تثب وتتلوى في فضاء محيط لا أصوات فيه. ثمانية راقصين وراقصات في قاعة رياضية في إحدى مدارس «مانهاتن» الثانوية: أربعة رجال وأربع نساء، جميعهم صغار في السن، راقصون ثمانية من الجنسين في مطلع العشرينيات، وأنت جالس في المدرج المكشوف مع معارف لمصممة الرقص يبلغ عددهم حوالى الاثني عشر. حضرتم إلى المكان لمشاهدة بروفة حرة (للهواة والمشتركين) لرقصتها الجديدة. دعيت من قبل «دايفيد ريد»، رسّام التقيته في الرحلة البحرية الطالبية، على متن السفينة التي أبحرت بك إلى أوروبا في العام ١٩٦٥؛ وقد أصبح أقدم صديق لك في «نيويورك» طلب منك المجيء لأنه كان على علاقة عاطفية بمصمّمة الرقص، «نينا و.»، وهي امرأة لم تكن تعرفها جيداً ولم تدم علاقتها بـ«دايفيد» طويلاً. ولكن على افتراض أنك لا تشوه الحقائق، تعتقد أنها في بداية عملها كانت إحدى الراقصات في فرقة «ميرس كوننغهام»، وبما أنها قد حوّلت طاقاتها إلى تصميم الرقص،

---

(١) شجيرة من الفصيلة الزيتونية ذات زهرات صفراء جرسية الشكل. (المترجمة)

فثمة شبه بين أسلوبها وأسلوب «كوننغهام»: محكم وتلقائي ولا يمكن التنبؤ به. كانت أحلك لحظات حياتك: في سن الحادية والثلاثين، وزواجك الأول انهار تواً ولديك ابن يبلغ السنة ونصف السنة من عمره؛ لا وظيفة منتظمة لديك، ولا مال في جعبتك تفصح عنه. تتمكن بصعوبة من كسب رزقك القليل وغير الكافي بصفتك مترجماً مستقلاً ومؤلفاً لثلاثة دواوين شعرية صغيرة، ولا يتعدى عدد قرائك في العالم كله المئة قارئ. زدت دخلك الزهيد قليلاً من خلال كتابة مقالات نقدية في مجلات متخصصة مثل «هاربرز» ومجلة «نيويورك النقدية» (New York Review of Books). عدا رواية بوليسية كتبتها تحت اسم مستعار في الصيف السابق ساعياً وراء ذلك لكسب المال نقداً (التي لم يكن لها ناشر حتى ذلك الوقت)، تخبّطت في أعمالك حتى توقفت نهائيا. لم يعد بيدك حيلة ووقعت في الحيرة والاضطراب. لم تكن نظمت مقطوعة شعرية واحدة منذ أكثر من سنة، مدركاً شيئاً فشيئاً أنك لن تستطيع الكتابة مجدداً. في هذا المأزق كنت واقعاً في تلك الأمسية الشتائية التي مرّ عليها أكثر من اثنين وثلاثين عاماً، وفي أتعس حالاتك، أي حين دخلت قاعة الرياضة في الثانوية لمشاهدة البروفة الحرة لعمل «نينا و.». كنت جاهلاً في الرقص ولا تزال إلى الآن، لكنك لطالما تجاوبت مع هذا الفن وشعرت بسعادة باطنية كلما شاهدته يؤدى بإتقان. وفيما اتخذت مقعدك للجلوس إلى جانب «دايفيد»، لم يكن لديك أدنى فكرة عما تتوقع مشاهدته بما أنك لم تشاهد قبلاً أياً من أعمال «نينا و.». وقفت «نينا» على حلبة الرقص في القاعة وأوضحت للجمهور الضئيل العدد أنّ البروفة سوف تقسم إلى جزءين متعاقبين: عروض توضيحية للحركات الرئيسية للرقصة من قبل الراقصين وتعليق شفوي من قبلها. ثم تنحّت جانباً وبدأ الراقصون والراقصات

بالتحرك في أرجاء الباحة. أول ما لفتك هو عدم وجود مرافقة موسيقية للرقصة. هذه الإمكانية لم تخطر ببالك إطلاقاً، أي الرقص على وقع موسيقا صامتة وليس موسيقا فعلية، لأنه لطالما بدت لك الموسيقا جزءاً أساسياً بالنسبة إلى الرقص، بل هي لا تنفصل عنه، ليس لأن الموسيقا تحدّد إيقاع الأداء ومستوى سرعته فحسب، ولكن لأنها تخلق جوّاً عاطفياً للمشاهد، وتضفي تساوقاً جميلاً وترابطاً سردياً على الرقص وألا يكون هذا الأخير مجرداً تماماً. ولكن في هذه الحالة كانت أجساد الراقصين مسؤولة عن إنشاء إيقاع ونغمة للرقصة. حالما بدأت تعتاد هذا الأمر اكتشفت أن غياب الموسيقا ينشّط الأحاسيس والخيال بما أن الراقصين كانوا يسمعون الموسيقا والإيقاعات الموسيقية في مخيّلاتهم، يسمعون ما لا يمكن سماعه. ولأن هؤلاء الشباب الثمانية كانوا راقصين بارعين، بل في الحقيقة راقصين استثنائيين رائعين، لم يمض وقت طويل حتى بدأت تسمع تلك الإيقاعات الموسيقية في مخيلتك أيضاً. لم يكن ثمة أصوات ما عدا أصوات أقدام حافية ترتطم بأرضية قاعة الرياضة الخشبية. ليس بإمكانك تذكّر حركاتهم بالتفصيل ولكن في ذاكرتك ترى القفز والدوران والانخفاض والتحرّك بسلاسة، وأذرعاً تلوّح وأذرعاً تهوي على الأرض، وأرجلاً تخبط وتركض إلى الأمام وأجساداً تتلامس ثم لا تتلامس. أعجبت أيما إعجاب برشاقة الراقصين وقوتهم البدنية. بدا لك أنّ مشهد أجسادهم وهي تتحرك من دون مواكبة موسيقية أخذك إلى مكان لم تستكشفه في داخلك قبلاً، وشيئاً فشيئاً شعرت بإحساس ما ينمو في داخلك: شعرت بسعادة تسري في جسدك كله وتتصاعد إلى رأسك، سعادة جسدية وعقلية معاً، شعور بالسعادة يكبر ويكبر بحيث انتشر في كل جزء من أجزاء جسدك ولم يتوقف. ثم وبعد ست أو سبع دقائق، توقّف الراقصون. خطت «نينا

و.» إلى الأمام لتشرح للجمهور ما شاهده تواً، وكلما استفاضت في الشرح وحاولت الإضاءة بإسهاب على هذا النوع من الرقص وعلى أنماطه بجدية وبشغف، قلّ فهمك لكلماتها؛ لم يكن السبب استخدامها كلمات تقنية علمية غير مألوفة بالنسبة إليك، بل الحقيقة الأكثر أهمية والقائلة بأن كلماتها كانت عديمة الجدوى تماماً ولا توفي بالمطلق بالغرض المطلوب منها، أي وصف الأداء الصامت الذي شاهدته تواً، لأنّ الكلمات لا تستطيع نقل كامل ما قدمه الراقصون بأجسادهم ووحشيتها. ثم تنحّت جانباً، وابتدأ الراقصون بالتحرّك ثانية، وأفعموك بالسعادة ذاتها التي شعرت بها قبل أن يتوقفوا. بعد خمس أو ست دقائق، توقفوا مجدداً وكرةً أخرى تقدّمت «نينا و.» للتحدث ثانية، مخفقة مرةً أخرى في وصف واحد بالمئة من مقدار الجمال الذي لمحته في الرقصة. وهكذا بقيت المداورة طوال الساعة التالية: الراقصون يتبادلون الأدوار مع مصمّمة الرقصات، وأجساد تتحرك تتبعها كلمات، مشهد من الجمال المطلق تتبعه ضجة فارغة المعنى، سعادة يتبعها ملل وضجر؛ وفي لحظة ما بدأ شيء ما يتفتح في داخلك، لقيت نفسك تقع في الشق الفاصل بين العالم والكلمة، الهوة التي تفصل حياة البشر عن مقدرتنا على فهم حقيقة الحياة البشرية أو التعبير عنها؛ ولأسباب ما زالت فوق إدراكك، غمرتك هذه الوقعة الفجائية في الفضاء الخالي غير المحدود بإحساس من الحرية والسعادة، وحينما انتهى العرض لم تعد رؤيتك محجوبة؛ لم تعد مثقلاً بالشكوك والمخاوف التي أعاقتك وأقضّت مضجعك وأزعجتك طوال السنة السابقة. رجعت إلى بيتك في «داتشيز كاونتي»، وإلى حجرة العمل في الطبقة السفلية حيث اعتدت أن تنام منذ بطلان زواجك، وفي اليوم التالي بدأت تكتب. عملت على نص لا ينتمي إلى أي نوع أدبي محدد مدة ثلاثة أسابيع، فهو

ليس قصيدة شعر أو قصة نثرية، محاولاً أن تصف ما شاهدته وشعرت به وأنت تتفرّج على الراقصين وهم يرقصون ومصممة الرقص تتحدث في تلك القاعة الرياضية في إحدى ثانويات «مانهاتن». في بادئ الأمر كتبت صفحات كثيرة ومن ثم اختصرتها بثماني صفحات. كان أول عمل أدبي لك في حالة التجلّي الثانية لك ككاتب: الجسر المؤدي إلى كل ما كتبته في السنوات منذ ذلك الحين إلى الآن. وتذكر إتمامك لهذا العمل في خلال عاصفة ثلجية في وقت متأخر ذات ليلة سبت، في الثانية فجراً. كنت الساهر الوحيد في البيت الساكن، والشيء الرهيب الذي صبغ تلك الليلة، الشيء الذي لا يزال يلحّ عليك هو أنه وفي لحظة إتمامك لقطعتك الأدبية، التي سمّيتها لاحقاً «فسحات بيضاء» (White Spaces) كان والدك يموت بين ذراعي صاحبته. مثلثاتية القدر الرهيبة: لحظة رجوعك إلى الحياة ثانية بلغت حياة والدك نهايتها.

لكي تؤدي عملك عليك أن تمشي. المشي هو ما يوجد لك الكلمات وهو ما يتيح لك سماع إيقاعات الكلمات فيما تكتبها في ذهنك: قدم إلى الأمام ثم القدم الأخرى إلى الأمام، وصوت النبضات الصاخب والمتضاعف في قلبك. عينان وأذنان وذراعان ورجلان: هذه ومن ثم تلك، تلك ومن ثم هذه. الكتابة تبدأ في الجسد، هي موسيقا الجسد؛ حتى وإن كان للكلمات معنى وإن كان لديها معنى في بعض الأحيان فإن موسيقا الكلمات تكون حيثما تبدأ المعاني. تجلس إلى مكتبك كي تدوّن الكلمات، ولكن في ذهنك أنت لا تزال تمشي، دائماً تمشي، وما تسمعه هو إيقاع قلبك، خفقان قلبك. يقول «ماندلستام»: «أتساءل عن عدد الصنادل التي انتعلها «دانتي» وبليت فيما كان يكتب «الكوميديا الإلهية» (Commedia)». الكتابة شكل من أشكال الرقص، لكنه أدنى مرتبة منه.

في خضم تسجيلك قائمة أسفارك قبل تسعين صفحة، سها عن بالك الإشارة إلى الرحلات التي قمت بها بين «بروكلين» و«مانهاتن»، أي ثمة إحدى وثلاثون سنة من الترحال داخل مدينتك منذ انتقالك إلى «مقاطعة كنغز» (Kings County) في العام ١٩٨٠ بمعدل مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، ما يزيد عدد رحلاتك إلى عدة آلاف رحلة: كان العديد منها عبر مترو الأنفاق، ولكن ثمة رحلات كثيرة أخرى تمت جيئة وذهاباً عبر جسر «بروكلين» بسيارات خاصة وبسيارات أجرة. عبور على الجسر ألف مرّة، ألفي مرة، خمسة آلاف مرّة... محال معرفة عدد المرات، ولكن من المؤكد أنها الرحلة التي اعتدت القيام بها أكثر من أي رحلة أخرى في حياتك، وما من مرة تخلّفت عن الإعجاب بالهندسة المعمارية للجسر: الإدماج الغريب ولكن الوافي بالغرض تماماً بين القديم والحديث الذي يميّز هذا الجسر من جميع الجسور الأخرى، إضافة إلى عدم التوافق بين الحجر السميك للقناطر المشيدة على الطراز القوطي الوسيطي وبين المقوسات الفولاذية العنكبوتية الرقيقة، بيد أنهما متناسقان. كان المبنى الأعلى من صنع الإنسان ذات مرة في أميركا الشمالية؛ وقبل حدوث الجرائم الانتحارية التي اقترفت في «نيويورك» لطالما كانت الرحلة من «بروكلين» إلى «مانهاتن» عبر هذا الجسر الأثيرة لديك، وترقّب الوصول إلى البقعة المحددة حيث أمكنك رؤية تمثال الحرية في المرفأ على يسارك على نحو متزامن مع رؤية الصورة الظلية لوسط المدينة ماثلة أمامك: المباني الضخمة التي اعتدت رؤيتها تبرز إلى النظر فجأة ومن بينها البرجان بالطبع، البرجان القبيحا المنظر اللذان أصبحا تدريجاً جزءاً مألوفاً من المنظر الطبيعي للمدينة. على الرغم من أنك لا تزال تدهش لرؤية المباني والسماء من خلفها كلما دنوت من «مانهاتن» في الحاضر بعدما أزيل البرجان،

لم يعد بإمكانك العبور من دون التفكير في الموتى وفي مشاهدة البرجين يحترقان من نافذة غرفة نوم ابنتك في الطبقة العلوية لبيتك، وفي الدخان والرماد المتساقط على شوارع حيك طوال ثلاثة أيام بعد الهجوم، وفي الرائحة الكريهة التي تسدّ الأنوف والباعثة على الاختناق التي اضطرتك إلى إغلاق جميع نوافذ بيتك حتى تحوّلت الرياح أخيراً من «بروكلين» يوم الجمعة. وعلى الرغم من أنك ظللت تعبر الجسر مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع منذ حادثة ١١ أيلول/سبتمبر، أي منذ تسعة أعوام ونصف العام، لم تعد الرحلة هي ذاتها؛ الموتى لا يزالون هناك، كما لا يزال البرجان قائمين: ينبضان في الذاكرة، ولا يزالان ماثلين للنظر كحفرة فارغة في السماء.

سمعت الموتى ينادونك، ولكن مرة واحدة فقط. مرة واحدة في عمرك كله. لست من الأشخاص الذين يرون أشياء غير موجودة؛ وأنت برغم حيرتك بخصوص من تشاهده في الغالب، لست عرضة للهلوسات أو ميالاً إلى تغيرات الواقع الوهمية. الأمر ذاته ينطبق على أذنيك أيضاً. فبين الحين والآخر، وبينما تكون في إحدى جولاتك في أنحاء المدينة، تخال أنك تسمع أحداً يناديك وتعتقد أنك تسمع صوت زوجتك أو ابنتك أو ابنك يهتف باسمك من الجهة المقابلة للشارع، ولكن عندما تلتفت للبحث عنهم تجد دائماً شخصاً آخر يقول: بول أو أبي أو بابا. ولكن منذ عشرين عاماً أو ربما منذ خمسة وعشرين عاماً، وفي ظل ظروف مختلفة تماماً عن ماجريات حياتك اليومية، اختبرت هلوسة سمعية لا تزال تربكك بوضوحها وقوّتها: جهارة الأصوات التي سمعتها وكأنما جوقة من الأموات صرخت فيك ليس أكثر من خمس أو عشر ثوان. كنت في «ألمانيا» تقضي نهاية الأسبوع في «هامبورغ»، وصباح الأحد اقترح عليك صديقك «مايكل ناومان»، الذي كان أيضاً ناشر كتبك الألماني،

أن تذهب بمعيته لزيارة «بيرغين - بيلسين» أو الأحرى الموقع الذي كان «بيرغين - بيلسين» قائماً عليه. رغبت في الذهاب حتى وإن كان شيء ما في داخلك يقول لك: لا تذهب. وتذكر الجولة بالسيارة إلى هناك على الطريق السريع الخالي تقريباً في ذلك الصباح الملبّد بالغيوم: سماء رمادية - بيضاء تهيمن على أميال متتالية من أرض ممهدة، ومشاهدة سيارة كانت قد اصطدمت بإحدى الأشجار على جانب الطريق وجثة السائق ممدّدة على العشب، جثة هامدة لا حياة فيها ومشوهة، ولهذا أدركت فوراً أنّ الرجل ميت. وقبعت هناك في السيارة تفكّر في «آن فرناك» وفي شقيقتها «مارغو» اللتين توفيتا في «بيرغين - بيلسين» مع عشرات الآلاف من الناس، ألوف مؤلفة قضوا هناك بسبب «التيفوس» والمجاعة، والضرب والجلد والقتل العمد. عشرات الأفلام والأفلام الإخبارية القصيرة عن معسكرات الموت التي شاهدتها كانت تدوّم في رأسك وأنت جالس على مقعد الركاب في السيارة؛ وعندما اقتربت أنت و«مايكل» من وجهتكما المقصودة، تضاعفت في داخلك مشاعر القلق والانكفاء. لم يبق أثر للمعسكر في حد ذاته، فلقد هدّمت المباني وأزيلت الثكنات العسكرية ونقلت بعيداً، كما زالت السياجات المصنوعة من الأسلاك الشائكة، ولم يبق أثر ماثل للعين سوى متحف صغير، مبنى مؤلف من طبقة واحدة حشدت فيه صور فوتوغرافية بالأسود والأبيض وبحجم الملصقات الإعلانية مرفقة بنصوص توضيحية: مكان قاتم، مكان رهيب، لكنه مجرّد ومعرّى ومعقّم جداً إلى حد أنك لاقيت صعوبة في تخيّل حقيقته كما كانت في أثناء الحرب. لم يكن بمقدورك أن تشعر بحضور الموتى وبالذعر الذي هيمن على الآلاف المؤلفة من الذين حشروا في تلك القرية الجهنّمية

المزنّرة بالأسلاك الشائكة. وفيما كنت تتمشى في أرجاء المتحف برفقة «مايكل» (في ذاكرتك كنتما الشخصين الوحيدين هناك)، تمنيت لو أنّ المعسكر لم يمس وترك على حاله كي يتسنّى للعالم معرفة الشكل المعماري للمبنى الذي شهد تلك الأعمال البربرية. ثم خرجتما من لمكان وخطوتما على الأرض التي كان يحتلها معسكر الموت، لكنه غدا حقلاً معشوشباً الآن، أراض من العشب الجميل المعتنى به جيداً، والممتدة على مدى عدة مئات من الياردات في جميع الاتجاهات. ولولا وجود العلامات المتنوعة والعديدة المغروسة في الأرض التي دلت على المواقع التي أقيمت عليها الثكنات العسكرية، وحيث كانت مبان ارتكبت فيها أعمال وحشية ماثلة (في أيام الحرب)، لما كان ليعلم أحد بما جرى في هذا المكان قبل عدة عقود. ثم وقفت عند بقعة من العشب مرتفعة قليلاً، أي أعلى من غيرها بثلاثة إنشات أو أربعة. بقعة مستطيلة بالتمام والكمال قياس عرضها يبلغ حوالى عشرين قدماً وطولها ثلاثين قدماً، أي بحجم غرفة كبيرة. وفي إحدى الزوايا نصبت علامة في الأرض كتب عليها: «هنا رفات ٥٠,٠٠٠ جندي روسي». كنتما واقفين على مقبرة دفن فيها خمسون ألف رجل. بدا من غير المعقول أن تتسع مساحة صغيرة كهذه لأعداد كبيرة من الجثث. وعندما حاولت تخيّل تلك الأجساد تحت قدميك، الجثث المتشابكة لخمسين ألف شاب حشرت في ما وجب أن تكون أعمق الحفر العميقة، بدأت تشعر بالدوار؛ «دوّخك» التفكير في وجود الموت على هذا النحو وفي هذا القدر الكبير من أموات حصروا في بقعة من الأرض صغيرة كهذه. وبعد لحظة سمعت الصرخات: موجة عارمة من الأصوات هدرت من الأرض الواقعة تحت قدميك، وسمعت من أعمق أعماق الموتى صرخة قوية من فرط الكرب، من فرط الألم، صرخة شلال هادر، تهدر صرخة عذاب

تصمّ الآذان. كان التراب يصرخ. لبثت تسمع الأصوات مدة خمس أو عشر ثوان ومن ثم ران السكون.

تتحدث إلى والدك في أحلامك. منذ سنين عديدة وإلى الآن يداوم على زيارتك في غرفة مظلمة في النطاق الآخر من الوعي: يجلس معك إلى طاولة وقتاً طويلاً وتتأنيان في الحديث بكل هدوء وحذر، دائماً يعاملك بلطف وبنيّة طيبة، دائماً يصغي إليك باهتمام وينتبه لما تقول له، ولكن حالما ينتهي الحلم وتستيقظ لا يسعك تذكر كلمة واحدة مما قلتماه أنتما الاثنان.

كم مرة قمت بهذه الأفعال: العطاس والضحك، التثاؤب والبكاء، التجشؤ والسعال، حك أذنيك وفرك عينيك، التمخط والتنحنح، عضّ شفتيك، إمرار لسانك على ظهر أسنانك السفلية، الارتجاف، الضراط، «الفواق»، مسح العرق عن جبينك، إمرار يديك في شعرك؟ كم مرة صدمت أصابع قدميك وهشمت أصابع يديك؟ كم مرة تلقيت خبطات على رأسك؟ كم مرة تعثرت وتزحلقت ووقعت؟ كم مرة غمزت بعينيك؟ ما هي عدد الخطوات التي اتخذتها؟ وكم ساعة قضيتها والقلم بيدك؟ كم قبلة تبادلتها مع أخريات؟

تضم طفليك الصغيرين.

تضم زوجتك.

قدماك الحافيتان على الأرضية الباردة فيما أنت تنزل من السرير وتتجه إلى النافذة. أنت في الرابعة والستين. في الخارج الهواء رمادي، أبيض تقريباً ولا شمس في مجال النظر. تسأل نفسك: كم صباحاً تبقّى من عمرك؟

أُغلق باب وفُتح باب آخر.

أصبحت في شتاء العمر.

«مذكرات متوهّجة... تأملية، مشاكسة، وناعمة لدرجة مؤلمة... كتاب جميل في العمق...» **الواشنطن بوست**



روائي وشاعر وُلد في نيوجيرسي عام ١٩٤٧، وهو من أصل بولندي. تخرّج في جامعة كولومبيا عام ١٩٧٠ حيث درس اللغة الإنجليزية وحاز شهادة ماجستير في الأدب المقارن، ومُنح دكتوراه فخرية من جامعة «لييج». انتقل إلى باريس حيث ترجم أعمالاً أدبية فرنسية. عاد إلى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٧٤، وبدأ بنشر أعماله وترجماته ولا يزال يكتب حتى اليوم. حصل على جوائز عدّة منها Prix France Culture de Littérature Étrangère عام ١٩٨٩ عن «ثلاثية نيويورك»، وجائزة Prince of Asturias Award الأدبية عام ٢٠٠٦. كما رُشح للكثير من الجوائز وتُرجمت أعماله إلى أكثر من ٣٠ لغة. له منشورات كثيرة في مختلف المجالات كالشعر والرواية والسير الذاتية والخيال. كتب للسينما نصوصًا عدة منها Smoke الحائز جائزة Bodil Awards كأفضل فيلم سينمائي للعام ١٩٩٦ وIndependent Spirit Award كأفضل نص سينمائي للعام نفسه.

«هنا تبدأ الحكاية.. في جسدك.. وهنا أيضاً سينتهي كلّ شيء».
حكايةٌ شتائيةٌ بطلها أنا وأنت وهو، في جميع الأمكنة والأزمنة، يروي لنا پول أوستر من خلالها أحداثنا اليومية التي نحسبها للوهلة الأولى عادية مألوفة، ليشعرنا فجأة كم هي مؤثّرة وفاعلة وقادرة على قلب موازيننا وأحلامنا وحصادنا كله. زلّة قدم أو لسان قد تفضي بنا إلى الموت. يدٌ تتناغم مع باقي أعضاء الجسد وتقف وراء إبداعنا وعظمته، هي نفسها اليد العادية البسيطة التي بها نأكل ونسرّح شعورنا ونصفع أو نصافح.
كاتبٌ سارق يستدرجك إليه لأنك تحسب أنه يتحدّث عنك، عن حبك وصداقاتك وحياتك وموتك، ذاك الموت الذي تتعدّد طرائق حدوثه، من ميتة عبثيّة إلى أخرى في غير أوانها وثالثة متوقّعة بل مُنتظرة، لكنها تبقى كلها موجعة. هو كاتبٌ مخادعٌ بالتأكيد، يأخذنا في رحلة حلوة ومرّة كالحياة؛ تشدّنا وتقلقنا، تهزّنا، تضحكنا، تبكينا، وتترك أشدّ الأثر فينا.

ISBN 978-9953-88-830-9

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب: ٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر